

د. عائض القرني

عز العزلة

العبيكان
Obekon

٢ مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض بن عبدالله

عز العزلة. / عائض بن عبدالله القرني. - ط٢. الرياض، ١٤٣٠هـ

٣٤٤ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٥-٦٠٢-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١. المقالات العربية أ. العنوان

ديوي ٠٨١ ٣٥١ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٣٥١ / ١٤٣٠

ردمك: ٥-٦٠٢-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناسر

التوزيع: مكتبة العبيكان
Obeyan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤ / فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناسر العبيكان للناسر
Obeyan

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١ / فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناسر.



المحتوى

الموضوع الصفحة

المقدمة	٧
فصوص	٩
العزلة النافعة	٤٥
صراع بين الخلطة والعزلة	٥١
اعتزال العامة مروءة تامة	١٠٣
﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾	١٢٥
اعتزال مجالس السلاطين	١٧١
المبالغة في العزلة مذمومة	١٨٣
اعبروها، ولا تعمروها	١٨٧
وخير جليس في الأنام كتاب	٢٠٥
عزلة عالم	٢٤٣
فوائد العزلة وثمارها	٢٦٧
العزلة بغير عين العلم زلة	٢٩٧
القرار الأخير	٣٢٣
الخاتمة	٣٤٣

المُقَدِّمَةُ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذا كتاب (عز العزلة) كتبته بعدما ناهزت الخمسين، وعرفتُ الحياة وعشتُ الأيام حلوها ومرّها، وذقتُ الشدّة والرخاء، والسراء والضراء، ورأيت المصائب، وشاهدت العجائب، وأبصرت النوائب، وسمعت الغرائب، وجُبت القفار، وامتطيت البحار، وسافرت في الأرض والجو، وداخلت العامة والعلماء، والفقراء والأمرء، والشعراء والوزراء، والأدباء والحكماء، والحمقى والعقلاء، فكتبْتُ تجاربي في هذا الكتاب، فهو من الرأس والقرطاس والناس، وهو نصوص وفصوص، ومنظوم ومنثور، ومنقول ومعقول، وقديم وحديث، كتبته لمن اعتزل مع كتاب في زاوية، أو جلس في خيمة متأملاً، أو في غرفة متعبداً، أو في رأس جبل منفرداً؛ ليكون له سلوة، في خلوة خلوة، وعزاء من كل أحد، ودليلاً إلى الواحد الأحد، أسأل الله أن يقبله مني، وأن ينفع به من قرأه أو سمعه، وأن يجعله سبباً لرضوانه، وسكنى جنانه.

د. عائض القرني

al-garni @ alislamnet.com



فصوص

- هذه فصوص من النصوص لأهل الخصوص ممن أراد الخلو.
- يا من اغترّ بالناس، ليس كل بيضاء شحمة، ففرّ من الزحمة، إلى غار الرحمة ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾.
- في العزلة استدرار أمطار الأفكار، واستذكار أبحار الأخبار، والاعتبار بآثار الأخيار، واختيار مآثر الأبرار.
- وفيها حجب الجاه، وإلجام اللسان عن السفاه، وحبس الطبع السارق عن الأشباه، وحفظ مكنون النعمة عن الجناة، والبعد عن كيد الجفافة.
- وفيها إقامة مهرجان العبادة وناموسها، وفتح ديوان المعرفة وقاموسها، والتعرف على نعيم الأيام وبؤسها، والسلامة من غوائل الأشرار ونحوسها، والخلوة بأقمار الرسالة وشموسها.
- وفيها السلامة من صروف الزمان، وضياح الوقت مع الأقران، وصرف الساعات في سوق الخسران، والتعرض للتبذل والهوان، والتحفي بفلان وعلان.
- ومن الفوائد: كسر جماع النفس الأمّارة، ودحض الأمانى الغرّارة، فإن من لابس الناس حفظوا عثاره، واستتبطوا أسرارهم، وعرفوا غوره ومعياره.

- ومنها: حفظ سرّ الحر، والبُعد عن شرر أهل الشر؛ فإن من قرّ في قعر بيته واستقر، أمّن من حرّ الباطل والقر، ومن تجرّع الحق المر، ومن فرّ من التبعات فقد أحسن المفّر، ولكل نبأ مستقرّ.

- ومنها: المتعة برحلة ذهنية بحراً أو برّاً، والارتقاء عن السفلة جاهاً وقدراً، فكم من أحقق على عاقل تجراً، والأوباش كالكلاب تهزّ هزّاً، وتلوك عرضه جهراً وسراً، ولا تنسّ قول تأبط شرا:

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

- ومنها: عدم شهود الحسود، والغياب عن جمود الحقوق، وعهود الكنود، ولؤم المروء، ونذالة الجحود.

- خلد مع المقدمة في بيته ابن خلدون، ولما اعتزل الجمهور ألف كتاب الجمهورية أفلاطون، وزاد من الإبداع في وحدته ابن زيدون، ودبّج في الانفراد إلياذته ابن عيذون، وقال موسى: ﴿وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا إِلَىٰ فِئَةٍ تُؤْمِنُونَ﴾.

فهذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقربات والأصدقاء والأوطان والأموال؛ خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة.

وقد خرج النبي ﷺ فارّاً بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسبما ورد في سورة النحل، وقد نص الله تعالى على ذلك في براءة.

وفي الحديث: «كَفَّ عَلَيْكَ لِسَانُكَ، وَلَيْسَ عَيْتُكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». ففي العزلة السكوت، ولزوم البيوت، والرضا بالقوت، والحب مع العزياقوت؛ لأن الخلطة أسحر للقلب من هاروت وماروت، ومصالوة الناس أشد من مصالوة طالوت وجالوت.

- لزوم العزلة بالعز أثمن من كل كنز، ففيها ينشر لقبول البز، وتنتب أرض العبادة بغيث الذكر وتهتز، فلا تتشرف بغير الوحدة مع الله وتعتز.

كُنْ مَعَ اللَّهِ عَلَى ذِكْرٍ وَوَحْدَةٍ

واعتزل وحدك إن الله وحده

- كم خلوت بالعلم فأنحفني وشجاني، وفي الزوايا خبايا كما قال الأرجاني؛ لأن من خالط الناس هان عندهم كما في شعر الجرجاني، فالحمد لله الذي عصمني من الشر ونجاني، بعدما لامني دهري في الخلطة وهجاني.

- فكن في الانفراد كالقرني أويس، وبشرف العزلة كالأسدي ديبس، ورتل وحدك أي الذكر كعبد الله بن قيس، وانظر للناس كأنهم في رؤيا منام نظر أسماء بنت عميس، وأسلم مع سليمان الولاية كبلقيس.

- أما ترى الهدهد وحد وتفرد، وأنذر وأوعد، وخوف وهدد؛ لأنه اعتزل في الطريق وتجرد، وتخلّى عن الخلق وتزهّد، فعرف المقصد، فوفق وسدد، ومدح ومجد.



- فاشرب في الوحدة رحيق الهناء من سيبويه، وأشعل في ليل العزلة مصباح الأنس من نطف نفطويه، واسحق مسك الإخلاص رهواً من علم إسحاق بن راهويه، وعليك بالخلوة مع بدائع أبي الطيب وابن خالويه.
- إن آنت وحشة فنادِ نفسك: يا نفس، قرّ ولا تفرّ، وجاهدي ولا تغتري، وعلى صراط السلامة مرّي، وفي جنات الأنهار استقري.
- في العزلة ألف الفارابي المدينة الفاضلة، ودبّج أبو حيان المفاضلة، وبها تدرب الجاحظ على المناظرة والمناضلة، وأتقن أبو يعلى المجادلة، وبها مهر ابن تيمية على المصاولة.
- والتفرد للزمخشري كافٍ شافٍ، ولهذا ألف الكشاف، وغاص في البلاغة إلى الشفاف، ونثر تلك الجواهر والألطف، وكان في أيام تأليفه معتزلاً بين السعي والطواف.
- ومالك بن أنس ملك الأنس بعزّة النفس، وبقائه في بيته كالحلس، وخلوته بالقرطاس والطرس، لما صار الناس كالذئاب الطلس.
- فاجعل العقل رئيسك، والعلم أنيسك، والكتاب جليسك، والقلم والدفتّر طمسك وجديسك، واتخذ القناعة كيسك.
- ولما ترك أبو الفرج الهمج، وركب من الأدب الشج، وهجر من هرج ومرج، أتى في الأغاني بالمطربات والروائع والحجج.
- فاعتزل الفرق، فمن لابس الفتن احترق، ومن ركب بحر الغوغاء غرق، وإذا رأيت الطبع يسرق من أخلاق الخلق الخرق، فاهتف به: إن ابنك سرق.

- وارشف في العزلة من المزني مزنه، واستفد من ابن المسيب سهله وحزنه، وخذ من الفتح المفتاح، ومن الميزان وزنه.
- واسبك في الوحدة سبائك محمود بن سبكتكين في غرته، كما سبك الذهبي الذهب، واترك من جاء ومن ذهب.
- واجلس مع ابن جرير؛ لتتسى كل جريرة، وفاكه مقامات الحريري، فما أجمل حريره، ولا تستكثر ليلة مع ابن كثير، فليست كثيرة، وسامر الشعر فرزدقه وجريره.
- وألقم كلب الفراغ حجراً بأخبار كليب، واجعل للفراغ نصيباً من أبيات نصيب، واستغن عن الأحباب بروائع خبيب، وحادث خاطرك بروايات بلال وصُهيّب.
- ولا تترك يوسف علمك مع البطالين فيأكله الذيب، بل جالس مالك وابن أبي ذيب، واقترب من ملك الأدب بمجالسة عبدالملك بن قريب، وحادث مؤلف جامع الأصول والغريب، وشمّ نفع الطيب من تاريخ الغصن الرطيب.
- وأطفئ نار الشهرة بماء الخليل، وأرسل على أبرهة المعصية الطير الأبائيل، وكفيك قال الله عن قال وقيل، واعتبر بأصحاب البقرة والناقة والفيل.
- وأطفئ نار الذنب بدمعة، ونور ليل الوحشة من الذكر بشمعة.
- واغزل خيوط الحكمة كما فعل الغزالي، وبرّز في العلم تبريز البرزالي، فلن تدرك المعالي إلا بهمة أبي المعالي، والتقلل من الدنيا كالقالي.

- واصنع في بيتك كوز السنّة كصنع الصنعاني، وأزل شوك الهم بنيل الشوكاني، واجلس على جوزاء الاستغناء عن الناس، كما فعل الجرجاني، وإذا مللت فأنشد: مَغَانِي الشُّعْبِ طَيْباً فِي الْمَغَانِي.

- وما أسعد من توسّد المسند للإمام أحمد! وما آنس من جالس مسدد بن مسرهد! وحادث الكامل للمبرّد، ودرس أخبار عبد المؤمن الموحد، وابن تيمية المجدّد.

- واعتمد على رب العباد، واعتبر بما حصل للمعتمد بن عبّاد، ولا يشغلك شكسبير عن الشيخ الكبير محمد بن جرير، أو العالم الخطير ابن كثير، أو الجهبذ النحرير ابن الوزير، فقد فاح بخور البخاري، وحلّ لك الإشكال فتح الباري، ودلّك في ليل الجهل هدي الساري.

- واشترِ جمل القناعة بهمة وثّابة كوثة الأشتري يوم الجمل، واطلب الولاية بالصفاء للولي كصفاء علي يوم صفين، واعلم أن الدواء الفاتر في مصاحبة الدفاتر، وأن السيف الباتر هو الحديث الصحيح المتواتر.

- العالم إذا اعتزل، اشتغل بما نزل، فهو على حد الحديث: «دعها فإن معها سقاءها وحذاءها ترد الماء، وترعى الشجر».

- لزم عطاء بن أبي رباح الحرم ثلاثين سنة، فعاد بالعطاء الرابع، والسعي الناجح، والعمل الصالح.

- ومكث أبو طاهر السلفي ستين سنة في منارة الجامع يكرر ويؤلف، ويحبرّ ويصنّف.

- وظن أعداء السرخسي أنه سيخر، فوضعوه في السجن كالمربوط، مع القيد والضغوط، فألف كتاب المبسوط.
- وترك ابن الأثير المال الكثير، والذهب النثير، والفراش الوثير، فصنّف جامع الأصول الكتاب الرائع المثير.
- كيف تكون وحدك، والله يقول: «أنا جليس من ذكرني». فنعم الأنيس والجليس، ومن ترك ذكره فجليسه إبليس!
- أمرض ابن سينا بشفائه الحساد، وأذكى الغزالي بإحيائه الجمر في الرماد، ومتع ابن القيم المسافرين إلى الله بزاد المعاد، وجاب ابن بطوطة مع انفراده البلاد والوهاد، ونزل كل وادٍ.
- أنت نطفة، يكفيك عُرفة وُغرفة، وقطفة ورشفة:
- لَمْ امْتِطَأُوكَ مَوْجَ الْبَحْرِ تَرْكِبُهُ
وَأَنْتَ يَكْفِيكَ مِنْهُ عُرْفَةُ الْوَشَلِ؟
- مخالطة الفجرة كسرة تورث الحسرة، وملك كسرى تغني عنه كسرة.
- العزلة مع المصحف الشريف، والكوز والرغيف، في إيوان نظيف، ومجلس ظريف، أهناً من مجلس فيه صياح الرفاق، بأسعار الأسواق، وأخبار الآفاق.
- نسأل الله خلوة حلوة، مع عزٍّ في عزلة، واجتهاد في انفراد، وسياحة في راحة، وصمتاً مع حفظ وقت.

- اجعل الذكر قوتاً، والعلم ياقوتاً، واغتتم راحة البال في طاعة ذي الجلال، واجتنب خلطة العوام، فإنهم هوام، ومن بذّر في صرف الأيام، صار كالمسكين على موائد اللثام.

- كان بعض السلف لا يخرج إلا لجماعة أو جمعة، وكان يستتر العبادة؛ خوفاً من الرياء والسمعة؛ لأن من مكّن الناس من نفسه داسوه، فإن الناس لو مُكّنوا من جبلٍ دكوه، ولو ازدحموا على باب حديد لفكّوه.

- لا تغترّ بجلبه الناس وقت الرخاء؛ فإنهم أسباب البلاء، فهم دُباب طمع، وبعوض جشع، يطمعون إذا بارق المال لمع، ويُقبلون إذا نجم الدنيا سطع؛ فإذا وقعت في المصائب، وضرّستك النوائب، خلعوا بينك وبينهم العهد، وأخلفوا الوعد، وأدّعوا قدم الجفاء، خسة وقلة وفاء؛ لأنه نُسخ الصفاء، وعلى المروءة العفاء.

- لا يحملك معرفة ضعف الناس وعجزهم على الإساءة إليهم، أو هضم حقوقهم، بل خفِ الله في الناس ولا تخفِ الناس، وارحُ الله في الناس ولا ترجُ الناس، وأنزل الناس منزلة الأموات، فإن الأموات أموات غير أحياء، فهم لا يصلّون ولا يقطعون، ولا يضرّون ولا ينفعون، ولا يضعون ولا يرفعون، فوالله لا يخفض ولا يرفع، ولا يضر ولا ينفع، ولا يصل ولا يقطع إلا الله.

- واعلم أنك في بيتك ملك، وكأنك في العز كالمشتري في الفلك، فإنك في بيتك سلطان، فأنت ككسرى في الإيوان، أو الوزير في الديوان.

- قال أحد العلماء كما في كتاب (إدام القوت): لو تشفعت في كافر أو في أحد أبنائي لرجوت الإجابة للكافر؛ لأن المخامرة تذهب الاحترام.
- في الخلطة تذيب قلبك برؤية متكبر، والتعرض لعنوت متجبر، وفي العزلة قدرك أكبر؛ لأنك في حرز الصون، كاللؤلؤ المكنون، والدرّ المخزون، وأهيب الناس من لا تراه العيون.
- والرسول ﷺ اعتزل في الغار، فجاءه جبريل بالوحي العظيم، واعتزلت مريم، فأنت بعيسى النبي الكريم.
- كن عصامياً كالأصمعي، والزم صومعتك، فما يعصم من الفتن إلا من اتبع المعصوم.
- أبو مسلم تكبر وتجبر، وخالط أبا جعفر، فبقر بطنه بالخنجر.
- واعتزل الثورة والثوار سفيان الثوري، فثار له القبول في القلوب.
- وخالط البرامكة الرشيد، فبرك على صدورهم، ووضع ركبته في رقابهم، واعتزله الفضيل بن عياض، فعوضه الله بفضله عن كل فضل، وفي الله عوض من كل نذل.
- مد رجلك في بيتك، ولا تمد يدك في بيت غيرك، فإن من يمد رجله لا يمد يده، وشمّ وردة العزة في العزلة، ولا تنسّ إلياذة: (اعْتَزِلْ ذَكَرَ الْأَعَانِي)، واسمع ابن الوردي ينادي في كل نادٍ، ويصيح في كل وادٍ، لمن مدّ الأيادي للأعادي:

أَنَا لَا أَرْغَبُ تَقْبِيلَ يَدِ

قَطْعُهَا أَحْسَنُ مِنْ تِلْكَ الْقَبْلِ

- والله لو برزت للناس بتاج مشلشل، في همة تشرشل، ولو
فرشت للناس بالذهب الأسفلت، في مجد روزفلت، لقلبوا مدحك
قدحاً، وجدك مزحاً، وكدّروا صفوك مساءً وصباحاً.

- اشرب من دنان عزلتك كما دوّن دانتى في روما مقالته: العزلة
في الدار مملكة الأفكار. وفي دفاتر فلوتير: إن حسن التفكير في
البعد عن الكثير.

- لو كان لي كُرّة، لاعتزلت الناس بالمرة، فخلطتهم تُذهب المسرّة،
ولكن الحمد لله عرفنا الاختلاط وضرّه، والاجتماع وشرّه، وعذرنا
قول ابن مطيع لله درّه:

أَنَا الَّذِي فَرَرْتُ يَوْمَ الْحَرِّ

وَالشَّيْخُ لَا يَفِرُّ إِلَّا مَرَّهُ

- سكن في الكوخ طاغور، فأنشد على الفور: يا أهل الدور
والقصور، أنا أسعد منكم، سعادتكم بجواهر البحور، ودر النحور،
وسعادتي بفرائد المعارف وقلائد المصاحف، نحن عبيد الله، وأنتم
عبيد الدينار الذي يؤدي إلى النار.

- أحب المتنبّي الشهرة، فباع قريضه، وترك الفريضة، وسافر في
آماله العريضة، فصار خويضة.

- إذا احتجب القمر بالخسوف، قام الناس يصلون في صفوف،
والكل يبكي بكاء الملهوف؛ لأن الغائب مقدّر، والمحجوب موقّر، فلا تبذل
وجهك لكل سفيه، فيصيبك من رماد الجهل سوافيه، وما فيه يكفيه.

- صفق المجد لابن مقلّة وانبسط، ففرح واغتبط، وجمع حوله الشرط، فَعُزِلَ وسقط، ثم قطعوا يمينه، وأبكوا عينه، وداسوا جبينه.
- من خالط الأشرار انتكس وارتكس، ومن رافق الفجار تعس.
- لم تحمد سيرة ابن الزيّات؛ لأنه صب الزيت على النار بإيذاء أحمد، وزيت أحمد سني يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فوضع ابن الزيّات في فرن، فاشتعل بنار الخلاص، والجروح قصاص.
- لما رأى سعدُ العقوق خرج إلى العقيق، فذبح على الخلاص من الدنيا عقيقة؛ حمداً لله على سلامته من شر ابنه العاق.
- رفض عمر بن سعد بن أبي وقاص عزلة والده، وخالط المسيئين، وتورط في قتل الحسين، فزرع مع ابن زياد حنظلة البغي بعد قطع ريحانة الرسول ﷺ.
- لو كان لابن بقيّة بقايا من عقل التقيّة؛ لما أركبه عضد الدولة منبر الصلب، ليقول فيه ابن الأنباري:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ

- وفي مذكرات كونفوشيوس: الناس عبيد الفلوس، لهم نبيب على المال كنبيب التيوس.
- وعلى ذكر النبيب، يقول حسان الشاعر المصيب، وهو من باب التأديب والتهذيب والتأنيب، لمن اهتمّ بكلام العوام، الهوام السوام، عُبَادَ الحطام:

ما أبالي أنب بالحزن تيس

أم لحاني بظهر غيب لئيم

يا من خاف من الناس القصف والسيف والخسف، فر إلى غار العزلة، واقرأ: ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾.

- ولله ما أعز ابن المعتز لما قال في عز العزلة: من حطمته العيون، حطمته الأقدام.

- ما اجتراً الطفل على البعير إلا لكثرة مشاهدته؛ لأن المبدول أرحس من الشعير.

- من غباء الحمار أنه عرضة للصغار والكبار، ولهذا اجتنب ركوبه ذوو الأخطار، أما الخيول فاعتزلت في الإصطبل، فامتطأها أهل الفضل، ولما تبلد الحمار واحتار، ضرب مثلاً للفجار: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾.

- لما لزم الأسد العرين وحصن بالأسورة، وكانت مشاهدته معسرة، صار مهيباً: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾.

- ولو لم يدرك الوهم هامان لفر من الملعون، ولكنه استقر لعون فرعون، وليته سمع: فر عن عون فرعون، وتناول شراب الخلطة، فصار كالمبطون المطعون.

- اعتزل كالأسد ولا تبرز بروز الجمل؛ فإن أسامة بن زيد أخذ من الأسد اسمه، فاعتزل يوم الجمل، فلما صفا له قلبه ترك صفين، وما قاتل بين الصفين؛ لأنه تذكر: «قتلته بعدما قال: لا إله إلا الله!».

- لا تصدق الجمهور إذا أجلب، فإنه برق خلب، وهم عند الطمع أغش وأكذب، إذا سمعت لحذاء أحدهم طريقة، ولصوته لقلقة، ولكلامه شقشقة، فلا ترفع به رأساً فهو أحق من هبقة واهجر تلك الطبقة؛ فإن رضيت بهم فقد وافق شئ طبقة.

- ما أطلق على ابن دقيق العيد المحقق المدقق، حتى بخل بالدقائق في عزلة علمه؛ لأن الشوق حمله إلى المعالي، فكأنه سمع شوقي بعده بزمان:
دَقَاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ:

إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِي

- اعتزل إبراهيم الشرك، فصار حنيفاً، واعتزل الأحنف الجهل فصار حليماً، واعتزل أبو حنيفة السفهاء فصار فقيهاً، فالدين حنفي، والحلم أحنفي، والفقہ حنفي:

نَحْنُ الْحَنِيفِيُّونَ كَمِ مِنْ أَحْنَفٍ فِينَا وَكَمِ مِنْ عُنْتَرٍ أَوْ حَاتِمٍ

- تيم ابن تيمية بسنة النبي ﷺ، وبشجاعة أبي بكر التيمي، وغيره متيم بأبواب السلاطين، فصاروا كالآيتام على مواد اللئام.

- انفرد الشافعي في خلوة شرعية، بعدما هاجرت به الأم، فأخرج لنا كتاب الأم، فعلم ملايين من الشافعية، ومحاسنه تشفع له:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

جَاءَتْ مُحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

- اعتزل الهدهد فوحد وتعبد، وصار آية في التفرد، سبى قلبه
خبر سبأ، فأتى إلى النبي منها نبأ؛ لأنه اختبأ، ففتح عليه الذي
يخرج الخبأ في السماوات والأرض، فصار مختبأً عن العيون، وكأنه
المقصود بقول الشاعر:

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ
فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسَأَلُ الْأَيَّامُ مَا اسْمِي لَمَا دَرَّتْ
وَأَيَّنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

- اختفى الدر في قاع البحر، فوضع على النحر، وعلّق على
السحر، وبرز الخشب فسمي بالحطب، وأحرقوه بنار ذات لهب،
فاجعل نفسك حمالة الشوق لا حمالة الحطب:

حَبِيبَتِي أَنْتِ كَالْجَوْزَاءِ عَالِيَةٍ
حَمَالَةُ الْحُبِّ لَا حَمَالَةُ الْحَطَبِ

يا عمرو الدّهء، لا تخالط الدهماء إلا في الجمعة والجماعة،
كما نصّ عليه الحكماء: الكتاب والسنة عام الجماعة.

- اعتزل موسى في الطور، فعاد بالكتاب المسطور، وسمر السامري
مع أهل الجهل، وجالس أهل الدجل، فعاد بفكرة العجل.

ومن كلام بعض الأعلام: العزلة من دون عين العلم زلة، ومن دون
زاء الزهد علة.

- اعتزل مع الكتاب المنزّل، فإن الأمة كانت تعزل والقرآن ينزل،
اعتزل أحمد بن حنبل المسدد، فقدّم لنا المسند، وخالط أحمد بن أبي دؤاد
المعتصم، فصرفه عن سنة المعصوم في مسألة خلق القرآن، فبالغ المعتصم
في حبس أحمد وجلده، وحبس الله ابن أبي دؤاد بالفالج في جلده.

ولبعضهم في العزلة:

مَنْ حَمَدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُغْهُمْ
ثُمَّ بَلَغْهُمْ ذَمٌّ مِنْ يَحْمَدِ
وَصَارَ بِالْوَحْدَةِ مُسْتَأْنَسًا
بِوَحْشَةِ الْأَقْرَبِ وَالْأَبْعَدِ

- صحبة الأخيار رصيد، صحبهم الكلب فمدح بأنه باسط ذراعيه
بالوصيد، وصحب الفيل أهل التضليل فرمي بطير أبا بيل.

وقيل للعتّابي: من تجالس اليوم؟ قال: من أبصق في وجهه ولا
يَغْضَب؛ قيل له: ومَن هو؟ قال: الحائط.

- وقيل لدعبل الشاعر: ما الوحشة عندك؟ قال: النظر إلى
الناس، ثم أنشأ يقول:

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بَلْ مَا أَقْلَهُمْ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقْلُ فَنَدَا
إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا
عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا

- من السماجة والسذاجة بروز الدجاجة، لو لزمت المسكينة السكينة ما ذبحت بالسكينة، برزت من بيتها تقول: قيط قيط، وما علمت أن الثعلب في الطريق، فالحمق أوصلها لقطع الحلق بلا حق. وقيل للغروان الرقاشي: ما لك لا تجالس إخوانك؟ فقال: إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي.

وكان الفضيل إذا رأى الليل مقبلاً فرح به، وقال: أخلو فيه بربي، وإذا أصبح استرجع؛ كراهة لقاء الناس.

وجاء رجل إلى مالك بن دينار، وإذا هو جالس وكلب قد وضع رأسه على ركبتيه، قال: فذهبت أطرده، فقال: دعه يا هذا، لا يضرك ولا يؤذي، وهو خير من جليس السوء.

وقيل لبعضهم: ما حملك أن تعتزل الناس؟ فقال: خشيت أن أسلب ديني، ولا أشعر. وهذا إشارة منه إلى مسارقة الطبع، واكتسابه الصفات الذميمة من قرناء السوء.

- سلم محمد بن مسلمة لما سلك المسألة من الفتنة، وعمل بحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». فمكث ساعات في بيته ولسان حاله ينشد:

سَلِمَى سَلِمَتْ مِنْ الْعَاهَاتِ مَا سَلِمَتْ

سَلَامَ سَلِمَى وَمَا قَدْ أَوْرَقَ السَّلْمُ

أبصر الحسن البصري حسن الشريعة، فاعتزل نصب المنصب.
 - فجّر موسى بلا إله إلا الله الصخور، وعبد بنو إسرائيل
 عجباً يخور؛ لأن عز العزلة مع العزيز في رأس موسى، وذل الخلطة
 بملامسة ومماسة السامري في رؤوس السفلة، فأثمرت للسامري
 ذلاً: ﴿لَا مَسَاسَ﴾.

- قضّ نهارك مع ابن المبارك، وترنم بيا عابد الحرمين؛ لتثور في
 رأسك النخوة لمجد الإسلام الغابر، فحبب السلف يصل الخلف على
 حمير معقّرة صفوف الخيول المضمرّة.

قال ابن أبي حازم:

طَبَّ عَنْ الْإِمْرَةِ نَفْساً
 وَارْضَ بِالْوَحْشَةِ أَنْساً
 مَا عَلَيْهَا أَحَدٌ يَسُ
 وَى عَلَى الْخُبْرَةِ فَلْساً

وقال آخر:

قَدْ بَلَوْتُ النَّاسَ طُوراً
 لَمْ أَجِدْ فِي النَّاسِ حُوراً
 صَارَ أَحْلَى النَّاسِ فِي الْعَدَا
 بَيْنَ إِذَا مَا ذِيقَ مُرّاً

- اعتزال المبتدع وباء، كاعتزال الجهم الجاهل، المخرج على سوق جهنم، فبخار الضلال فاح من رأسه؛ لأنه لم يطالع صحيح البخاري.
- اعتزال السني سلامة؛ لأنه على محجة، كاعتزال مسلم بن الحجاج، فقد قوى الإسلام بحججه في كتابه.

وقال أحدهم:

لو كان لي بدُّ من النَّاسِ
قطعتُ حبلَ النَّاسِ باليَّاسِ
العِزُّ في العِزَّةِ لكنَّه
لا بدُّ للنَّاسِ من النَّاسِ

- إذا أصابك برد الوحدة فسبح الله وحده، وتدفعاً بكساء الكسائي، وتدثر بفروة الفراء، واشرب توت ابن التين في آنية الزجاج، وأسورة ذهب الذهبي حلال لك؛ لأنه على الأثر في سير أعلامه.
- كيف تستوحش، وجلسائك ابن المسيب وسيبويه، يسقيانك لبن الفطرة في كأس السنة؟!

سقانا وأسقى الأرض من سيب جوده
وللأرض من كأس الكرام نصيب

- لا تصغ لأغاني الأصبهاني، واستمع لمعاني أحمد الشيباني، فنحن أهل سماع رباني للمثاني، وخشوع رحماني لجلال المعاني.

- الفلاح والنجاح والصلاح في أذان بلال بن رباح، وفتيا عطاء بن أبي رباح، فالموالي بطاعة الوالي في العوالي.
- وقد أغنانا الله عن أبي مسلم والحجاج بصحيح مسلم بن الحجاج؛ لأن صحيحه يخرج لنا ألف شعبة بن الحجاج، أبطال الحجاج، وبدور الابتهاج، فقد سئمنا من عصابات الحلاج.
- ابن سينا يمرض، وشفاه يمرض، فلا تورّد مرضى الفلسفة أهل السفه على أصحاء أهل السنة، فسناء سماء السنة يكاد يذهب بأبصار الفجار، ويطفئ شرر الأشرار.
- جالس الفراوي والفراء، وإياك والفارابي وابن الفراء، والفرار من أهل الافتراء.
- خرج علينا ابن سينا من مكمنه يصيح: قاط قاط، ثم خلع لثمته وأماط، فإذا هو يدعو لسقراط وبقرات وديمقراط. قلنا: لا تتحدلق وطلّق المنطق، فالعود لسنة أحمد أحمد، فسبح وتحمد، ولا تتكلف وتحدد، فبنجك أثار جنونك، ومجونك أثمر مرضى قولنجك.
- اجزم في عزم، وأقدم في حزم، فعّل ابن حزم، فقد تجلّى في المحلّى، وتولّى من الأثر ما تولّى، وليته يوم ترقى للأعراض توقى؛ لأنه ما تبقى، لما شق جماجم المخالفين شقاً، فكأنه المقصود بالبيت:
- إِنَّ عَلَى رَاعِي اللِّوَاءِ حَقًّا
أَنْ يَخْضِبَ الصَّعْدَةَ أَوْ تُنْدَقَا

- نكسون عُزل منكوساً، وكلنتون ذهب مكبوتاً، وسبى الأسبان
فكر فرانكو ففرّ مكروهاً.
- اجتمع جمال وتيتو ونهرو، فيا قبح توت النهر الآسن!
- مدّ بورقية رقبتة يطاول مرقاب الشريعة؛ لأنه ما راقب ربّه،
فكتب في الخانة المنسيّة من الذاكرة التونسية.
- لماذا تستمع نشرة الأخبار، وما فيها إلا قدمت كوندليزا رايز
في روزرايز، تلبس الجنز وتوزع الجوائز، وهي التي في العراق قتلت
العجائز، وأخرجت الجنائز، فهل هذا جائز؟!
- ما سمع ابن بلّا أذان بلال حتى وضع في الزنزانة، فلما استفاق
وجد أبا مدين في الديوان.
- الآن أقبلتم يا دهاقين السياسة، أما رأيتم سقوط جمجمة تيتو،
وتمزق منديل بنظير بوتو، وانكسار ظهر هيراهايتو؟!
- دخل سُل السياسة في السلال فرُمي بالكروسي، فرأى الإيراني
رؤيا فصدّق، فسرى به العزل إلى سوريا طريداً شريداً.
- حلم السادات بالسيادة على الوسادة، فقال: لا مناص من ركوب
الباص، فانهمر عليه الرصاص، والجروح قصاص.
- مناديل مانديلا في الزنزانة أشرف من تاج جنكيز خان؛ لأن
مانديلا رفض أن يتمنل به أزلام الدول، وجنكيز خان الإخوان،
وجلس على الخوان بلا استئذان.

- عليك بالتفرد، فما سَمِّيَ عمر المقدام حتى تفرد، ولا حاتم
حتى جاد وجود، ولا عامر بن الطفيل حتى ساد وتسيّد، وكنا نتحرّى
البحرّي؛ ليحرّر:

عمرُ القنَا في مذحجٍ أو حاتمٍ
في طيّئٍ أو عامرٍ في خندفٍ
لا تكن ك (تاكسي) البلدة، لا يعرف قصده، ولكن كن غريباً من
الخلان في كل بلدة.

- أحي بالاحياء شوقك، وأمت بالذكر شهوتك، وكن كالضفدع
تخرج رأسها من الماء؛ لتتهوّى ثم تعود.

في حراءٍ أحمدٌ قد اعتزلُ
فجاءه الوحي وجبريلُ نزلُ
وفي لزوم الدار جاء الأثرُ
أهل القوافي أبدعوا وأكثرُوا
مملكة الأفكار بيتُ المسلم
كن جلس بيت يا أخي، وأسلم
ومسلم لا تؤذّه ومسلمه
فرداً كمثل صاحب ابن مسلمه
وللغفاري كأبي ذر وردُ
إن بلغ السّاكنُ سلعاً فانفردُ

- ولا أتمّ الله لمن تعلّق في وحدته بتميمة الرّياء، وأتمّ الله النعمة لمن حقق قول أبي تمام:

وَطَوَّلُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ
لِدِيَابِاجَتَيْهِ فَاِغْتَرَبُ تَتَجَدَّدُ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً
إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

- تجرّأ الجمّال على الجمل؛ لأنه فقد جمال الهيبة بالخلطة،
وتفرّد الأسد؛ فرهبه البلد.

- قيمة الديك الرومي السمين عشرة دراهم؛ لأنه مبذول، وقيمة
الصقر مئة ألف درهم؛ لأنه عزيز نادر.

- اشرب من جرّة، واستند على آجرة، ويكفيك عن طعام الكثيرين حزمة
جرجير، فمن طلب الأجر في جوار الجبار لم يجرّ رجله بالذل أحد.

- رغيّف في غرفة خير من الجواهر مع الجمهور، إلا من اغترف
لأداء حق من ماء الخير غرفة بيد الحذر.

- تغنّ في العزلة بالقرآن، وتفقه بالمغني، واستروح مع أبي الفرج
بالأغاني، وأنشد لكل زائر:

كَلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ
وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

- يا عبيط! اترك التخليط، فما ذبحت الدجاجة حتى دلت على نفسها بقاط قيط.

- سُمي العصفور عصفوراً؛ لأنه عصى وفر، وطار وما استقر، فسكن أعلى الأشجار، وأكل ألد الثمار، وسكن الديك على الدكة، ففصلوا بالسكين فكه، فصارت رجلاه في القدر مصطكة.

- أنحل أجسامنا كثرة عناق الأصحاب، وضم الأحباب، ومصافحة الأجناب، وسؤال العُزَّاب، وسماع أخبار الغيَّاب، وكلها هباب في هباب.

- أعلن في عزلتك صرخة احتجاج على الحجاج والحلاج، وعليك بابن الحاج، ومسلم بن الحجاج.

- حج بقلبك إلى ربك، وخير الحج العج والثج، فجع بصوت الاعتراف بما حصل من الاقتراف، تجد الألفاف، وثج الدموع على الخدود في السجود، ونادِ يا ودود.

- ناداك حادي الأرواح إلى رياض الصالحين؛ لأن اقتضاء الصراط المستقيم لا يكون إلا بمخالفة أصحاب الجحيم، ومن عنده الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان عرف طريق الهجرتين، وصعد مدارج السالكين، وفُتِحَ عليه من فتح الباري ما يجده من صيد الخاطر، وجعل البداية والنهاية بالوابل الصيّب من الكلم الطيّب.

- كن في عزلتك كالأنصاري، لا ناصري ولا نصراني ولا نصيري، واجعل الكتاب والسنة أوسك وخزرجك، والهداية منهجك.

- كن مع أهل السنّة والجماعة، واحضر صلاة الجمع والجماعة، واحذر أدناس الناس، وإذا خالطتهم فقل: لا مساس، وانزل في بئر بيتك، وأنشد مع الألبيري:

وَحَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ
كَمَا تَخْشَى الضَّرَاعِمَ وَالسَّبْنَتَى
وَخَالِطُهُمْ وَزَايِلُهُمْ حَذَارًا
وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لِمَسْتَا

- تطرق الباب على من وضع الحُجَّاب، وأسدل الحِجَاب، وتترك باب الملك الوهاب، وأقرب الطرق إليه المحراب.

- يا ذباب الطمع، يا بعوض الجشع، يا أصنام المعاصي والبدع، والله ما لكم إلا فأس الخليل، وروغة صاحب: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. ما عندكم صلاح دنيا ولا دين، فما أحوجكم إلى ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾.

- اشترِ عز عزلتك، وبزّ منزلتك من طيبة، حيث الوحي ينزل، والأمة تولي وتعزل، وإذا لم يكن على البضاعة ختم محمد، فاعلم أنها مغشوشة، فصح في الباعة! يا مزجي البضاعة: ﴿أَيُّهَا الْغَيُّ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾.

- من زمان وأنت يا إنسان، مع الإخوان والخلائن والجيران، حياتك ديمة، وحليمة على عاداتها القديمة، كيف تسطع وتلمع وجلاسك أهل كسل، وعشاق فشل، وذباب عسل، تالله ما الورد مثل البصل.

- إذا لم تقرأ لابن تيمية، فأنت يتيم في المعرفة.

- يقول روبرت غرين: إن زيادة التداول عن حده يرخس السعر، فكلما زادت مشاهدتك والسماع منك ظهرت مبتذلاً أكثر، فإذا كانت مكانتك راسخة في مجموعة ما؛ فإن الانسحاب المؤقت منها يزيد الحديث عنك، وحتى الإعجاب بك، وعليك أن تتعلم متى تغادر.

- يقول جان دي لافونتين في الجمل والعصي الطافية: هرب أول رجل رأى الجمل، وتجراً الثاني على الاقتراب منه، ولكن على مسافة، وتجراً الثالث على وضع رسن حول رأسه.. ذلك أن الألفة الرافعة للكلفة تجعل كل الأشياء في هذا الوجود أليفة؛ لأن ما قد يبدو رهيباً وغريباً يصبح عادياً تماماً عندما تتاح لأعيننا برهة من الزمن للتكيف.

وبما أنني أتحدث في هذا الموضوع، فقد سمعت عن حراس كانوا يتخذون مواقعهم على الساحل، فلمحوا شيئاً طافياً من بعيد، فلم يستطيعوا أن يقاوموا صرخة من حناجرهم: شراع! شراع! سفينة حربية قويّة! وبعد خمس دقائق صارت قارباً صغيراً لنقل الركاب والبريد، ثم زورقاً صغيراً ثم بالة، وأخيراً بعض العصي الطافية التي تعبت بها الأمواج.

- إنني أعرف كثيرين ممن تنطبق عليهم هذه القصة، وهم أناس تضخمهم المسافة، غير أنهم عند الاقتراب منهم لا يبدوون كباراً قط.

- إن العزلة تضعف الصغار، لكنها تزيد الكبار عظمة.
- وفي (قافلة الأحلام): قال رجل لدرويش: لماذا لا أراك مرّات أكثر؟ فردّ عليه الدرويش: لأن عبارة: لماذا لم تأت لرؤيتي أحلى في أذني من عبارة: لماذا جئت مرة أخرى.
- إذا استوحشت في الوحدة فوحد الواحد، وكرر: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فيوسف لما جلس وحده في الزنزانة نادى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.
- أكثر العالم حمقى! أما تراهم يقفون في الأسواق، ويمدّون الأعناق، وينظرون في قادم من الآفاق، يمضون الوقت بالهذيان، ويصرفون الأيام في الأوهام، ورخيص الكلام، والوقوع في الأنام: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ﴾.
- أنت في مكتبتك لست وحدك، فمعك ألف عالم وشاعر وحكيم، فلماذا تجالس الدهماء، وتهجر العلماء والحكماء؟
- أليس من السخف أن تجلس أمام بيتك على مصطبة، تشاهد تعابير التيوس، وتناطح الكباش، وتهارش الديكة، وقد انغمس الأبرار في لذة مناجاة الواحد القهار؟
- إذا غامرت في شرف مَروم
فلا تقنع بما دون النجوم

- ومن خصائص النجم: العلو والسمو والتفرد والتوحد، إذا بزغ
أشرق، وإذا هوى أحرق، وما أجمل: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾.

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْجَنِّ عِنْدَ

د استراقِ السَّمْعِ تُرْمَى بِالنُّجُومِ

فَلَمَّا أَنَّ عَلَوْتَ بَعُدْتَ عَنِّي

وَأَذْهَلَكَ التَّرْفُّعُ عَنْ وَلَائِي

- حضرنا عزائم وولائم، مع جمع هائم، وجو غائم، همهمة
وتمتمة، ثم انتظرنا الطعام كما نتظر الجنازة، فانصرفنا بعد وقت
طويل، وهم ثقيل.

- الاختلاط بالحساد إنضاج للأكباد، وسحب للقلوب على شوك
القتاد، ولو لم يكن من الخلطة بالحاسد إلا أنه يكشف أسرارك،
ويهتك أستارك.

- دخل أحد الحكماء غابة في كوخ، وبجانبه عين ماء، ومعه كيس
من تمر، وجرة زيت، وجراب دقيق، ومطهرة وعصا، وكتب على باب
الكوخ: على الدنيا السلام.

- يا موسى الوحي! اذهب إلى فرعون الطبع في خلوة شرعية،
وصح على النفس الأمارة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾. فإذا كنت
وحدا فاضطجع على جنبك، وسلم روحك إلى مولاك، ولسان حالك
ينادي: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

- عجيب أمرك! هجرت الأذكار والآثار، وجلست مع اللاهين
تسمع أخبار الأسعار والأمطار، وعجائب الأسفار.

- في خلوتك: اطرء الملل بالتتويع، فالنفس تحب الانتقال من حال
إلى حال، صل ركعتين، ترنم بآية: سَبِّحْ، أنشد بيتاً، اقرأ كتاباً، تفكر
في بديع الصنع، رتب غرفتك، هذب نفسك.

- معك في الخلطة ناقل متخرص، وحاسد متريص، ومتكلف
متممص، وواش متلصص، فأين المخلص؟

- إذا قال لك إبليس في العزلة: اخرج؛ فقل: أص يا لص، ما تفهم
النص، بص للقص غار في البحر فطارده الغواص واقتص، والحديد
مبذول كالجص، فها هو فاس ومقص.

- يا أخ! احذر الناس ولو وضعوا لك التمر في الفخ، فالرسول ﷺ
لما رأى الحسن يأكل من تمر الصدقة قال له: «كخ كخ». بل أقبل على
حديقة العلم في بيتك، فقد قال الرسول ﷺ لأبي الدحداح لما تصدق
بالحديقة: «بخ بخ».

- احذر أن تجمع مع شين الشيخ والشيبة شين الشر، فتجمع
الثلاثة على شيطان؛ لأنه:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي
وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

- أحياناً العزلة مع الغنم خير من الخلطة مع أهل اللّم واللّم، ولهذا حبذا في الشريعة الفرار من الفتن، برأس القنن، والبعد عن أهل الفتن، أصحاب الإحن، وقود المحن، وهم أشرار كل زمن.

- أغلق عليك الباب عن كل كذاب، وسبّاب وعيّاب، وثلّاب ومفتاب، وصحّ من داخل الغرفة: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُ بِابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾. ولا تكن كالذباب النّهّاب، يلطخ الثياب بالسكر المذاب.

- أما ترى الناس في هواش واحتراش على المعاش، يتناطحون تناطح الكباش، كل كلامهم خاش وفاش، وعقولهم هاش وماش، كأنهم طاش ما طاش.

- لسان الأحمق تلتلق، وحذاؤه تطرق، إن حلف طلق، وإن ضحك صقق، وإن نقل لم يحقق، فلم تمنحه وقتك؟ فإنه للزمان يسرق، وللقلب يرهق.

- اجلس وحدك، واذكر لحدك، ففي الانفراد تجوّد الزاد ليوم المعاد، وإياك والتشويش والتهويش، والصجيج والضجيج، فلا يصفو الماء حتى يركد.

- قل لأفكارك في العزلة: استكنّ، وإذا أرادت الخروج فاهتف: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وفي جوف البيت اسكنّ.

- مسكين المخالط، طيلة هائم، ومزمار نادم، كأنه ما جف زاد قادم، في ولائم وعزائم، ومآتم ومواسم، حارس وفرّاش وقهوجي وخادم.

- تركناك تجلس مع ابن تيمية، فتركته، وجلست مع الأيتام على موائد اللئام، تترك ملوك الكلام، وتجلس مع خدّ أو الخيّام.
- لو بذلت للناس مالك لحاشوه، ثم أتوا على عرضك فداسوه، ثم وصلوا لدمك فسفكوه.
- دخل أعرابي بيتاً، فجاء بأولاده، ثم أدخل جملة، ثم حلف إن البيت بيته، ثم طرد صاحب المنزل.
- بالعزلة لمع ابن باديس، ونبع ابن النفيس، ورفض العزلة امرؤ القيس وخرج مع إبليس، فأركبه مركب التدليس والتلبيس، فقتل البئيس، وضاع ملك التعيس، فذهب السيف والكيس، وأكل البرسيم التيس.
- قلبك مخدّر بالبنج، وذهنك مبرّد بالثلج، وإلا كيف تمنح وقتك من دجّ وهجّ!
- أقبل على كعبة العبودية وحجّ، وارفع صوتك بالتوحيد وعجّ، واسفح دموع الندم وثجّ، فخير الحجّ العجّ والشجّ:
- حجّي إلى الباب القديم وكعبة الـ
- باب الجديد وبالمصلّى الموقف
- والله لو علم الحجيج وقوفنا
- في زندروز عشيّة ما وقفوا
- أو شاهدوا جسر الحسين وشعبه
- بين المحصب والنقا ما عرفوا

- سرق الوقت منك كل نذل بالترّهات والجهل، والسفاسف والدجل، وما سرقوا وقتك حتى سرقت أنت المحاسبة: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

- فتحت الباب والشباك، فسلب قلبك كل أفاك، وسفح دم مروءتك كل سفاك، فإياك إياك، الشمس تجري في الأفلاك، فقم في طلب ما سلبه سراق الوقت من الأفلاك.

- من علامة التياسة، وقلة الكياسة: طلب الرياسة، والتمزق في السياسة:

الكلب أحسن عشرة

وهو النهاية في الخساسة

ممن يُنازع في الريا

سنة قبل أوقات الرياسة

- أعوذ بالله من ساس يسوس فهو سائس، ما لك في ديار السياسة تجوس، وفي مواطن الرياسة تحوس، كأنك منحوس؟! أما تعلم أنها أزهدت النفوس، وخلعت الرؤوس، وأحرقت الطروس، ومزقت العروش؟

- كن كسلمان، وسليمان، ومسلم، وابن مسلمة، فخذ من سلمان إيمانه، ومن سليمان همته، ومن مسلم صدقه، ومن ابن مسلمة عزلته، واحذر مسيلمة وأبا مسلم وابن سامان، فمسيلمة كافر، وأبو مسلم غادر، وابن سامان فاجر.

- كره للسلف + سفيه + فلسفة = زنديق.

- يا قَتِيلَ العيونِ المراضِ، يا مقرّاضِ الأعراضِ، تفتك بالشهوات
فتك البرّاضِ، فإذا رأيتَ الغدرَ فاضِ، والوفاءَ غاضِ، ففرّ مع كليمِ
الحكمة من فرعونِ الأغراضِ: ونادٍ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾، فقد
استنوقَ الجملَ والديكِ باضِ.

- ضاعَ عمرُكَ بينَ الجفانِ والجفونِ، وهجرتِ المتونَ والفنونَ، لو
صحا قلبُكَ لكانَ تقليبُكَ الصفحاتِ أحسنَ من لعقِ الصّحافِ.
عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قالَ: إنَّكُمْ لَن تَرَوْا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا بِلَاءً وَفِتْنَةً، وَلَا
يَزِيدُ الْأَمْرَ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا الْأُيُومَ إِلَّا غِلْظَةً، وَمَا يَأْتِيكُمْ أَمْرٌ يَهُولُكُمْ إِلَّا
حَقَّرَهُ مَا بَعْدَهُ. قالَ الشاعرُ:

الْخَيْرُ وَالشَّرُّ مُزْدَادٌ وَمُنْتَقَصٌ

فَالْخَيْرُ مُنْتَقَصٌ وَالشَّرُّ مُزْدَادٌ

وَمَا أَسْأَلُ عَنْ قَوْمٍ عَرَفْتُهُمْ

ذَوِي فَضَائِلٍ إِلَّا قِيلَ: قَدْ بَادُوا

- حفظَ الحدودَ، وزيارَةَ اللّهودَ، أجملَ من عشقِ الخدودِ، ووصلَ
ذواتِ القدودِ، والعيونَ السودَ، واعلمَ أنَ المجدَ في سودِ الصّحائفِ،
وفي بيضِ الصّفائفِ.

قالَ العتّابي: ما رأيتُ الرّاحةَ إِلَّا مع الخلّةِ، ولا الأنسَ إِلَّا مع الوحشةِ.
- كُفَّ بالكفايةِ عنكَ أكفّ اللّئامِ، واخلعِ بالقناعةِ براقعِ الطّعامِ،
فصاحبُ جرةِ الفولِ أشرفُ من جريرِ، وهو يجرجرُ رجله على أبوابِ
الرجالِ، مرّةً يجازيَ ومرّةً يجرّمُ.

قال ابن المقفع: وحشة الانفراد أبقي على المرء من أنس التلاقي.
وقال بعض العلماء: العزلة عن الناس توقي العرض، وتبقي
الجلالة، وترفع مؤونة المكافأة في الحقوق اللازمة، وتستتر الفاقة.
- الخلطة بأهل الريبة رأس كل مصيبة؛ لأن فيها سقوط الهيبة،
وكثرة الغيبة، لكن الجمل الأهوج ما درى بما في العيبة.
قال لقمان لابنه: استعذ بالله من شرار الناس، وكُن من خيارهم
على حدَر.

وقال إبراهيم بن أدهم: فرّ من الناس فرارَك من الأسد. وقيل له:
لَمْ تَجْتَبِ النَّاسَ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

ارْضَ بِاللَّهِ صَاحِبًا
وَذَرِ النَّاسَ جَانِبًا
قَلْبَ النَّاسِ كَيْفَ شِئْتَ
لَمْ تَجِدْهُمْ عِقَارِيًا

- الاتِّكَاءُ على قطيفة، وقراءة صحيفة، مع قطة أليفة، في غرفة
نظيفة، وهمة شريفة، أرفع من الجلوس على الديباج مع الحجاج، وأتباع
الحلاج، المخرجين على الدين في سوق الحراج، فهل من خراج؟
وقال أوس بن حجر:

وَأَنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ إِلَّا أَقْلَهُمْ
خِفافَ الْعُهودِ يَكْثُرُونَ التَّنْقُلًا

بُنُو أَمْ ذِي الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرُونَهُ
وَإِنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الْقَوْمِ جَحْفَلًا
وَهُمْ لِمَقِلِّ الْمَالِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ
وَإِنْ كَانَ مُحْضًا فِي الْعُمُومَةِ مُحْضًا
وَلَيْسَ أَخَوُكَ الدَّائِمُ الْعَهْدِ بِالَّذِي
يَسُوءُكَ إِنْ وَلَّى وَيَرْضِيكَ مَقْبَلًا
وَلَكِنْ الْأَخُ النَّائِي إِذَا كُنْتَ آمِنًا
وَصَاحِبُكَ الْأَدْنَى إِذَا الْأَمْرُ أَعْضَلًا

- ابدأ بنفسك فهي أشرة بطرة، واذبحها بسكين الزهد، واهتف:
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾، واهجر الفجرة، واقرأ سير العشرة،
وطالع أخبار أهل الشجرة.

كان محمد بن عبد الملك الزيَّات يَأْسُ بأهل البلادة وَيَسْتَوْحِشُ
من أهل الذكاء، فُسِّلَ عن ذلك، فقال: مَنُونَةُ التَّحْفُظِ شَدِيدَةٌ.
وقال ابن مُحَيْرِيز: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْرِفَ وَلَا تُعْرِفَ، وَتَسْأَلَ وَلَا
تُسْأَلَ، وَتَمْشِيَ وَلَا يَمْشِيَ إِلَيْكَ، فَافْعَلْ.

وقال أيوب السَّخْتْيَانِي: مَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا إِلَّا أَحَبَّ أَلَا يُشْعَرَ بِهِ.
- وللعزلة فوائد كثيرة ومنافع وفيرة، منها: جمع القلب على
طاعة الرب، وكف اللسان عن الغيبة واللغو وردئ القول، والبعد
عن الحاسد والشامت، ومتتبع السقطات، والفارح بالغلطات، والجامع

للزلات، ومفارقة الثقل، والبعد عن سوء الظن، والسلامة من ضياع الزمان الذي هو أشرف العطايا، واليأس مما في أيدي الناس، وحبس الفكر على استجلاء الفكر، والبعد عن كل مشوش، والأمان من لدغ الأقران، ومنة الإخوان، وحقوق الخلان، ومطالب الجيران، والابتعاد عن النظر إلى زينة الدنيا، والاستحسان لما ذمه الله من زخرفها، وعابه من زبرجد غرورها، والنأي عن منافسة أهلها، ومباراة خدامها، ومعاداة أبنائها، ومحاكاة أخدانها في طمعهم وجشعهم.

- وفي العزلة الأمان من حيف السلطان؛ لأن في الخلطة فرصة للنمام لنقل الكلام، وعدم التحرز من اللسان عن العوام، فرب كلمة سقط معها الرأس، أو وقع على النفس منها بأس، سببها مجالسة الناس.

- وفي العزلة حفظ الأنفاس مع نفائس العلوم، وتلقيح الفهم بقطوف الحكمة، وثمار المطالعة، وأبكار الأفكار، ونتائج القراءة، ودرر الاستنباط، وبدائع التأمل، ومجالسة من سلف مع كتبهم وعلومهم وكنوز ميراثهم.

- وفي العزلة الابتعاد عن أسباب قسوة القلب من كثرة الكلام، وفضول النظر، والخلطة، والمزاح، والتهتك في الضحك، ومجاراة السفهاء، ومداهنة الكبراء، ومنافسة الأغنياء، ومجادلة الأغبياء.

- وفي العزلة حفظ الجاه، وصون العرض من التبذل.

- وفي العزلة تملو قيمة المرء كاختفاء الشمس حتى يعرف نفعها، واحتجاب القمر حتى تظهر فائدته، فما رفع الدر في النحور إلا لأنه اختفى في البحور.

- وفي العزلة إقامة ناموس الهيبة، وإقامة دولة العز في النفس والناس، وحبس الطبع عن سرقة العادات؛ فإن الطبع لص يسرق، والنفس تهوى التقليد، فمن جلس مع أبناء الزمان، وضيع العمر مع من يسمون بالإخوان، سرق منهم سقوط الهمم، وموت الذمم، وكثر فيهم برود العزائم، وكثرة الأمانى، وسماع الأراجيف، ونشر المعائب، والاشتغال بالتوافه، والإقبال على ما يشغل، وترك المهمات، وهجران الصالحات، وحب البطالة، والكسل في العبادة، والإعراض عن العلم، وإزجاء الوقت في قيل وقال، وبيع الأيام في سوق الأمانى، ومشاركتهم في مقاصدهم، ومصاحبتهم في مكاسبهم.



العزلة النافعة

في العزلة البعد عن مواطن الرياء، وهو من محبطات الأعمال؛ فإن من جلس وحده لا يجد من يرائي له، أما من خالط الناس فإن نفسه تدعوه إلى التصنع وإظهار الفضيلة؛ فإن الإنسان من طبيعته إظهار الحسن من نفسه وستر السيئ، والمتشبع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور، فمع الخلطة تجد العبد يزيّن ألفاظه؛ فإن كان صاحب علم أحب التصدر في الغالب، واستأثر بالمجلس، وأحب أن يستتار بفهمه وأن ينوه بعلمه، وإن كان ذا عبادة أظهر الزهد في الدنيا وتمتم بالتسبيح، وتوجع وتفجع عند سماع أخبار العصاة، وربما لم يكن بتلك المنزلة من التقوى.

- وفي العزلة السلامة من الكذب؛ فإن النفس أمّارة بالسوء، وحب التزيّد في الحديث عادة، وجلب الانتباه بغرائب الحكايات وعجائب المنقولات محبب إلى النفوس، فلا يزال الشيطان يؤزّ العبد حتى يلمح القصة، ويجنّي الحديث، ويذيل الخبر في الغالب، وهذا كذب والعياذ بالله.

- وفي العزلة الأمان من التهديد والوعيد الذي ينقله الغاوون؛ فإنهم يحبون الأراجيف، وينشطون للشائعات، ويرتاحون لبثّ الأخبار المخيفة من قتل وحبس، وحروب ودمار وجوع، وتخطيط لكارثة، وتدبير لحادثة، حتى يبقى قلب السامع في مزعجات، وتعيش نفسه في خيالات، ولو كان وحده لرضي بموعود الله من الكفاية، وتقويض الأمر إليه، والتوكل عليه، والقرب منه.

- وفي العزلة السلامة من صلف المتكبرين، وإعراض المتجبرين، وزهو المختالين، فإن من الناس من يستهين بمن خالطه أو صادقه بغلظته وفضاضاته، وزهوه وعتوه، وكبره وفخره، وخیالته ودعاويه، فإن سكت له أذلك، وإن عارضته عاداك وجافاك وقلاك، فإياك إياك.

- وفي العزلة النجاة من عيون الحاسدين، وأبصار الكائدين؛ فإن في حديق العيون رصاصاً يقتل، وسهاماً تجرح، وقذائف تدمر، فله كم من نعمة سلبت بعين نظرت، وكم من موهبة أهدرت بلحظة عين أرسلت! والسلامة لا يعدلها شيء.

- ومن تعرض للعيون رشقته ومزقته، فكم من حاسد ملأ قلبه الطمع، وخيم على روحه الجشع، يفتك بنظراته ويقتل بلحظاته.

- وفي العزلة تذكر الذنوب، والتفكر في العيوب، والاشتغال بنقص النفس عن نقص الناس؛ فإن من اعتزل ظهرت له أخطاؤه؛ لأنه لا يرى أخطاء الآخرين، وبدت له عيوبه؛ لأنه شغل بها عن عيوب العالمين، فتجده بين ندم على ما فات، يستفرغ دموع عيونه وآهات قلبه، وبين إعمار لوقته في الطاعة، وتدبير لمستقبله، واستعداد لرحيله، وتهيؤ لانتقاله.

- وفي العزلة إسقاط الحقوق عن النفس، والواجبات عن الشخص؛ فإن الناس لا يعذرون؛ لأنك إن زرت فلاناً وتركت علاناً عتب عليك ونفر منك، ولكن لو عودت الجميع ترك فضول الزيارة إلا في الواجبات الشرعية عذرک الجميع وعفوا عنك.

- ومن فوائد العزلة: صعود النفس في سلم العبودية، من تلاوة مبكية، وتفكر نافع، وذكر ومحاسبة، وإنابة وتوبة، وندم على تقريط، وجود على نعمة، وشكر على عطية، واستعاذة من بلية، وطلب للزيادة، ومحافظة على الأوراد.

- وفي العزلة جمع النية وإخلاصها، وعتاب النفس على ما فعلت، وتبكيته على ما صنعت، وتأديبها على ما اقترفت، ومطالبتها بالزيادة في العبادة والإنابة.

- وفي العزلة نفع عظيم للعلماء في تأليف الكتب، وتصنيف الرسائل، وشرح المسائل، والتعليق على المغلق من العلم، وحل المبهم، وجمع المتفرق، ولمّ شعث المتناثر، وإخراج كنوز الحكمة.

- وفي العزلة الاهتمام بالأهل والعيال، وتأديب الأطفال، والقيام بحقوق الوالدين والزوجة والأبناء، وتعاهد أحوالهم، والاطلاع على أمورهم، ورعايتهم وكفائتهم، وتعليمهم وتقويمهم.

- وفي العزلة النجاة من الفتن، وحوادث المحن التي يجرها جهل الجاهل، واندفاع الغبي، وقلة عقل الصبي، وضعف رأي الغافل، وربما وصلت إلى سفك الدماء، واختلاف الآراء، وذهاب الأموال، وتغير الأحوال.

- والمعتزل في أمن وأمان، وحرز مُصان، وفي عافية وامتنان، وهذا فعل كثير من الصحابة عند الفتن؛ فإنهم أغلقوا على أنفسهم أبواب الدور، وأرخوا عليهم الستور، ومنهم من فرّ إلى الصحراء،

وخرج إلى البیداء، ورعى الشاء؛ ليسلم من أراجيف العوام، وزعازع الهوام، أهل الحوادث الطوام، والمشكلات الجسام.

- وفي العزلة كتم الأسرار، وحفظ الأخبار، فما كل ما يُعلم يُقال، وربما صعب الصمت مع الخلطة، وتعسر السكوت مع الناس، وما استعان عبد على قضاء حاجة بمثل كتمان، ومن حفظ سره كان الخيار في يده.

- وفي العزلة السلامة من التكلف للناس في الهيئة، والتزين لهم في الكلام، والتتبع لهم في الأحوال، ومسايرتهم في الأموال، والسكوت عنهم ولو صدر منهم رديء الأفعال، فإن من أنكر عليهم استثقلوه، وملّوه، وهجروه، ومن وافقهم أتلف دينه، وأضاع نصيبه، وضلّ سعيه.

- وفي العزلة البعد عن المنكرات التي يلزم على العبد فيها الإنكار، وهو قبل رؤيتها سالم العهد بريء الذمة، ولكنه إذا رآها وجب عليه الإنكار، بحسب حاله، وربما قصّر فآثم، وكم من غيبة في مجلس سمعها فما غيّر، وكم من مخالفة رآها فما أنكر، وكم من مسألة سئل عنها فكتم وما أخبر!

- وفي العزلة أعظم عبرة، وأجل فكرة في معرفة حقيقة هذه الدار وحقيقة أهلها، وتذكر القرون الماضية والأجيال الغابرة، كيف كانوا؟ وأين صاروا؟ أين قصورهم؟ أين دورهم؟ أصبحوا في قعر اللحد، طعاماً للدود، وهذا الفكر لا يأتي مع تشتت الفكر، ومن تذكر مع الخلطة فإنما تذكر، وهو مشغول مع الناس بقلب لاهٍ، وفكر ساهٍ.

- وفي العزلة السلامة من مدهانة الظالم، ومداراة الجاهل؛ فإن من الناس من لا يقبل منك إلا الموافقة على كل ما يريد، والمدح لكل ما يفعل، والثناء على كل ما يعمل، فإن أظهرت نقده وأعلنت مخالفته فالويل لك منه، فسلامتك في البعد عنه والنجاة بدينك، ويكفيك الخبر الصحيح: «كُفَّ عَلَيْكَ لِسَانُكَ، وَلِيَسَعُكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ».

- وفي العزلة السلامة من الحمقى ومن في عقولهم خلل، وفي ضمائرهم علل، وفي أخلاقهم ملل، فقلّ أن تجد رزيناً عاقلاً، أو شهماً فاضلاً، فأغلبهم مضيع للأوقات، منفق للساعات، لا في أمر دين ولا دنيا، يسأل عما لم يقع، ويغفل عما يحتاج إليه، قصر فيما علم، وبحث عما جهل، أخفق في أمر آخرته، وغلط في أمر معيشتة، فأحب ملء أوقاته في قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وضياع العيال، ومصاحبة الجهال.

- وفي العزلة السلامة من قرين السوء، مزين الباطل، محبب الفاحشة، والداعي إلى المعصية، والبريد إلى الرذيلة بحاله ومقاله وفعاله؛ فإن بعض الناس يفسد في مجلس واحد ما لا تصلحه عشرة مجالس، والجرباء تعدي الصحيحة، والناس أميل للجليس، والنفوس أمّارة بالسوء، والقرين يضعف مع قرينه، فالتحصن بالعزلة في مثل هذا واجب شرعي، وأصل عقلي.

- وفي العزلة الحفاظ على المال، وأعوذ بالله من أن أكون داعياً إلى البخل؛ فإنه في الخلطة قد يحصل صرف المال على البطالين والعطالين والفارغين، في ضيافات تسمى كرمًا وجوداً، وهي في الحقيقة إسراف، وللمال إتلاف، وبالوقت إحجاف، فإن من داخل الناس ألقوه إلى مناسباتهم وولائمهم وضيافاتهم؛ فإن استلف وما قضى قالوا: بخيل جاحد، بالخير جامد، وللمعروف فاقد، وإن سايرهم وباراهم ضيع ماله وما كسب، وأنفقه شذر مذر، لا في حق ديني، ولا في مقام دنيوي، فلا هو متصدق فيؤجر، ولا صاحب معروف فيذكر.

- وفي العزلة الامتناع من أكل الحرام؛ فإن المطاعم مدخولة، وأبواب الربا والغش مبذولة، وكثير من الأغنياء لا يتورع في المطعم، ورب لقمة أورثت ندماً، ووجبة خلّفت سقماً، فقد تآكل رغيماً عند صاحب دخل حرام، فيقسو قلبك، ويعوج لبك، وتدعو فلا تجاب، وتسال فلا تعطى؛ لأن إجابة الدعاء مرهونة بحلّ الغذاء.

فأحكم بابك، بل أدم إصفاقه، فهو أولى بك، بل إن قدرت على مصمت لا حيلة فيه، فذلك أشبه بحزمك.

ولو جعلت الباب مبهماً والقفل مصمتاً، لتسوروا عليك من فوقك. ولو رفعت سمكة إلى العيوق^(*)، لنقبوا عليك من تحتك.

قال أبو الدرداء: نعم صومعة المؤمن بيته!

(*) نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا، لا يتقدمها، ويطلع قبل الجوزاء.

صراع بين الخلطة والعزلة

إياك أن تحكم مطلقاً على العزلة أو الخلطة بأن إحداهما أولى؛ إذ كل مفصل، فإطلاق القول فيه بـ (لا) أو (نعم) خلف من القول محض.

- أمرنا عجيب! نعتزل الناس، ونخالط الكتب، ونذكر الموت، فتلين قلوبنا، ويكثر خوفنا، ثم تقسو منا القلوب، ويضيع الزمان، ويهدم ما بنيناه بالعزلة، نتخذ ورداً من القرآن والذكر فنداوم عليه، فنجد الراحة والأمن والسكينة، ثم نملّ ونضجر ونسأم، فنحوّل إلى طريقة أخرى، فيحصل القلق والاضطراب.

- يا مخالط الناس لا تتفصح، واترك التمداح، وأنصت لابن صمادح:

وزَهَّدني في النَّاسِ معرفتي بهم

وطُولُ اختياري صاحباً بعدَ صاحبٍ

فَلَمْ تُرني الأيامُ خِلاً تُسرُّني

مبادئه إلا ساءني في العواقبِ

ولا قلتُ أرجئوه لدفعِ ملمّةٍ

من الدَّهرِ إلا كانَ إحدى المصائبِ

- حضرت مجلساً فيه خليط من الناس، وغالبهم يريد أحاديث دنيوية عامة، فأردت أن أوجه المجلس إلى الدعوة وذكر الله، فذكرتُ قصة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي أثناء القصة توقفت قليلاً،

فقاطعني أحدهم، وسأل جاره عن أحوال شيخ قبيلة، كأنه يقول لي: كفى! اسكت لو سمحت، فصمت متعجباً من عدم حبهم لما ينفعهم، ثم قضى المجلس كله في قيل وقال وكلام فارغ، فأخذت أهرب من هذه المجالس، وأعتذر عن عدم الحضور، وهذا غالب المجالس، أكل وشرب، وكلام متهافت فارغ، إن لم يكن فيه غيبة، ولكن سل الحضور: كم قرأ أحد منهم من القرآن؟ وهل طالع كتاباً نافعاً؟ وهل تصدق بصدقة؟ وهل نفع مسلماً؟ العمر يا إخوان، يمضي ونحن واقفون!

وما عرف للعالم قط لذة ولا عزاً ولا شرفاً ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة. فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قدر المخالط لهم، ولهذا عظم قدر الخلفاء؛ لاحتجابهم.

- دخل عليّ رجل واغتررت بمظهره، وتباكى عندي، وذكر لي أنه لن يتركني وحيداً، بل سوف يقف معي، وطلب مني مبلغاً من المال يتاجر فيه لوجه الله، ويعيد الربح ورأس المال لي، ففرّ وتزوج بمالي، واختفى عني وماطلني، وضحك عليّ، وصار كلامه كله هباءً منثوراً، وانخدعت أنا به، فلا تتخدع بالمظاهر يا أخي، وسوف يظهر لك الرجل عند الدرهم والدينار، وبعضهم يبيع ذمته بثمن بخس دراهم معدودة، وأعوذ بالله ممن يتستر بالدين، وقد عاملت بعض من ظاهره الخير فتمرد عليّ وماطلني، ورأيت من سوء معاملته عجائب، فكيف نقدم الإسلام للناس، ونحن بهذه الحالة؟!

طبيب يداوي الناس وهو عليل.

ما عرف نفع كالعزلة عن الخلق خصوصاً للعالم والزاهد؛ فإنك لا تكاد ترى إلا شامتاً بنكبة، أو حسوداً على نعمة، أو من يأخذ عليك غلطاتك. فيا للعزلة ما أذهأ! سلمت من كدر غيبة، وآفات تصنع، وأحوال المداجاة، وتضييع الوقت.

ثم خلا فيها القلب بالفكر بعدما كان مشغولاً عنه بالمخالطة، فدبر أمر دنياه وآخرته، فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المعى بالأخلاق، فيزيها. - عندنا مرض، وهو فصل القول عن العمل.

ثم لاعزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد، فإنهما يعلمان مقصود العزلة، وإن كانا ليسا في عزلة. أما العالم فعلمه مؤنسه، وكتبه محدثه، والنظر في سير السلف مقومه، والتفكر في حوادث الزمان السابق فرجته.

فإن ترقى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه، وتشبث بأذيال محبته تضاعفت لذاته، واشتغل به عن الأكوان وما فيها، فخلا بحبيبه، وعمل معه بمقتضى علمه.

وكذلك الزاهد تعبده أنيسه، ومعبوده جليسه، فإن كشف لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلق، وغابوا عنه.

فهما إنما اعتزلا ما يؤذي، وهما في الوحدة بين جماعة. فهذان
رجلان قد سلما من شر الخلق، وسلم الخلق من شرورهما، بل هما
قدوة للمتعبدین وعلم للسالكين. ينتفع بكلامهما السامع. وتجري
موعظتهما المدامع، وتنتشر هيبتهما في المجامع.

فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة، وإن كرهها ليثمر
له الصبر العسل.

- وما رأيت مثل ما يصنع المخالط؛ لأنه يرى حالته الحاضرة من
لقاء الناس وكلامهم، فيشتغل بها عما بين يديه، فمثله كمثل رجل
يريد سفراً قد أظف، فجالس أقواماً فشغلوه بالحديث حتى ضرب
البوق وما تزود، فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل،
والسلامة من شر المخالطة لكفى.

وقال الحسن بن عبد الرحمن:

تَوْحُّشْتُ وَلَكِنِّي

أَسْرُ بِالْوَحْشَةِ أَحْيَانًا

وَفِي الْوَحْشَةِ مَا يُؤْ

نَسُ مِنْ صَحْبَةٍ مَنْ خَانَا

وقال أيضاً:

يَا حَبِّذَا الْوَحْشَةَ مِنْ أَنْيَسِ

إِذَا خَشِيتُ مَنْ أَدَى الْجَلِيسِ

وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالم، خصوصاً لأرباب المال والسلطين، يحتلب ويحتلب، ويختلب ويختلب، فما يحصل له شيء من الدنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله. ثم أين الأنفة من الذل للفساق؟ فمن لا يبالي بذلك فهو الذي لا يذوق طعم العلم ولا يدري ما المراد به، وكأنني به وقد وقع في بادية جرز، وقفر أمل مهلك في تلك البراري.

ويقال: مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ اخْتِيَارِهِ فِي احْتِيَالِهِ، وَصَدَّقَ رَجُوعَهُ إِلَى اللَّهِ فِي أَحْوَالِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِزَّ - بغير الله - من أشكاله وأمثاله آواه إلى كَنَفِ أفضاله، وكفاه جميع أشغاله، وهيئاً له مَحَلّاً يتفياً فيه بَرْدٌ ظلاله، بكمال إقباله.

- وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنع والنفاق، فيفوته الحظان، لا الدنيا ونعيمها تحصل له ولا الآخرة.

وقال أعرابي: رُبَّ وَحدة أنفع من جليس، ووحشة أنفع من أنيس. وكان أبو معاوية الضيرير يقول: فيّ خصلتان، ما يسرنني بهما رد بصري: قلة الإعجاب بنفسي، وخلوّ قلبي من اجتماع الناس إلي.

وقال عمر رضي الله عنه: خذوا حظكم من العزلة.

وصعد حسان بن ثابت على أطم من أطام المدينة، ونادى بأعلى صوته: يا صباحاه، فاجتمعت الخرج، فقالوا: ما عندك؟ قال: قلت بيت شعر، فأحببت أن تسمعه. قالوا: هات يا حسان، فقال:

وإن امرئاً أمسى وأصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد

- فنسأل الله عز وجل خلوة حلوة، وعزلة عن الشر لذيدة، يستصلحنا فيها لمنجاته، ويلهم كلاً منا طلب نجاته، إنه قريب مجيب.

- وقد اعتزل رسول الله ﷺ قومه قريشاً لما جفوه وآذوه، فدخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة، ثم تحول إلى المدينة مهاجراً حتى تلاحق به أصحابه وتوافوا بها معه، فأعلى الله كلمته، وتولى إعزازه ونصرته ﷺ.

واعلم أن من أراد الله به خيراً رزقه حسن القصد في طلب العلم، فهو يحصله لينتفع به وينفع، ولا يبالي بعمل مما يدل عليه العلم، فتراه يتجافى أرباب الدنيا، ويحذر مخالطة العوام، ويقنع بالقليل؛ خوفاً من المخاطرة في الدنيا في تحصيل الكثير، ويؤثر العزلة فليس مذكراً للأخرة مثلاً.

وقد قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائرُه بالسهَر والحمى». فالتألف والتودد يؤكدان أن الصحبة مع الأخيار مؤثرة جداً، بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحاً، والنظر في الصور يؤثر أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه كدوام النظر إلى المحزون يحزن، ودوام النظر إلى المسرور يسر. وقد قيل: من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه، والجمل الشرود

يصير ذلولاً بمقارنة الجمل الذلول، فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والجماد، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف، والزرع تنقى من أنواع العروق في الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة، وإذا كانت المقارنة مؤثرة في هذه الأشياء ففي الصور الشريفة البشرية أكثر تأثيراً. وقيل: سمي الإنسان إنساناً؛ لأنه يأنس بما يراه من خير أو شر. والتآلف والتودد مستجلبان للمزيد.

وقال بعضهم: وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر، فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فتغتيم مقارنتهم والاستئناس بهم، كما إن محبتهم من محبة الله تعالى والجامع معهم رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذب، فأعجبه فقال له: اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة». قوله: فواق ناقة، وهو ما بين رفع يدك عن ضرعها وقت الحلبة ووضعها. وقيل: هو ما بين الحلبتين. وفي الحديث دلالة على أن الجهاد والتصدي له أفضل من العزلة للعبادة.

وقال في فتح القريب: ليت شعري من يقوم مقام هذا الصحابي في عزلته وعبادته وطيب مطعمه، ومع هذا قال النبي ﷺ: لا تفعل. وأرشده إلى الجهاد، فكيف لواحد منا أن يتركه من أعمال لا يوثق بها مع قتلها وخطايا لا ينجى معها؛ لكثرتها وجوارح لا تزال مطلقة فيما منعت منه، ونفوس جامحة إلا عما نهيت عنه، ونيات لا يتحقق إخلاصها، وتبعات لا يرجى بغير العناية خلاصها.

- والعزلة عند الفتنة سنة الأنبياء، وعصمة الأولياء، وسيرة الحكماء والأولياء، فلا أعلم لمن عابها عذراً، لا سيما في هذا الزمان القليل خيره، البكيّ دره، وبالله نستعيز من شره وريبه.

فسكنى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء.

وقد فضل رسول الله ﷺ العزلة، وفضلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾.

فهؤلاء الفتية هجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقرباتهم وإخوانهم؛ رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين.

وقال أبو العتاهية:

برمتُ بالناسِ وأُخلاقهم

فسرتُ أستأنسُ بالوحدَه

ما أكثر الناس لعمري وما

أقلهم في حاصل العِدَّة

■ وكتب شيخ من أهل الري على باب داره: جزي الله عنا من لا نعرفه، ولا يعرفنا خيراً، وأما أصدقائنا الخاصة فلا جزاهم الله خيراً، فإننا لم نؤت إلا منهم.

■ وقال سفيان: وما وجدت من يغفر لي ذنباً، ولا يستر لي عيباً، فرأيت في الهرب من الناس السلامة.

وقال الفضيل بن عياض لسفيان الثوري: دلني على رجل أجلس إليه، قال: تلك ضالة لا توجد.

وقال أكثم بن صيفي: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، وإفراط الأنس مكسبة لقرناء السوء.

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة، أو ذكرت عنده، فقال ﷺ: «إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم، وخفت أمانتهم، وكانوا هكذا. وشبك بين أصابعه. قال: فقمتم إليه، فقلت: كيف أ فعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ فقال ﷺ: الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة».

وقال العلماء: الاعتزال عن الناس يكون مرة في الجبال والشعاب، ومرة في السواحل والرباط، ومرة في البيوت، وقد جاء في الخبر: إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك.

وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم.

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن».

وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضل في مرضه نعوذ، فقال: ما جاء بكم؟ والله لو لم تجيئوا لكان أحب إلي، ثم قال: نعم الشيء المرض لولا العبادة.

وقيل للفضل: إن ابنك يقول: وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه، ولا يروني، فقال: ويح ابني لم لا أتمها؟! فقال: لا أراهم ولا يروني.

وقال علي رضي الله عنه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة.

- عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «قال رجل: يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. قال: ثم من؟ قال: ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه، ويدع الناس من شره».

وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم، فإذا خاضوا في ذكر الله فخذ معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت.

وروى البغوي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم.

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه، إلا من فر دينه من قرية إلى قرية، ومن شاهر إلى شاهر، ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ. قالوا: ومتى ذاك يا رسول الله؟ قال: إذا لم تُتَلَّ المعيشة إلا بمعاصي الله عز وجل، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة. قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله، وقد أمرتنا بالتزوج؟ قال: لأنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يدي قرابته. قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعيرونه بضيق المعيشة، فيتكلف ما لا يطيق؛ حتى يوردوه موارد الهلكة».

وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومه منه، إذ لا يستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة، ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، ولست أقول: هذا أو أن ذلك الزمان، فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر، ولأجله قال سفيان: والله لقد حلت العزلة.

- عن أبي موسى -رضي الله عنه-: قال رسول الله ﷺ: «إن بين أيديكم فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، القائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: كونوا أحلاس بيوتكم».

وذكر علي بن سعد عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتي العزبة والعزلة والترهب في رؤوس الجبال».

- عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «ذكر رسول الله ﷺ الفتنة وأيام الهرج. قلت: وما الهرج؟ قال: حين لا يأمن الرجل جليسه. قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: تكف نفسك ويدك، وادخل دارك. قال: قلت: يا رسول الله! أرايت إن دخل علي داري؟ قال: فادخل بيتك. قال: قلت: يا رسول الله، أرايت إن دخل علي بيتي؟ قال: فادخل مسجدك واصنع هكذا، وقبض بيمينه على الكوع، وقل ربي الله حتى تموت على ذلك».

وقد أئذّر رسول الله ﷺ أمته أيام الهرج في أخبار عدة، وحذرهم فتنه، وأوضح في هذا الخبر معناه، وذكر أن أمارّة الهرج ألا يأمن الرجل جليسه، فتأملوا رحمكم الله، فإن كنتم لا تأمنون جلساءكم في هذا الزمان، ولا تسلمون من أكثر من تصحبونه، فاعلموا أن قد حلت العزلة، وطاب الهرب، وحان الفرار منهم، وإن كانوا على خلاف هذا النعت فكونوا لهم على خلاف هذا الرأي، وما التوفيق إلا بالله.

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خذوا بحظكم من العزلة. وقال رضي الله عنه:
في العزلة راحة من خليط السوء.

فأحوال الناس في هذا الباب تختلف، فرب رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيران في الجبال، وهي أرفع الأحوال؛ لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيه ﷺ في بداية أمره، ونص عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ﴾.

ورب رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل، وقد اعتزل رجال من أهل بدر، فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان، فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن.

وذكر وهيب بن الورد قال: جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال: إن الناس وقعوا فيما وقعوا، وقد حدثت نفسي ألا أخالطهم.

فقال: لا تفعل؛ إنه لا بد لك من الناس، ولا بد لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميماً، أعمى بصيراً، سكوتاً نطوقاً.

وقد قيل: إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشعاب، مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرباط والذكر، ولزوم البيوت؛ فراراً من شرور الناس.

وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم - والله أعلم - لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها، فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه.

وروى عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية الجبل يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة الصادقة، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب الخلاء إليه. تعني: العزلة. وكان يأتي حراء، ويمكث هناك، ثم يرجع إلى خديجة. فجاءه الملك، وهو على حراء، فقال له: ﴿اقْرَأْ﴾.

والحاصل أن رسول الله ﷺ كان يتحنث في غار حراء قبل البعثة بثلاث سنوات؛ أي: يتطهر ويتعبد، وكان تحنُّثه عليه الصلاة والسلام شهراً من كل سنة هو شهر رمضان يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة، ومعه أهله قريباً منه. فيقيم فيه هذا الشهر، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة.. وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك الملهلة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له؛ ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم. ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة؛ ويفرغ لموحيات الكون، ودلائل الإبداع؛ وتسبح روحه مع روح الوجود؛ وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال؛ وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم.

ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية، فتحولها وجهة أخرى.. لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض، وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

لا بد من مدة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة. فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستقيم له، فلا تحاول تغييره. أما الانخلاع منه مدة والانعزال عنه، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح لرؤية ما هو أكبر، ويدربها على الشعور بتكامل ذاتها من دون حاجة إلى عرف الناس، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع!

وهكذا دبّر الله عز وجل لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ. دبّر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات. ينطلق في هذه العزلة شهراً من

الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون؛ حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله.

ولما توفي رسول الله ﷺ تبعه خلفاؤه بإحسان، فلما مضت الخلافة الراشدة تراكمت الفتن كما أخبر رسول الله ﷺ واشتد البلاء على المتمسكين بصريح الإيمان، ورجم البيت العتيق بحجارة المنجنيق وهدم، وقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما واستبيحت مدينة النبي ﷺ ثلاثة أيام، وقتل خيار من فيها، فرأى المسلمون العزلة واجبة، فلزموا المساجد وابتتوا الروابط على سواحل البحر، وأخذوا في جهاد العدو والنفوس، وعالجوا تصفية أخلاقهم.

- فعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما قال: إن أقل شيء يعيب الرجل أن يجلس في داره.

- وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: نعم صومعة الرجل بيته، يكف سمعه وبصره، ودينه وعرضه، وإياكم والجلوس في الأسواق؛ فإنها تلهي وتلقي.

قال أحمد بن سهل: أعداؤك أربعة: الدنيا وسلاحها لقاء الخلق وسجنها العزلة. والشيطان وسلاحه الشبع وسجنه الجوع. والنفس وسلاحها النوم وسجنها السهر. والهوى وسلاحه الكلام وسجنه الصمت.

- وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إبل له وغنم، فأتاه ابنه عمر، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه قال: يا أبت، أرضيت أن تكون أعرابياً في إبلك وغنمك، والناس يتنازعون

في الملك؟ قال: فـضرب سعد صدر عمر بيده، وقال: اسكت يا بني، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي». وكان سعد رضى الله عنه ممن اعتزل أيام الفتنة، فلم يكن مع واحد من الفريقين، فأرادوه على الخروج فأبى وضرب لذلك مثلاً.

- عن ميمون بن مهران قال: إن سعداً لما دعوه إلى الخروج معهم أبى عليهم، ثم قال: لا، إلا أن تعطوني سيفاً له عينان بصيرتان، ولسان ينطق بالكافر فأقتله، والمؤمن فأكف عنه، وضرب لهم مثلاً، فقال: مثلنا ومثلكم كمثـل قوم كانوا على محجة بيضاء، فبينما هم كذلك يسيرون هاجت ريح عـجاجة فضلوا الطريق، والتبس عليهم، فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا. وقال آخرون: الطريق ذات الشمال، فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا. وقال آخرون: كنا في الطريق حيث هاجت الريح، فنيخ فأنـاخوا فأصبحوا، فذهبت الريح وتبين الطريق، فهؤلاء هم الجماعة. قالوا: نلزم ما فارقنا عليه رسول الله ﷺ حتى نلقاه، ولا ندخل في شيء من الفتن.

- قال أبو سليمان: قال ميمون: فصار الجماعة والفئة التي تدعي الإسلام ما كان عليه سعد بن أبي وقاص وأصحابه الذين اعتزلوا الفتن، حتى أذهب الله الفرقة وجمع الألفة، فدخلوا الجماعة، ولزموا الطاعة وانقادوا، فمن فعل ذلك ولزمه نجا، ومن لم يلزمه وقع في المهالك.

- قال الشيخ أبو سليمان: وممن اعتزل تلك الفتنة، فلم يكن مع واحد من الفريقين حتى أنجلت محمد بن مسلمة الأنصاري، وعبدالله ابن عمر بن الخطاب في عدة كثيرة من الصحابة.

فمن الناس من يختار العزلة والانقطاع عن المتمسكين به وجملة شؤونهم ناظرة إلى أمر الله تعالى، ولذا لا يطعن فيهم إلا جاهل وهم في خلواتهم وجلواتهم يتفكّهون من روضات القلوب ويتلذذون بلذائذ الطاعة.

- عن ثعلبة بن ضبيعة قال: دخلنا على حذيفة فقال: إني لأعرف رجلاً لا تضره الفتن شيئاً، فخرجنا فإذا فسطاط مضروب فدخلناه فإذا فيه محمد بن مسلمة الأنصاري، فسألناه عن ذلك فقال: ما أريد أن يشتمل عليّ شيء من أمصارهم حتى تنجلي عما انجلت.

- قال ابن سيرين: ثارت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فلم يخف فيها أربعون رجلاً.

- عن أبي بكرة قال: لما اشتد القتال يوم الجمل، ورأى علي رضي الله عنه الرؤوس تتدر، أخذ الحسن ابنه وضمه إلى صدره ثم قال: إنا لله يا حسن. أي خير يرجى بعد هذا؟

- قال أبو القاسم: من أراد السلامة في الدنيا والآخرة ظاهراً وباطناً فليعتزل قرناء السوء وأخذان السوء، ولا يمكنه ذلك إلا بالالتجاء والتضرع إلى ربه في ذلك؛ ليوفقه لمفارقتهم، فإن المرء مع من أحب.

- قال بعض العلماء: العزلة سبب لصمت اللسان، فمن اعتزل عن الناس لم يجد من يحادثه فأداه ذلك إلى صمت اللسان، وهي على قسمين: عزلة بالأجسام عن الأغيار وعزلة بالقلوب عن الأكوان ونية أهل العزلة إما اتقاء شر الناس وإما اتقاء شره المتعدى إليهم، وهو أرفع

من الأول؛ إذ سوء الظن بالنفس أولى من سوء الظن بالآخرين وأما إيثار صحبة المولى على صحبة السوى فأعلى المعتزلين من اعتزل عن نفسه إيثاراً لعبادة ربه، فمن أثر العزلة على المخالطة فقد أثر ربه على غيره.

- وكان ابن عمر رضي الله عنهما من أشد الصحابة حذراً من الوقوع في الفتن، وأكثرهم تحذيراً للناس من الدخول فيها، وبقي إلى أيام فتنة ابن الزبير رضي الله عنهما فلم يقاتل معه ولم يدافع عنه، إلا أنه كان يشهد الصلاة معه.

- فمن أراد اجتماع همه وإصلاح قلبه فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان، فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكره، فصار الاجتماع على ما يضر.

- وحين كان ابن عمر رضي الله عنهما يصلي مع ابن الزبير رضي الله عنهما، فإذا فاتته الصلاة معه وسمع مؤذن الحجاج انطلق فصلى معه، ف قيل له: لِمَ تصلي مع ابن الزبير ومع الحجاج؟ فقال: إذا دعونا إلى الله أجنبناهم، وإذا دعونا إلى الشيطان تركناهم. وكان ينهى ابن الزبير رضي الله عنهما عن طلب الخلافة والتعرض لها.

- لما بنى عروة قصره بالعقيق، وهو موضع بالمدينة لزمه فقيل له: لزمتم القصر وتركتم مسجد رسول الله ﷺ فقال: رأيت مساجدكم لاهية، وأسواقكم لاغية، والفاحشة في فجاجكم عالية مما هنالكم عما أنتم فيه عافية.

وحُكي أن جماعة من السلف مثل مالك وغيره تركوا إجابة الدعوات وعبادة المرضى والجنائز، بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون الا لحاجة وزيارة القبور، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قُلل الجبال؛ تفرغاً للعبادة وفراراً من الشواغل، واختار جماعة من السلف العزلة؛ لمشاهدتهم المنكرات فى الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغيير، وهذا يقتضى لزوم الهجرة.

فى الحكم: ما نفع القلبُ شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة. وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد. وقال أبو الحسن الشاذلي: ثمار العزلة: الظفر بمواهب المنة. وقال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

- وقال بعضهم: قلت لبعض المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لي، قال: لا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لي، قال: لا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لا بد لي من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا، أنتظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلالة الطاعة وقلبك مع الله؟! هيهات... هذا لا يكون أبداً، ثم غاب عني.

- لما قتل الحجاج ابن الزبير رضي الله عنهما صلبه على طريق المدينة؛ ليغيظ به قريش المدينة، فمر به عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فوقف عليه، فقال: السلام عليك أبا خبيب -ثلاث مرات- والله كنت أنهاك عن هذا - ثلاثاً - والله لقد كنت صواماً قواماً وصولاً للرحم، والله لأمة أنت شرها لنعم تلك الأمة. ثم مضى.

- وكان كذلك أيضاً يكره للحسين بن علي رضي الله عنهما الخروج إلى العراق، وأشار عليه بالانصراف إلى المدينة، فأبى إلا مضياً لوجهه، فجرى عليه من القوم ما جرى، حسيبهم الله سبحانه ومكافئهم.

- وقال بعضهم: العزلة عن الناس عزلة الضعفاء؛ والعزلة بين الناس عزلة الأقوياء.

- ومن اختار الخلوة على الصحبة، فينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذكر ربه، وخالياً من جميع الإرادات إلا رضا ربه، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية.

- وقيل: الانفراد في الخلوة أجمع لدواعي السلوة.

- عن الشعبي يحدث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان بماله، فبلغه أن الحسين رضي الله عنه قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام، فإذا معه طوامير وكتب، فقال: هذه كتبهم ويبيعهم. فقال: لا تأتهم. فأبى. فقال: إني محدثك حديثاً، إن جبرائيل أتى النبي صلى الله عليه وسلم

فخير بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنكم بضعة من رسول الله ﷺ، والله لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم. فأبى أن يرجع. قال: فاعتقه ابن عمر رضي الله عنهما وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل.

- وقال بعضهم: وقد جربت على نفسي مراراً أن أحصرها في بيت العزلة، فتجتمع هي، ويضاف إلى ذلك النظر في سير السلف، فأرى العزلة حمية، والنظر في سير القوم دواء، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع. فإذا فسحت لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم تشنت القلب المجتمع، ووقع الذهول عما كنت أراعيه، وانتقش في القلب ما قد رآته العين، وفي الضمير ما تسمعه الأذن، وفي النفس ما تطمع في تحصيله من الدنيا. وإذا جمهور المخالطين أرباب غفلة، والطبع بمجالستهم يسرق من طباعهم.

فإذا عدت أطلب القلب لم أجده، وأروم ذاك الحضور فأفقدته، فيبقى فؤادي في غمار ذلك اللقاء للناس أياماً حتى يسلو الهوى.

- كان طاوس قد جلس في بيته، فقلنا له في ذلك. فقال: فساد الناس، وحيف الأئمة.

- احذر من مخالطة الغافلين والصحبة لهم، فإنَّ صحبتهم سُم قاتل، والجلوس معهم تضییع وبطالة، إلا أن يستولي نورٌ من يصحبهم على ظلمتهم، فيجرهم إلى الله، فهذا جلوسه معهم كمال.

- وقال بعضهم: الوحدة أفضل من الجلوس مع العامة، والجلوس مع الخاصة أفضل من العزلة، إلا مَنْ تحقق تمام إيمانه.

- قالوا لعبد الله بن عروة بن الزبير: ألا تأتي المدينة؟ فقال: ما بقي بالمدينة إلا حاسد لنعمة، أو فرح بنقمة.

- عن شعيب بن حرب قال: دخلت على مالك بن مغول، وهو في داره بالكوفة جالس وحده، فقلت: أما تستوحش في هذه الدار؟ فقال: ما كنت أظن أحداً يستوحش مع الله عز وجل.

- ما أشرف هذه المنزلة، وأعلى هذه الدرجة، وأعظم هذه الموهبة، لا يستوحش مع الله من عمر قلبه بحبه، وأنس بذكره، وألف مناجاته بسرّه، وشغل به عن غيره، فهو مستأنس بالوحدة، مغتبط بالخلوة.

- كتب سفيان الثوري إلى عباد بن عباد رسالة هذا نصها:

من سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد.

سلام عليك.

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله.

فإن اتقيت الله عز وجل كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً. سألت أن أكتب إليك كتاباً أصف فيه خلالاً تصحب بها أهل زمانك، وتؤدي إليهم ما يحق لهم عليك، وتساءل الله عز وجل

الذي لك، وقد سألت عن أمر جسيم، الناظرون فيه اليوم المقيمون به قليل، بل لا أعلم مكان أحد، وكيف استطاع ذلك؟ وقد كدر هذا الزمان، إنه ليشتهب الحق والباطل، ولا ينجو من شره إلا من دعا بدعاء الغريق، فهل تعلم مكان أحد هكذا؟ وكان يقال: يوشك أن يأتي على الناس زمان لا تقرّ فيه عين حكيم، فعليك بتقوى الله عز وجل، والزم العزلة واشتغل بنفسك، واستأنس بكتاب الله عز وجل، واحذر الأمراء، وعليك بالفقراء والمساكين والدينو منهم، فإن استطعت أن تأمر بخير في رفق، فإن قبل منك حمدت الله عز وجل، وإن ردّ عليك أقبلت على نفسك، فإن لك فيها شغلاً.

واحذر المنزلة وحبها؛ فإن الزهد فيها أشد من الزهد في الدنيا.

- وبلغني أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يتعوذون أن يدركوا هذا الزمان، وكان لهم من العلم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركنا على قلة علم وبصر وقلة صبر وقلة أعوان على الخير مع كدر الزمان وفساد من الناس وعليك بالأمر الأول والتمسك به وعليك بالخممول فإن هذا زمان خمول.

- وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس. فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (إياكم والطمع فإن الطمع فقر واليأس غنى)، وفي العزلة راحة من خلاط السوء، وكان سعيد بن المسيب يقول: (العزلة عبادة)، وكان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، والنجاة في تركهم فيما نرى. إلى آخر ما جاء فيها.

- قال ذو النون: وجدت صخرة بيت المقدس عليها أسطر، فجئت بمن ترجمها، فإذا عليها مكتوب: كل عاصٍ مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل.

وقال سهل الوراق:

أَلَا مَا لِدَا النَّاسِ قَدْ بَدَّلُوا
فَهُمْ كَذِبَاتٍ عَلَيْهَا ثِيَابُ
تَوَاطَوْا عَلَى كُلِّ مُسْتَقْبَحٍ
فَمَا لِقَبِيحٍ لَدَيْهِمْ مَعَابُ
وَخَانُوا الْأَمَانَةَ مَا بَيْنَهُمْ
وَهَلْ بِالْأَمَانَةِ تُوفَى الذُّنَابُ

وقال الأضبط بن قريع:

أَذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ وَيُدْفَعُنِي
يَا قَوْمُ مَنْ عَاذِرِي مَنْ الْخُدَعَةُ

وأنشد بعضهم:

مَخَالِطُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا عَلَى خَطَرٍ
وَفِي بَلَاءٍ وَصَفُو شَيْبَ الْكَدَرِ
كِرَاكِبِ الْبَحْرِ إِنْ تَسَلَّمْ حَشَاشَتَهُ
فَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرٍ

- قال أبو سليمان: أنشدني بعض أهل المعرفة:

فإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتَكَ الذُّنُوبُ
فَدَعُهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنَسْ

قال: وأنشدني رجل فاضل من أهل زماننا لنفسه في كلمة له:

وَيَأْنَسُ مِنْ وَحْدَةِ الْعَارِفِ
وَيَوْحِشُ مِنْ وَحْدَةِ الْجَاهِلِ

- قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته، وعدم الفضيلة من نفسه، فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة؛ ليستعين بها على الفكرة، ويتفرغ لاستخراج الحكمة.

وقال قدامة بن إبراهيم الجمحي:

العِزُّ ضَعْفٌ وَمَا لِلْحَزْمِ مِنْ ضَرَرٍ
وَأَحْزَمُ الْحَزْمِ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
لَا تَتْرُكِ الْحَزْمَ فِي أَمْرٍ تَحَازِرُهُ
فَإِنْ أَصَبَتْ فَمَا بِالْحَزْمِ مِنْ بَاسٍ

وقال أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي:

أَشْعِرْنَ قَلْبَكَ يَا سَا
لَيْسَ هَذَا النَّاسُ نَاسًا

قَدْ مَضَى الْإِبْرِيْزُ مِنْهُمْ
وَبَقُوا بَعْدُ نَحَاسًا
سَامِرِيْنَ يَقُوْلُوْ
نَ جَمِيْعًا: مَسَاسَا

وقال آخر:

هَذَا زَمَانٌ لَيْسَ إِخْوَانُهُ
يَا مَعْشَرَ النَّاسِ بِإِخْوَانِ
إِخْوَانٌ سَوْءٌ كُلُّهُمْ فَاسِقٌ
لَهُ لِسَانَانِ وَوَجْهَانِ
يَلْقَاكَ بِالْبَشْرِ وَفِي قَلْبِهِ
دَاءٌ يُوَارِيهِ بِكِتْمَانِ
حَتَّى إِذَا مَا غَبَتَ عَنْ وَجْهِهِ
رَمَاكَ فِي الْغَيْبِ بِبَهْتَانِ
يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ فَكُنْ وَاحِدًا
فَرْدًا وَلَا تَأْنَسْ بِإِنْسَانِ

- وقال بعضهم: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: خذوا بحظكم من العزلة. وقال
ابن سيرين: العزلة عبادة. وقال الفضيل: كفى بالله محباً، وبالقرآن

مؤنساً، وبالموت واعظاً. وقيل: اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً. وقال أبو ربيع الزاهد لداود الطائي: عطني؛ قال: صُمّ عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفرّ من الناس فرارك من الأسد.

وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة؟ - وقد كان لزم البيت - فقال: كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا؛ كنت أجالس الناس، ولا أكلهم. وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت. وقال بعضهم: كنت في سفينة ومعنا شاب، فمكث معنا سبعة لا نسمع له كلاماً؛ فقلنا له: يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع، ولا نراك تخالطنا، ولا تكلمنا، فأنشأ يقول:

قليل الهم لا ولد يموت

ولا أمر يحاذره يفوت

قضى وطرا الصبا وأفاد علماً

فغايته التفرّد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل: تفقه ثم اعتزل، وكذا قال الربيع بن خثيم. وقيل: كان مالك بن أنس يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعطي الإخوان حقوقهم، فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها، وكان يقول: لا يتهياً للمرء أن يخبر كل عذر له. وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرغت لنا؟ فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى.

وقال منصور الفقيه:

الناس بحرٌ عميقٌ... والبعْدُ منهم سفينه
وقد نصحتك فانظر... لنفسك المسكينه

وقال طرفة بن العبد:

كلُّ خليل كنتُ خالته... لا ترك الله له واضحه
كلهم أروغ من ثعلب... ما أشبه الليلة بالبارحه

وقال الفضيل: إني لأجد للرجل عندي يداً: إذا لقيني ألاّ يسلم
علي، وإذا مرضت ألاّ يعودني.

وقال أبو سليمان الداراني: بينما الربيع بن خثيم جالس على باب
داره، إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه، فجعل يمسح الدم، ويقول:
لقد وعظت يا ربيع، فقام ودخل داره، فما جلس بعد ذلك على باب
داره حتى أخرجت جنازته.

- وعن خلف بن تميم قال: جئت أطلب إبراهيم بن أدهم في يوم
مطير، فاطلعت فلم أراه، فأعدت النظر فإذا هو قاعد تحت السرير،
وقد فرّ من الوكف، فلما نظر إليّ قال:

ارض بالله صاحباً وذراً للناس جانباً

قلّب الناس كيف شئت تجدهم عقارباً

واعلم أن دوام العزلة كالبناء، والنظر في سير السلف يرفعه، فإذا
وقعت المخالطة انتقض ما بني في مدة، في لحظة. وصعب التلاقي
وضعف القلب.

- قال ابن السماك: كتب إلينا صاحب لنا: أما بعد، فإن الناس كانوا دواء يتداوى به، فأصبحوا داء لا يقبل الدواء، فضر منهم فرارك من الأسد، واتخذ الله تعالى مؤنساً، والسلام.

وقال يوسف بن إسباط: سمعت سفيان الثوري يقول: والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة.

وقال بشر بن عبد الله: أقلّ من معرفة الناس؛ فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة، فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلاً.

ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم، فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال: ألا تراني، ولا أراك، ولا تعرفني.

- قال علي بن سهل بن المغيرة: سمعت أبي يقول: رأيت شريكاً، وقد خرج من دار المهدي، فاحتوشه أصحاب الحديث، فتقدمت إليه، وقلت له: اطردهم عنك يا أبا عبد الله. قال: وأنطرده معهم.

فالزم خلوتك، وراع - ما بقيت - النفس، وإذا قلقت النفس مشتاقة إلى لقاء الخلق فاعلم أنها بعد كدرة، فرضها ليصير لقاؤهم عندها مكروهاً. ولو كان عندها شغل بالخالق لما أحبت الزحمة، كما أن الذي يخلو بحبيبه لا يؤثر حضور غيره. ولو أنها عشقت طريق اليمن لم تلتفت إلى الشام.

وقال الفضيل: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا تُرى.

جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الورّاق، فلما أراد أن يرجع، قال له:
أوصني. فقال: وجدت خير الدنيا والآخرة في الكثرة والقلّة، وشَرُّهما
في الكثرة والاختلاط.

واعلم أن البعد إنما هو البعد عمّن همته الدنيا، فإن زادهم اليوم
إلى أن يحصل أقرب منه إلى أن يؤثر. ولا تكاد ترى إلا عدواً في
الباطن، صديقاً في الظاهر، شامتاً على الضر، حسوداً على النعمة.

فاشترِ العزلة بما بيعت؛ فإن من له قلب إذا مشى في الأسواق
وعاد إلى منزله تغير قلبه. فكيف إن عرقله بالليل إلى أسباب الدنيا؟
واجتهد في جمع الهم بالبعد عن الخلق؛ ليخلو القلب بالتفكر في
المآب وتتلّمح عين البصيرة خيم الرحيل.

وقال سهل: لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال، ولا يصح أكل الحلال
إلا بأداء حق الله.

وقال مكحول: إن كان في مخالطة الناس خير فإن في العزلة
السلامة. واعلم أن من أراد أن يسلم له دينه، ويستريح بدنه وقلبه،
فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه
الوحدة.

- قال ربيع بن خثيم: تفقه، ثم اعتزل.

وكان يقال: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

وقال ابن وكيع:

فسدَ الناسُ كلُّهم وانقضَى الودُّ
فَمَا فِي الْوَرَى أَخْ ذُو صَفَاءٍ
وَأَرَى طَالِبَ الْفِرَارِ مِنَ النَّا
سِ وَمُزْتَادَ مَرِيْبِهِمْ فِي بَلَاءِ
ذَاكَ بِالْانْقِبَاضِ يَكْسِبُ الْمُقْ
تَ وَيَعْزَى بِهِ إِلَى الْكِبْرِيَاءِ
وَأُخُو الْانْبِسَاطِ يَخْشَى انْقِلَاباً
مَنْ صَدِيقٍ يَضِيعُ حَقُّ الْإِخَاءِ
وَإِذَا مَا الصَّدِيقُ عَادَ عَدَواً
فَهُوَ مُسْتَفْرَةٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ
لَيْسَ هَذَا زَمَانُ قَوْلِكَ: مَا الْحَكْمُ
عَلَى مَنْ يَقُولُ: أَنْتَ حَرَامٌ
وَالْحَقِي بَائِناً بِأَهْلِكَ أَوْ
أَنْتَ عَتِيقٌ مُحَرَّرٌ يَا غُلَامُ
وَمَتَى تَنْكُحُ الْمَصَابَةَ فِي الْعَدِّ
ةً عَنْ شَبْهَةِ وَكَيْفِ الْكَلَامِ
فِي حَرَامِ أَصَابِ سَنِّ غِزَالِ
فَتَوَلَّى وَلِغِزَالِ بَغَامِ

إنّما ذا زمانٌ كدحٍ إلى المو
تٍ وقوتٌ مبلغٍ والسَّلام

قال أبو غسان مالك بن غلام أبي العتاهية: كنت عند أبي العتاهية
قبل موته بثلاثة أيام، وإنه لشديد العلة لما به، فرفع رأسه إلي وقال:
يا أبا غسان!

للهِ درُّ أبيك أيُّ زمانٍ
أصبحتُ فيه وأيُّ أهلِ زمانٍ!
كلُّ يوازُنك المودةَ دائباً
يعطي ويأخذُ منك بالميزانِ
فإذا رأى رجحانَ حبةٍ خردلٍ
مالت مودتُهُ مع الرّجحانِ
في كلِّ يومٍ منه تبدُّ وقصةٌ
تنعي إليك مودةَ الإخوانِ

وقال آخر:

لا تعرفنّ أحداً فلستَ بواجدٍ
أحداً أضّرّ عليك ممّنْ تعرفُ
أمّا نظيرُك فهو حاسدٌ نعمةٍ
أو دونَ ذاك فذو سؤالٍ ملحف

أو فوق ذلك حال دون لقائه
بواب سوء واليفاع المشرف
أنست نفسي بنفسي
فهي في الوحدة أنسي
فسد الناس فأضحى
جنسهم من شر جنس
فلزمت البيت إلا
عند تأذيني لخمسي
وإذا أنست غيري
فأحق الناس نفسي

- قال الأصمعي: سألتني الرشيد عن أعراب البادية وعن أخبارها، فحدثته أنني كنت في مكان يقال له الطخفة، وهي قرية لبني كلاب، رأيت فيها أعرابياً في عنقه طوق ملتبس من فضة، وبيده زكرة، ومعه قدح نبع، فتتبع أثره، فجاء إلى جذم حائط فجمع رميلة، ثم اتكأ عليها وجعل يصب من زكوته نباذة له في قدح النبع ويشربه، ويرجز عليه، فسلمت عليه ووقفت عنده، فقال: إن فيه خلالاً ثلاثاً، إن سمع مني حديثاً لم ينمه علي، وإن تفلت في وجهه احتمل، وإن عربرت عليه لم يغضب. فقال الرشيد: زهدتني في الندماء.

وقال رجل لذي النون المصري: متى تصح لي العزلة؟ فقال: إذا
قويت على عزلة نفسك.

وقيل لابن المبارك: ما دواء القلب؟ فقال: قلة الملاقاة للناس.

وقيل: إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة
آنسه بالوحدة، وأغناه بالقناعة وبصره بعيوب نفسه، فمن أعطي ذلك
فقد أعطي خير الدنيا والآخرة.

وقال أبو العتاهية:

أيا ربَّ إنَّ الناسَ لا ينصفونني

وإنَّ أنا لم أنصفهم ظلموني

وإن كان لي شيءٌ تصدُّوا لأخذه

وإن جئتُ أبغي شيئهم منعوني

وإن نالهم بذلي فلا شكرَ عندهم

وإنَّ أنا لم أبذلْ لهم شتموني

وإن طرقتني نكبةٌ فرحوا بها

وإن صحبتني نعمةٌ حسدوني

سأمنعُ قلبي أن يحنَّ إليهم

وأحجبُ عنهم ناظري وجفوني

- وقال بعضهم، وقد كان لزم المقابر فكان يغدو إليها ويروح ومعه دفتر، فقليل له في ذلك. فقال: لم أر أسلم من وحدة، ولا أوعظ من قبر، ولا جليساً أمتع من دفتر.

لما رأيت الزمان نكساً
وليس بالحكمة انتفاع
كل رئيس له ملال
وكل رأس له صداغ
لزمْتُ بيتي وصنْتُ عِرضاً
به عن الدُّلة امتناع
أشرتُ مما ادخرتُ راحاً
لها على راحتي شعاع
لي من قواريرها ندامى
ومن قواقيزها سماع
وأجتني من عقول قوم
قد أقضرت منهم البقاغ

- لما انصرف أبو موسى الأشعري من الحكمين نزل مكة، فبنى سقيفة من حجارة على فوهة شعب أبي الدب وهناك مقبرة، فقال: أجاور قوماً لا يغدرون. يعني أهل القبور.

واعلم أن بعض الناس أو أكثرهم عجز أن يمنع الناس بحضوره عن الكلام بالفضول، وما لا يعنيههم فأداهم أيضاً هذا الحرج إلى الزهد في الناس، فآثروا العزلة والانقطاع عن الناس باتخاذ الخلوات وغلق بابهم عن قصد الناس إليهم.

قال بعضهم:

إذا اعتزلت فلا تركزن إلى أحدٍ

ولا تعرّج على أهلٍ ولا ولدٍ

ولا توالٍ إذا واليت منزلةً

وغب عن الشرك والتّوحيد بالأحدٍ

وانزع إلى طلب العلياء منضرداً

بغير فكرٍ ولا نفسٍ ولا جسدٍ

واعلم أنه لا يعتزل إلا من عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه، فليس له مشهود إلا الله.

- أمّا نهي النبي ﷺ عن الهجر أكثر من ثلاث، فإن العزلة لا تجري مجراها، ولا تدخل في معناها، إنما المكروه من الهجرة ما يدعوك إليه عتب أو موجدة، وما قصدت به الإيحاش لأخيك، وتعمدت الإضرار به والإخلال بحقوقه، في منع الكلام، ورد التحية والسلام، وليس شيء من هذا يجري على مؤثر العزلة، ومن يميل إلى الإقلال من الخلطة؛ لأنه لا يهمل هذه الحقوق، ولا يقصد بها قصد الجفاء

والعقوق، وقد يحتمل عندي أن يقال: إنه ليس يضير هجران الظالم أكثر من ثلاث إذا لم تؤمن بوائقه، ولا هجران من تريد بهجرك إياه تقويمه واستصلاحه، إذا كان خاصاً بك، أو منقطعاً إليك، أو داخلاً في جملتك، ومن طبقات أهل سياستك، ورُبَّ هجرٍ أشبه وصلًا، والله يعلم المفسد من المصلح.

فما نفع القلب شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة؛ إذ النفع في إيصال الفائدة، والقلب هو القوة المستعدة لقبول العلم، والعزلة انفراد القلب بالله، وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القلب عن الناس، وهو المراد هنا؛ إذ لا ينفرد القلب في الغالب إلا إذا انفرد القلب.

ولا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة؛ لأن العزلة كالحمية والفكرة كالدواء، فلا ينفع الدواء من غير حمية ولا فائدة في الحمية من غير دواء فلا خير في عزلة لا فكرة فيها، ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها؛ إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب والمقصود من التفرغ هو جولان القلب واشتغال الفكرة والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب، وتمكن العلم - بعون الله - من القلب هو دواؤه وغاية صحته، وهو الذي سماه الله القلب السليم، قال الله تعالى في شأن القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. أي: صحيح. وقد قالوا: إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت ولا ينفعها إلا الحمية وهي قلة موادها ومنعها من كثرة الأخلاط. وفي الحديث: المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء.

وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض، وربما مات ولا ينفعه إلا الحمية منها والفرار من مواطنها وهي الخلطة، فإذا اعتزل عن الناس واستعمل الفكرة نجح دواؤه واستقام قلبه، وإلا بقي سقيماً حتى يلقي الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة نسأل الله العافية.

- قال ابن وهب: لا تعد إلا من يعودك، ولا تشهد جنازة من لا يشهد جنازتك، ولا تؤد حق من لا يؤدي حقك، وإن عدلت عن ذلك فاشتر الجور في الكيل.

- مثل هذه المحاسبة إذا كانت من الأئمة وأهل القدوة فإنما يراد بها التأديب والتقويم دون المكافأة والمجازاة، وبعض هذا مما يراد به بعض الناس، ويصلح بذلك من أود أخلاقهم.

وَفِي الْأَرْضِ مَنْجَاةٌ وَفِي الصَّرِمِ رَاحَةٌ

وَفِي النَّاسِ أُنْدَادٌ سِوَاهُ كَثِيرٌ

إِذَا كُنْتُ أَرْضَى مِنَ الدَّهْرِ أَنَّ الْفَقِيرَ

أَنَالَ الْكَفَافَ وَعِيشاً سَدَادًا

فَإِنَّ الْغَنَىَّ وَإِنَّ الْفَقِيرَ

وَإِنَّ الْبَخِيلَ وَإِنَّ الْجَوَادَا

عَلَيَّ سِوَاءٍ فَمَا لِي أَذِلَّ

لِمَنْ لَا يَذِلُّ وَأَعْطِيَ الْقِيَادَا

ومن لم يكن منصفاً في الإخاء
إذا زرت زار وإن عدت عادا
يراني سواء فيعطي السواء
على كل حال وإن زدت زادا
أبيت عليه أشد الإباء
وإن كان أعلى قريش عمادا
وقارضته الفعل وزناً بوزن
وكيلاً بكيل على ما أرادا
ونافقته باقتصار السلام
عليه ولم آل عنه بعادا
وإن هو سار بسيرة حر
جعلت اللسان له والفؤادا
صحب الزمان فإما مقيماً
وإما مضيئاً أجوب البلادا
وأستعرض الناس عرض العيان
وأسأل عن ذا وذاك اعتمادا
فلم أر مثل الرضا صاحباً
أعز وأوطأ منه مهاداً

ومن فارق الصَّبْرَ أعطى القيادَ
وراح يذمُّ إليك العبادا
ومن طلب النُّجَحَ عند الكذوبِ
أطال الركوبَ وأحْفَى الجوادا
وأعيا الكتابَ بردُ الجوابِ
فأفنى قراطيسه والمدادُ
فاعلم أنه قد طالَت في هذا الزمان العِلَّةُ، وطابت العزلة، فليس
في الحركة الآن بركة.
والانقطاع، أربح متاع، والاجتماع جالب الصُّداع. والاختلاط،
محرك الأخلاط. والوحشة استئناس، وأجمع للحواس.
فهو زمان السكوت، وملازمة البيوت، وأوان القناعة بالقوت، وذلك
قوت من لا يموت.

قال معن بن أوس المزني:
إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته
على طرف الهجرانِ إن كان يعقلُ
ويركبُ حدَّ السيفِ من أن تضيّمه
إذا لم يكن عن شفر فالسيفُ مزلحُ
قال مالك بن دينار لراهب: عطني! فقال: إن استطعت أن تجعل
بينك وبين الناس سوراً من حديد فافعل.

وقيل لسقراط: ألا تشاهد الملوك؟ فقال: وجدت الانفراد بالخلوة أجمع لدواعي السلوة.

وقيل لآخر: ما تجد في الخلوة؟ فقال: الراحة من مداراة الناس، والسلامة من شرهم.

- قال مالك بن الربيع:

فإن تنصّفونا يال مروانَ نقترب
إليكم وإلا فأذنّوا ببعاد
فإنّ لنا عنكم مراحاً ومزحلاً
بعيس إلى ريح الفلاة صوادي
ففي الأرض عن دار المذلة مذهب
وكل بلادٍ أوطنت كبلادي

وقيل: العزلة توفر العرض وتستتر الفاقة وترفع ثقل المكافأة.

وقيل: ما احتك أحد قط إلا أحب الخلوة.

وقيل: توحّد ما أمكنك، فمن وطئته الأعين وطئته الأرجل.

وقال حكيم: العاقل مستوحش من زمانه منفرد عن إخوانه.

وقيل: استوحش من الناس كما تستوحش من السبع.

وقال الجنيد: دخلت على السري، فقلت: أوصني، فقال: لا تكن

مصاحباً للأشرار، ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأخيار.

وقيل لذي النون رحمه الله: متى أقوى على عزلة الأخيار؟ فقال:
إذا قويت على عزلة النفس.

قيل له: ومتى يصح الزهد؟ قال: إذا كنت زاهداً في نفسك هارباً
من جميع ما يشغلك.

- وقال: وبلغني عن ابن شبرمة أنه رأى من صديق له انقباضاً،
فكتب إليه:

كَلَانَا غِنًى عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ
وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدَّ تَغَانِيَا

وقد قيل: إن كان الفضل في الجماعة، فإن السلامة في العزلة.
- قال أحد السلف: لو لم يكن في العزلة أكثر من أنك لا تجد
أعواناً على الغيبة لكفى.

دخل عبيد بن شبرمة على معاوية، وقد أتت عليه مئتان وعشرون
سنة، فقال له: يا عبيد، ما شهدت من الزمان وما أدركت؟ فقال:
أدركت الناس يقولون: ذهب الناس فلا مرتع ولا مفزع. وقيل: ما بقي
من الناس إلا كلب نابح أو حمار رامح أو أخ فاضح.

وكانت عائشة تتشد قول لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ
وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

فقال ابن عباس: لئن شكت في زمانها فقد شكت قوم عاد في زمانهم؛ إذ قد وجدوا في خزائنهم سهماً مكتوباً عليه:

بِلَادُ بِهَا كُنَّا وَنَحْنُ نَحِبُّهَا

إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالْبِلَادُ بِلَادٌ

- وما أحد جالس الناس في هذا الزمان وعاشرهم إلا قلت سلامته من الغيبة، فإن من شأنهم اليوم أن يقع بعضهم في بعض، وأن يشبع بعضهم بعضاً، وأن يتمضمضوا بذكر الأعراض، ويتفكهوا بها، ويتنقلوا بحلاوتها، فإما أن يساعدهم جليسه على إثم وترك مروءة، وإما أن يخالفهم عن قلى وشنآن، فمجالستهم داء يعدي، يضر ولا يجدي.

وقال عدي بن حاتم لمعاوية: معروفك الذي نعهده اليوم منكراً معروفاً زمان لم يأت.

وعن أبي صالح في قول الله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾. أي: بسراة الناس.

- قال: ولو لم يكن في العزلة إلا السلامة من آفة الرياء، والتصنع للناس، وما يدفع إليه الإنسان إذا كان فيهم من استعمل المداينة معهم، وخداع المواربة في رضاهم، لكان في ذلك ما يرغب في العزلة ويحرك إليها، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

حدث الرياشي قال: قيل لأحد الخلفاء: إن حاتمًا الأصم قد اعتزل الناس في قبة منذ ثلاثين سنة لا يحتاج إلى الناس في شيء من أمور الدنيا ولا يكلمهم إلا عند مسألة لا بد له من الجواب، لعله قد أورثته ذلك الوحدة، وقيل: إنه عاقل. فقال: سأمتحنه. فندب له أربعة: محمد بن الحسن والكسائي وعمرو بن بحر والأصمعي، فجاءوا حتى وقفوا تحت قبته ونادى أحدهم: يا حاتم، يا حاتم، فلم يجبههم حتى قيل: بحق الله إلا أجبنا.

فأخرج رأسه وقال: يا أهل الحيرة، لم خصصتموني؟ ولكن الحق جرى على ألسنتكم؛ لأنكم اشتغلتم بعبادة الخليفة عن طاعة الله، فقال أحدهم: ما علمك بأننا خدام الخليفة؟ قال: من لم يرض من الدنيا إلا بمثل حالكم فلا يزل عن مطلبه إلى قصد من لا يخبره، ولا يد علي من الخليفة وأشباهه. فقال له عمرو بن بحر: لم اعتزلت الناس وفيهم من تعلم وفيهم من يقدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: صدقت، ولكن بينهم سلاطين الجور يفتنوننا عن ديننا، فالتخلي منهم أولى، قال: فعلاّم وطنت نفسك في العزلة وثبت عليه أمرك؟ قال: علمت أن القليل من الرزق يكفيني فأقللت الحركة في طلبه، وأن فرضي لا يقبل إلا مني، فأنا مشغول بأدائه، وأن أجلي لا بد يأتيني فأنا منتظر له، وأنا لا أغيب عن عين من خلقتني، فأستحيي منه أن يراني، وأنا مشغول بغير ما وجب له. ثم رد باب القبة وحلف ألا يكلمهم، فرجعوا إلى الخليفة، وقد حكموا أنه أعقل أهل زمانه.

- من أحب السلامة من هذه الخلّة فليقلّ من مخالطة الناس، وليحذر مداخلتهم والتوسط في أمورهم، فإنه إذا مني بذلك وابتلي بشيء منه لم يسلم أن يلقي هذا بوجه وصاحبه بوجه، آخر؛ ولئن خالف هذه الطريقة أوشك أن يشنأه الناس ويتخذوه عدواً.

- وفي العزلة السلامة من المآثم في المنكر يراه الإنسان فلا يغيره، والأمان من غوائل أهله ومن عاداتهم إذا غيّر، فقد أبى أكثر أهل هذا الزمان قبول النصائح، ونصبوا العداوة لمن دعاهم إلى هدى، أو نهاهم عن ردى، فلو لم يكن في الوحدة والتباعد منهم إلا السلامة من إثم المداينة، وخطر المكافحة؛ لكان في ذلك الربح الرابع، والغنيمة الباردة.

- كان الفضيل بن عياض يقول: من خالط الناس لم يسلم من أحد اثنين: إما أن يخوض معهم إذا خاضوا في الباطل، أو يسكت إن رأى منكراً فيأثم. وقد جمع رسول الله ﷺ في الوعيد، وسوى في العقوبة بين من أتى المنكر، وبين من رآه فلا يغيره ولا يأباه.

كتب أبو نصر إلى بشر بن الحارث:

إلى أبي الحسن علي بن خشرم: السلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني أسأل الله أن يتم ما بنا وبكم من نعمة، وأن يرزقنا وإياكم الشكر على إحسانه، وأن يميّتنا ويحيينا وإياكم على الإسلام، وأن يسلم لنا ولكم خلفاً من تلف، وعوضاً من كل رزية.

أوصيك بتقوى الله يا علي، ولزوم أمره والتمسك بكتابه، ثم اتباع آثار القوم الذين سبقونا بالإيمان وسهلوا لنا السبل، فاجعلهم نصب عينيك، وأكثر عرض حالاتهم عليك تأنس بهم في الخلاء، ويغنوك عن مشاهدة الملأ، فمثل حالهم كأنك تشاهدهم، فمجالسة أصحاب النبي ﷺ أوفق من مجالسة الموتى ومن يرقب منك زلتك وسقطك إن قدر عليها، فإن لم يقدر عليها جعل جليساً أن رآه عندك عيبك، فرماك بما لم يره الله منك، واعلم - علمك الله الخير وجعلك من أهله - أن أكثر عمرك فيما أرى قد انقضى، ومن يرضى حاله قد مضى، وأنت لاحق بهم، وأنت مطلوب ولا تعجز طالبك، وأنت أسير في يديه، وكل الخلق في كبريائه صغير، وكلهم إليه فقير، فلا يشغلنك كثرة من يحبك، وتضرع إليه تضرع ذليل إلى عزيز، وفقير إلى غني، وأسير لا يجد ملجأ ولا مفراً يفر إليه، وخائف مما قدمت يداها، غير واثق على ما يقدم، لا يقطع الرجاء، ولا يدع الدعاء، ولا يأمن من الفتن والبلاء، فلعله إن رآك كذلك عطف عليك بفضله، وأمدك بمعونته، وبلغ بك ما تأمله من عفوه ورحمته، فافزع إليه في نوائبك، واستعنه على ما ضعفت عنه قوتك، فإنك إذا فعلت ذلك قريبك بخضوعك له، ووجدته أسرع إليك من أبويك، وأقرب إليك من نفسك، وبالله التوفيق، وإياه أسأل خير المواهب لنا ولك.

واعلم يا علي، أنه من ابتلي بالشهرة ومعرفة الناس فمصيبتة جلية، فجبرها الله لنا ولك بالخضوع والاستكانة والذل لعظمته،

وكفانا وإياك فتنتها وشر عاقبتها؛ فإنه تولى ذلك من أوليائه ومن أراد توفيقه، وارجع إلى أقرب الأمرين بك، إلى إرضاء ربك، ولا ترجعن بقلبك إلى محمدة أهل زمانك ولا ذمهم؛ فإن من كان يتقى ذلك منه قد مات، وإنارة إحياء القلوب من صالح أهل زمانك، وإنما أنت في محل موتى ومقابر أحياء ماتوا عن الآخرة، ودرست عن طرقها آثارهم، هؤلاء أهل زمانك، فتوَارَ مما لا يستضاء فيها بنور الله، ولا يستعمل فيها كتابه إلا من عصم الله، ولا تبالٍ من تركك منهم، ولا تأسَ على فقدهم.

واعلم أن حظك في بعدهم أوفر من حظك في قريبهم، وحسبك الله فاتخذة أنيسًا؛ ففيه الخلف منهم، فاحذر أهل زمانك، وما العيش مع من يظن به في زمانك الخير، ولا مع من يسيء به الظن خير، وما ينبغي أن يكون طلعة أبغض إلى عاقل تهمة نفسه من طلعة إنسان في زمانك؛ لأنك منه على شرف فتنة إن جالسته، ولا تأمن البلاء إن جانبته.

وللموت في العزلة خير من الحياة، وإن ظن رجل أن ينجو من الشر ويأمن من خوف فتنة فلا نجاة له. إن أمكنتهم من نفسك آثموك، وإن جانبتهم أشركوك، فاختر لنفسك واكره لها ملابتهم.

وأرى أن الفضل اليوم ما هو إلا في العزلة؛ لأن السلامة فيها، وكفى بالسلامة فضلًا.

فاجعل أذنك عما يؤثمك صماء، وعينك عمياء، واحذر سوء الظن؛ فقد حذرك الله تعالى ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. والسلام.

- وفي العزلة السلامة من آفات النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها، والاستحسان لما ذمه الله تعالى من زخرفتها وعابه من زبرجد غرورها، وفيها منع النفس من التطلع إليها والاستشراف لها، ومن محاكاة أهلها ومنافستهم عليها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

- وقد قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم».

- قال الحسن: إياكم ومجالسة أهل البسطة، فإن مجالستهم مسخطة للرزق.

- قال عون بن عبد الله: كنت أجالس الأغنياء، فلا أزال مغموماً، كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي، ودابة أفره من دابتي، فجالست الفقراء، فاسترحت.

- ومن فوائد العزلة أنها خالعة عنك ربة ذل الآمال، وقاطعة رق الأطماع، ومعيدة عز اليأس من الناس، فإن من صحبهم وكان فيهم ومعهم لم يكذب يخلو من أن يحدث نفسه بنوع من الطمع فيهم، إما في مال أو جاه، والطمع فقر حاضر، وذلل صاغر، وفي الأثر: «الغنى اليأس عما في أيدي الناس، ومن مشى منكم إلى طمع فليمش رويداً».

تكلّفني إذلالَ نفسي لعزّها

وهانَ عليها أنْ أهانَ فتُكرّما

تقولُ: سلِ المعروفَ يحيى بنَ أكثما

فقلتُ: سليه ربّ يحيى بنَ أكثما

- ولو لم يربح الإنسان في العزلة والتخلي عن الناس وعن مساوئهم، والانقطاع عن محاورتهم إلا ما يكفيه من فضل مؤونة التحرز منهم، وما يستفيده من الأمان أن يرفعوا عليه قولاً يسمعونهُ يتكلم به في حال غفلة واسترسال، أو يتأولوا عليه كلاماً لا يبلغ عقولهم كنهه، فيوجهوه إلى غير جهته، وينحلوه غير صفته، لكان فيه كفاية كافية وعصمة واقية.

أخض الصوت إن نطقت بليل

والتفت بالنهار قبل المقال

ليس في القول رجعة حين يبدو

بقبيح يكون أو بجمال

- صاحب العزلة في أمان من هذا الوجل، وفي حصن من متبّع العثرات.

- قال ذو الرمة:

أحبُّ المكانَ القفرَ من أجل أنني

به أتغنى باسمها غير معجم

- انجُ برأسك، ولا تفرر بنفسك؛ إن رضا الناس غاية لا تدرك،
 قد أعيأ الأولين دواؤها، وانقطعت فيها حيلهم، فما حاجتك إلى عناء
 لا غناء له، وتعب لا نجاح فيه، وما رأيك بصحبة قوم لا تستفيد
 بلقياهم علماً، ولا بمشهدهم جمالاً، ولا بمعونتهم مالاً، إذا تأملتهم
 حقاً وجدتهم إخوان العلانية أعداء السريرة، إذا لقوك تملقوك، وإذا
 غبت عنهم شغبوك، ومن أتاك منهم كان عليك رقيباً، ومن خرج قام
 بك خطيباً، أهل نفاق وخديعة، وأصحاب نقل ونميمة، وإخوان بهت
 وعظيمة، لا يفرنك ما ترى من احتشادهم عندك وازدحامهم عليك،
 ولا تتوهم أن بهم تعظيماً لعلمك أو تقديماً لحقك، إن أعظم ما
 يقودهم اليوم إلى مجالس العلماء، ويحشرهم إلى أبوابهم الرغبة
 في جعلهم منالاً لآربهم، وسلاماً إلى أوطارهم، وحميراً لحاجاتهم،
 فهم المساكين بين شرّين منهم ومن تكاليفهم: إن أسعفوهم ببعضها
 أضجروهم بكثرة توابعها وأذوهم، وإن امتنعوا عليهم فيها شنعوههم
 وعادوهم، ثم إنهم على ذلك يلزمونهم بدالة المعرفة أن يهدفوا لهم
 أغراضهم، فيخاصموا عنهم من خاصمهم، ويعادوا من عاداهم،
 وينازلوا من نازلهم، فيصيرون من حيث قدروا أنهم فقهاء سفهاء،
 ومن حيث ظنوا أنهم متبوعون رؤساء، أتباعاً أخساء، فمن أخسر
 صفقة وأشد بلية من هؤلاء معهم؟ أليس الفرار منهم حقاً واجباً،
 والتخلص من بينهم غنماً؟!



اعتزال العامة مروءة تامة

ولو لم يكن في العزلة إلا السلامة من صحبة العامة، والراحة من تعب مجالستهم، ومصابرة أخلاقهم، وما يستفيد الإنسان بمفارقتهم، ويكفاه من مؤونة تقويمهم، ويأمنه من غوائلهم في صدقهم عن أنفسهم، وإمحاض النصيحة لهم - فإن الحق كما قيل مغضبة، وبعض النصيح للعداوة مكسبة - لكان في ذلك راحة مريحة، وقد قلّ من يعرف، وأقل منه من ينصف.

- ومن مناقب العزلة أنها تحسم عنك أوهام المتجنين، وتقطع مواد شكايات المتجرمين؛ وذلك أن طباع الناس متفاوتة متعادية، وهمهم مختلفة، ووساوس صدورهم كثيرة، وإن سوء ضمائرهم يصور لهم، ويوحى إلى قلوبهم أن اجتماع كل طائفة من الناس، وتناجي كل شرذمة منهم، إنما هو في التنفير عنهم، والبحث عن عيوبهم، أو في تبييت رأي ودسيس غائلة عليهم، ويغلب هذا الظن خصوصاً على من يحس من نفسه بتهمة، ويعرف عند الناس بريية، وقد وصف الله عز وجل المنافقين بذلك، فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاَحْذَرُهمْ فَنُلَهِمُ اللهَ اَنَّهُ يُوَفِّكُوْنَ﴾. وما أحسن قول المتبني في أهل هذه الصفة حين يقول:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ

وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عدائه

وأصبح في ليل من الشك مُظلم

- معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار، فمن اعتزل الناس وانقطع عن مجالستهم، فقد أحسن في هذا الباب الدفاع عن نفسه، واستظهر بالاحتياط في طلب السلامة لها.

ولا بد للعالم - في ابتداء حاله - من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته لا بد له من الخلوة؛ لتحقيقه بأنسه.

ومن حق العبد - إذا أثر العزلة - أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق، فإن الأول من القسمين نتيجة استصغار نفسه، والثاني شهود مزيته على الخلق. ومن استصغر نفسه فهو متواضع، ومن رأى لنفسه منزلة على أحد فهو متكبر.

- ومما يقطع بها عنك مواد الشكايات أنك إذا عرفت بها لم تستبطئ في حق إذا فاتك من عيادة، أو شهود جنازة، أو حضور إملاك أو وليمة أو نحوها، فإن الناس إذا فقدوك عذروك، وإذا وجدوك عذلوك واستقصوك، وقد تكون للإنسان في بعض الأوقات أعذار لا تفصح بها الأخبار.

- وفي العزلة السلامة من التبذل لعوام الناس وحواشيهم، والتصون عن ذلة الامتهان منهم، وأمان الملل عند الصديق، واستحداث الكراهية عند اللقاء؛ فإن كل موجود مملول، وكل ممنوع مطلوب.

- قال أبو تمام:

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مخلُقٍ
لديباجيهِ فاغترِبْ تتجددِ
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدَتْ محبةً
إلى النَّاسِ أنْ لَيْسَتْ عليهمَ بسرمدِ

- والعزلة تستر الفاقة، وتكشف جلاباب التجميل، فلا يُظهر على عورة إن كانت وراءه تسوء صديقاً أو تشمت عدواً، فإن التجميل من شيم الأحرار، وشمائل ذوي الهمم والأخطار، وقد وصف الله تعالى به الأبرار من عباده، فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

- والعزلة معينة لمن أراد نظراً في علم، أو إثارة لدفين رأي، أو استنباطاً لحكمة؛ لأن شيئاً منها لا يجيء إلا مع خلاء الذرع وفراغ القلب، ومخالطة الناس ملهاة ومشغلة.

والعزلة توفر العرض، وترفع ثقل المكافأة.

وقيل: خلق القلب طاهراً في الأصل، فلما خالطته شهوات الحسن تكدر، وفي العزلة يرسب الكدر.

- ومحمد بن الحسن لما أخذ في تصنيف «الجامع الكبير» خلا في سرداب، وأمر أهله أن يراعوا وقت غدائه ووضوئه، فيقدموا إليه حاجته منهما، وأن يؤخذ من شعره إذا طال، وأن ينظف ثوبه إذا

اتسخ، وألا يوردوا عليه شيئاً يشتغل به خاطره، وأقام على ماله وكيلاً، وفوض إليه أمره، ثم أقبل على تصنيف الكتاب ولم يشعر إلا برجل ينزل إليه بشيء، حتى وقف بين يديه فأنكره، فقال له: من أنت؟ قال: أنا صاحب الدار. قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنني قد ابتعت هذه الدار من فلان -يعني وكيله- وكان وكله إياه عن تفويض، فاحتاج إلى الانتقال.

- قال مجنون ليلي:

وَأَنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ
لَعَلَّ خَيْالاً مِنْكَ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأُخْرِجُ مَنْ بَيْنِ الْجُلُوسِ لَعْنَتِي
أَحْدِثُ عَنْكَ النَّفْسَ بِالسَّرِّ خَالِيَا

وقال بعضهم: يا هذا، اخلُ بنفسك في بيت الفكر، واعذلها في الهوى؛ فإن لم تلن فاخرج بها على عسكر المقابر، فإن لم ترعو فاضربها بسوط الجوع.

يا هذا، العزلة تجمع الهمم، والمخالطة نهابة، الهوى مرضع كثير التخليط، فهذا طفل قلبك كثير المرض، عجّل فطامه.

وقد صح: العزلة والقناعة والصبر والعفة والتواضع عقاير كيمياء النجاة يبلغن بمستعملهن مرتبة الغنى، والحرص والشره والغضب والعجب والكبر كلهم مجانين في مارستان العقل، وهو القيم عليهم، فلتحذر الغفلة عنهم؛ فإنه إن أفلت مجنون حلّ الباقيين.

- عن مسروق قال: المرء حقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، فيذكر ذنوبه ويستغفر منها.

قال بشر بن الحارث: حب لقاء الناس حب الدنيا، وترك لقاء الناس ترك الدنيا. وقال: لا أعلم رجلاً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه واقتضح. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

- وفي العزلة السلامة من صحبة الثقيل ومؤنة النظر إليه، فإن ذلك هو العمى الأصغر.

- قيل للأعمش: ممّ عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. حصن السلامة العزلة، أقل ما في الخروج منه من الأذى مصادمة الهواء المختلف المهيب في بادية الشهوات، وقد عقبته جنوب المجانية للصواب فصار وباء، وإياك أن تتعرض لهواء الوبي مغترّاً بصحة مزاجك، فإنك إن سلمت من فضول الفتن من التلف لم تأمن زكمة، ومتى تمكنت زكمة الهمة لم تشم الفضائل.

- وقال الأعمش: قال جالينوس: لكل شيء حمى، وحمى الروح النظر إلى الثقيل.

وقال بعض الحكماء: شرف المعاد من ثلاث: احتمال الشدائد وإذلال النفس وكراهة المعرفة. ومعنى كراهة المعرفة: أن يكره أن يُعرف في الناس، ولا يبتغي الناس، إنما استئناسه بذكر الله في الخلوة ومع الناس.

وقال: غنيمة الآخرة في ثلاثة أشياء: الطاعة والبر والعصيان، طاعة الرب وبر الوالدين وعصيان الشيطان.

- عن ابن سيرين قال: سمعت رجلاً يقول: نظرت إلى ثقل مرة فغشي عليّ.

إذا رُزقت يقظة فسنها في بيت عزلة؛ فإن أيدي المعاشرة نهابة، واحذر معاشرة الجهال؛ فإن الطبع لص، ولا تصادقن فاسقاً؛ فإن من خان أول منعم عليه لم يف لك.

يا أفراخ التوبة، لازموا أوكار الخلوة؛ فإن هرّ الهوى صيود، وإياك والتقرب من طرف الوكر والخروج من بيت العزلة؛ حتى يتكامل نبات الخوافي، وإلا كنت رزق الصائد، الأنس بالأنس ربق، والمخالطة توجب التخليط، وأيسر تأثيرها تشتيت الهم.

أقل ما في سقوط الذنب في غنم

إن لم يصب بعضها أن ينفر الغنم

- وفي العزلة الأمان من دواهي الكنف الشارعة، والمتاعب السائلة؛ فإن جنايتها عند أهلها جناية لا أرش لها، ودماء قتلها مطلولة لا عقل ولا قود فيها، فكلما قلّ بروز الإنسان إليها وعبوره عليها كان أوفر لمروءته، وأبقى لنظافته، وأبعد له من أذاها وغائلتها، وأسلم له من دائها وعاديتها.

لولا أُميمة لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْعَدْلِ
وَلَمْ أَجُبْ فِي اللَّيَالِي حَنْدَسَ الظُّلَمِ
وَزَادَنِي حَذراً لِلْمَوْتِ مَعْرِفَتِي
ذَلَّ الْيَتِيمَةَ يَجْفُوهَا ذُوو الرِّحْمِ
تَهَوَّى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا، شَفَقًا
وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ

قطع العلائق أصل الأصول، فرغ لي بيتاً أسكنه، إن الطائر إذا
كان زاقاً لم يرسل في كتاب، تأملوا إلى الفرس إذا قدم إلى الماء
الصافي كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدر، أتدرون لِمَ؟ لأنه يرى
صورة نفسه في الماء الصافي وصورة غيره فيكدره؛ حتى لا تتبين فيه
الصور، فيتهنى بالشرب، لا يظهر في خلوة المتيقظ إلا الحق.

وقد كان أويس يهرب من الناس، فيقولون: مجنون.

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حَباً
بَنَاتِي إِنْهَنَ مِنَ الضُّعَافِ
مَخَافَةً أَنْ يَذْقَنَ الْفَقْرَ بَعْدِي
وَأَنْ يَشْرِبْنَ رَنْقاً بَعْدَ صَافٍ
وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كَسِيَ الْجَوَارِي
فَتَنْبُؤِ الْعَيْنُ عَنْ كَوْمِ عَجَافٍ

وقال بعض الزهاد: لو أن الدنيا ملئت سباعاً ما خفتها، ولو بقي واحد من الناس لخفته.

وقالوا: استعذ من شرار الناس، وكن من خيارهم على حذر.

وقال سلمان: الناس أربعة أصناف: آساد وذئاب وثعالب وضأن، فالآساد الملوك والذئاب التجار والثعالب القراء المخادعون والضأن المؤمن ينهشه كل من يراه.

وقال بعض الحكماء: احذروا الناس، فما ركبوا سنام بغير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه.

وقال خالد بن صفوان: الناس أجياف، فمنهم كالكلب لا تراه الدهر إلا هراً على الناس، ومنهم كالقرد يضحك من نفسه.

واني لأهوى وهو يغتال مدتي

مرور الليالي كي يشب حكيماً

مخافة أن يغتالني الموت دونه

فيغشى بيوت الحي وهو يتيماً

- كان بين عمار بن ياسر وبين رجل كلام في المسجد، فقال عمار: أسأل الله تعالى إن كنت كاذباً ألا يميئك حتى يكثر مالك وولدك، ويوطأ عقبك.

قال بعض الحكماء: الفارس في الدين من كان فيه ثلاث خصال: حفظ لسانه، وإمساك عنانه، وصدق بيانه. حفظ لسانه فلا يتكلم إلا

بما له، وإمساك عنانه هو في حلبة الأعمال، فيمسك عنان إرادته إذا كان لغير الله، ويرسله إذا كان لله. وصدق بيانه إذا علم شيئاً عمل به. وثلاثة من السعادة: مقلة دامعة، وعنق خاضعة، وأذن سامعة.

ولا يجد حلاوة العبادة إلا من فيه ثلاث خصال: أن يستأثر الرحلة ويستلذ العزلة ويترقب النقلة، فالرحلة الإقلال، والعزلة الوحدة، والنقلة الرحلة إلى القبر.

وأغبط الناس من سلك طريق آخرته، وأصلح شأن عاقبته، واجتهد في فكاك رقبتة.

- كان داود النبي ﷺ يقول: اللهم، إني أعوذ بك من جار السوء، ومن مالٍ يكون علي عذاباً، ومن ولدٍ يكون علي وبالاً، ومن زوجةٍ تشيبني قبل المشيب، ومن خليلٍ مكر؛ عينه ترعاني وقلبه يشنؤني؛ إن رأى خيراً أخفاه، وإن رأى شراً أفشاه.

وقال عبد الحميد الكاتب: الناس أجياف مختلفون وأطوار متباينون؛ فمنهم من علق مظنة لا تباع، ومنهم من غلّ مظنة لا تبتاع.

وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلّ من معرفة الناس، وأنكر من عرفت منهم، وإن كان لك مئة صديق فاطرح منهم تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر.

وقال بعض البلغاء: بلوت الناس طراً فلم أجد إلا من يرى الحق باطلاً والباطل حقاً واللئيم مرفوعاً والكريم ملقى والنصح غشاً والغش نصحاً والمدح هجاء والهجاء مدحاً.

وقال حكيم: مصاحبة الناس خطر، فمن صبر على صحبتهم فقد بالغ في العذر إنما هو كراكب بحر إن سلم بدنه من الغرق فلم يسلم قلبه من الفرق.

وقال شاعر:

تجنّب قرينَ السوءِ واصرمْ حباله
وإن لم تجدْ عنه محيصاً فداره
ومن يطلب المعروفَ في غير أهله
تجدّه وراءَ الحبرِ أو في قراره

وصف بعض البلغاء أهل زمانه فقال: أحظى الناس لديهم من أحسن إليهم، فإن قصر عنهم رفضوه وأبغضوه ووتروه ولم يعذروه، إن حضروا داهنوا، وإن غابوا شاحنوا، ينطوون على الإحن، ولا يرتوون للممتحن، غنيهم شحيح، وفقيرهم مجيح، إن رأوا خيراً دفنوه، وإن ظنوا شراً أعلنوه، الواثق منهم على غرر، والمتمسك بهم على خطر، هم بين طاعن ثالث ومتقوّل كاذب وحسود موارب، إن اختبرتهم تكشفوا، وإن اعتبرتهم تزيفوا.

كتب سفيان الثوري إلى عباد بن عباد: أما بعد، فإنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون أن يدركوه فيما بلغنا، ولهم من العزم ما ليس لنا ولا لك، ولهم من العلم ما ليس لنا ولا لك. فكيف بنا وقد أدركناه على قلة علم وبصر، وقلة أعوان على الخير، وكدر من الدنيا، وفساد من الناس؟

فعليك بالعزلة وقلة مخالطتهم؛ فإن عمر رضي الله عنه يقول: إياكم والطمع؛ فإنه فقر حاضر، وإن اليأس غنى، وفي العزلة راحة من خليط السوء.

وكان سعيد بن المسيب يقول: العزلة عبادة. وكان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، والنجاة في تركهم فيما ترى. وإياك والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء. وإياك أن تخدع، فيقال: ذلك رجل تشفع فيه ترده عن مظلوم أو ترده عن مظلومة، وإنما ذلك خديعة إبليس اتخذها فخاً.

وكان يقال: اتقوا فتنة العابد وفتنة العالم؛ فإن فيهما فتنة لكل أحد. إياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله، أو يسمع من قوله، فإذا لم تزل كذلك فقد عرفت. وإياك وحب الرياسة؛ فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهذا باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء.

واعمل بنية؛ فإن الحسن رحمه الله كان يقول: رحم الله عبداً وقف عند همه، فإنه ما من عبد يعمل حتى يهم، فإن كان له مضى، وإن كان عليه أمسك، فإن النية ليست كل ساعة تقع.

وإن طاوس قيل له: ادع لنا بدعوات، فقال: ما أجد الآن لذلك نية. وكان حذيفة رضي الله عنه يقول: يأتي على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بمثل دعاء الغريق.

وسئل حذيفة رضي الله عنه عن أي الفتن أشد؟ فقال: أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تترك.

وقال حذيفة رضي الله عنه: لا يأتيهم أمر يضحكون منه إلا ردف أمر يشغلهم عن ذلك.

فليكن الموت من شأنك وبالك، وأقلّ الأمل، وأكثر ذكر الموت؛ فإنكم إذا ذكرتموه في قليل كثرة. واعلم أنه قد دنا من الناس أمور، وحضرت أمور يشتهي لها الرجل الموت، والسلام.

- كان رجل من أهل البصرة، وكانت له تجارة، وكان له عقل، فأراد الله به خيراً فترك التجارة، وأقبل على العبادة، فكان يسمع الناس يقولون: مالك بن دينار. فقال: والله لأذهبن إلى مالك هذا الذي شُغف الناس به، فلأنظرن ما عمله، قال: فأتيته، فإذا هو جالس وحوله قوم يقرؤون القرآن، فجلست في جانب المسجد حتى تفرقوا، وجاء قوم آخرون، فسمعوا الحديث، وسمعوا الزهد والكلام، فلما

تفرقوا قام فصلى ركعتين أو أربعاً، ثم خرج وتبعته. فقال لي: ألك حاجة؟ قلت: نعم. أردت أن أجيء معك إلى بيتك. قال: سرّ. فذهبت معه فأدخلني إلى حجرة نظيفة، وظل بارد رطب، وبيت نظيف، وفيه بدري ودورق، ومطهرة وجلة فيها كسر. فقلت: يا مالك، ألك امرأة؟ قال: أعوذ بالله. قلت: يا مالك، ألك ولد؟ قال: أعوذ بالله. قلت: يا مالك، ألك تجارة؟ قال: أعوذ بالله. قلت: يا مالك، أعليك دين؟ قال: أعوذ بالله. قلت: يا مالك، يزعم الناس، أنك أزهد الناس وأنت خديم ناعم؟ قال: فشقق شهقة.

وقال بعض الحكماء: لم أجد السرور إلا في ثلاث خصال: التعم بذكر الله، واليأس من عباد الله، والطمأنينة إلى موعود الله، يعني الرزق.

وقال: المصيب من عمل ثلاثة أشياء: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى ربه قبل أن يلقاه.

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

- وعنه عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس كإبل مئة ليس فيها راحلة».

وقال بعضهم: عجت لثلاث وفرحت لثلاث واغتممت لثلاث: فالتى عجت منها فتنة العالم وسرور الإنسان بما أصاب من الدنيا وهو تراث من تقدمه وتراث من يخلفه، يسلبه ثم يؤخذ بحسابه،

ومن رتع في أفواه أمانيه في مراتع الموت. وفرحت لثلاث: إظهار الله آدم على إبليس وهذا مع الملائكة وهذا بشر، وإخراجه إيانا في هذه الأمة، والخصلة الثالثة وهي أشرف الثلاث معرفة الله تعالى. واغتمت لثلاث: لذنوب أسلفتها، وأيام ضيعتها، والخصلة الثالثة وفيها الخطر العظيم وقوفي بين يدي الله عز وجل لا أدري ما يبدو لي منه، وذلك المقام الشديد يتوقع فيه المحاسب بماذا يَخْتِم أياماً ضيعها، يعني في الغفلة وترك الاستعداد.

- وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: إذا كثر الأخلاء كثر الغرماء.

وقال بعضهم: وأما السبب الذي يوجب الاعتزال عن العالم كافة فهو ما عرفتهم به من وجود ذفن الخير، ونشر الشر، يدفنون الحسنة، ويظهرون السيئة. فإن كان المرء عالماً بدعوه، وإن كان جاهلاً بغيره، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونهم حقره، وإن نطق قالوا: مهذار، وإن سكت قالوا: عيى، وإن قدر قالوا: مُقْتَر، وإن سمح قالوا: مبذر، فالنادم في العواقب المحطوط عن المراتب من اغتر بقوم هذا نعتهم، وغرّه ناس هذه صفتهم.

- وعن الناشي قال: الاستكثار من الإخوان وسيلة الهجران. يريد أنهم إذا كثروا كثرت حقوقهم، فلم يسعهم بُرك، فإذا تأخرت عنهم حقوقهم استبطؤوك فهجروك وعادوك.

- قال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أول ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب

- قال سفيان الثوري: كثرة أصدقاء المرء من سخافة دينه. يريد أنه ما لم يداهنهم، ولم يحابهم لم يكثرُوا؛ لأن الكثرة إنما هي في أهل الريبة، وإذا كان الرجل صلب الدين لم يصحب إلا الأبرار الأتقياء، وهم قلة.

لكل امرئ من الناس مثله
فأكثرهم شكلاً أقلهم عقلاً
وكل أناس ألفون لشكلهم
فأكثرهم عقلاً أقلهم شكلاً

- قال يوسف بن أسباط: كنت مع سفيان في المسجد، فنظر إلى الخلق، فقال: ترى هذا الخلق، ما يسرني مؤاخاتهم بقيراط فلوس.

- قال ابن عون: أسئ ظنك بالناس تقع قريباً، وأقل معرفة الناس تسلم.
عن سفيان: أن يونس بن عبيد أُصيب بمصيبة، فقليل له: إن ابن عون لم يأتك. فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أخينا لم يضرنا ألا يأتينا.

- كان بين عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان مودة وإخاء، فكانت السنة تمر عليهما لا يلتقيان، فقليل لأحدهما في ذلك، فقال: إذا تقاربت القلوب فلا يضر تباعد الأجسام، أو كلمة نحوها.

رَأَيْتُ تَهَاجَرَ الْإِلَافِينَ بَرًّا
إِذَا اصْطَلَحَتْ عَلَى الْوُدِّ الْقُلُوبُ
وَلَيْسَ يَؤَاطِبُ الْإِمَامُ إِلَّا
ظَنِينَ فِي مَوَدَّتِهِ مَرِيبٌ

- كتب رجل من أهل الموصل إلى بشر بن الحارث يستأذنه أن يلقاه، فقال بشر: أحبُّ إخواني إلي من لا يراني ولا أراه.

قال بعض الحكماء: عجباً للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً، وعجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك، اللهم، أنست الأنسين من أوليائك، وخصصتهم بكفاية المتوكلين عليك، تشاهدتهم في ضمائرهم، وتطلع عليهم في سرائرهم، وستري عندك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، فإذا أوحشتني العزلة أنسني ذكرك، وإذا كثرت علي الهموم رجعت إلى الاستجارة بك، يارب العالمين.

- قال رسول الله ﷺ: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

- قال بعض الحكماء: من اشتغل بما لا يعنيه فاتته ما يعنيه، ومن لم يستغنِ بما يكفيه فليس في الدنيا شيء يعنيه.

وقال سفيان: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس.

وقيل لراهب في صومعته: ألا تنزل؟ فقال: من مشى على وجه الأرض عشر.

- وأوصى ابن عباس رجلاً فقال: لا تتكلم بما لا يعنيك؛ فإن ذلك فضل، ولست آمن عليك الوزر، ودع الكلام في كثير مما يعنيك؛ حتى تجد له موضعاً، فرب متكلم في غير موضعه قد عُنت، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً؛ فإن الحليم يقلبك، والسفيه يؤذيكَ، واذكر أخاك إذا توارى عنك بما تحب أن يذكركَ به إذا تواريت عنه، ودعه مما تحب أن يدعكَ منه؛ فإن ذلك العدل، واعمل عمل امرئ يعلم أنه مجزي بالإحسان، مأخوذ بالإجرام.

- قال مورق العجلي: أمرُّ أنا أطلبه منذ عشرين سنة لم أنله، ولست بتاركه فيما أستقبل. قيل: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني. نفسي قد ذلت لي بصيام اليوم البعيد الطرفين، الشديد الحرِّ، ولم تذلل لي بترك الكلام فيما لا يعنيني.

- جاء رجل من أهل البصرة إلى عبيد بن عمر، فقال: إني رسول إخوانك من أهل البصرة إليك، فإنهم يقرئونك السلام، ويسألونك عن أمر هذين الرجلين: علي وعثمان، وما قولك فيهما؟ فقال: هل غير؟ قال: لا. قال: جهزوا الرجل، فلما فرغ من جهازه قال: اقرأ وأخبرهم أن قولي فيهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد روي في الخبر: العزلة عن الناس عافية، ولا يكون العبد صادقاً حتى يجد في الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد ما لا يجده

في الجماعة، ويجد في السر من النشاط والقوة ما لا يجده في العلانية، ويكون أنسه في الوحدة وروحه في الخلوة وأحسن أعماله في السر، ومثل الخلوة في الأحوال من المخالطة للناس مثل الخوف في المقامات من المحبة، الخوف يصلح لجميع العابدين والمحبة مزيد لأهلها المخصوصين، كذلك الخلوة والانفراد يصلح لجميع المريدين، والأنس بالناس مزيد لأهله، خاصة من الأئمة العالمين إلا أن الخلوة تحتاج إلى عقل آخر والوحدة والانفراد يحتاجان إلى إيمان.

- قيل لعمر بن عبد العزيز: ما تقول في أهل صفين؟ فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لسانني بها.

- والأصمعي يقول: خذ الخير من أهله، ودع الشر لأهله.

- وقيل لبعضهم: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من لا يدري كيف حاله؟

- قال أعرابي: لا تكن ضحاكاً من غير عجب، ولا مشاءً إلى غير أرب.

وكان أبو محمد الخلافي ملازماً لمنزله، قليل البروز لحاجته. وقيل له في ذلك، فروى عن أبي الدرداء: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيه سمعه وبصره.

وروي عن ابن سيرين أنه قال: العزلة عبادة. وقال: خلاؤك أقتى لحياتك. وقال: عز الرجل في استغنائه عن الناس، والوحدة خير من جليس السوء. وأنشد لابن قيس الرقيات:

اهربْ بنفسِكَ واستأنسْ بوحديتها
تلقَ السَّعُودَ إذا ما كنتَ منفرداً
ليتَ السَّبَاعَ لَنَا كانتَ معاشرَةً
وأننا لا نرى ممن نرى أحداً
إنَّ السَّبَاعَ لتهداً في مرابضها
والنَّاسُ ليسَ بهادٍ شرُّهم أبداً

- قال الشرقي بن القطامي: دخلت على المنصور فقال لي: يا شرقي! علامَ يؤتي المرء؟ فقلت: أصلح الله الخليفة! على معروف سلف، أو مثله مؤتلف، أو قديم شرف، أو علم مطَّرف، فما عدا هذا فولوع وكلف. أو قال: جهل وسرف.

وقال في صيد الخاطر: تأملت أمر الدنيا والآخرة، فوجدت حوادث الدنيا حسية طبيعية، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية. والحسيات أقوى جذباً لمن لم يقوَ علمه ويقينه. والحوادث إنما تبقى بكثرة أسبابها، فمخالطة الناس، ورؤية المستحسنات، والتعرض بالملذوذات، يقوي حوادث الحس.

- دخل محمد بن خشك على بعض العمال زائراً له، فلم يهشَّ له في اللقاء، ولم يرفع منه، فنهض وهو يتمثل بقول فلان حين يقول:
إنَّ دخولي على أبي قتب
مِنْ غيرِ ما حاجةٍ ولا أرب

مِنْ حِمَاقَاتِي فَإِنِّي رَجُلٌ

مضطربُ العقلِ سيئُ الأدبِ

- وفي فصل لعلني بن عبدة: أما بعد! ولا توجب عليك رقاً لمن لا يعرف قدر ما تملكه منك، فإنه من لم يتصفح موالي قلبه، ويختارهم بقدره، أذلت العبودية. ولا تتشاغل إلا بمن يتفرغ لك، فإن لم تتق ممن صافيت بالوفاء، فاستظهر عليه بمن يسليك عنه، ومتى وجدت مؤثراً لما تهوى، وصفيّاً صادقاً، فاشغل عمرك به، واغمر قلبك بطاعته، ولتكن نفسك وديعةً له عندك، فتتخذ أحكامه عليها، وما أقل من يلزمك هذا له إن استوفيت لنفسك حقها. والسلام.

- وآخر يقول لصاحبه: إكرامك غير ذي الدين والدنيا حق. والسلام.

- للإشارة آفات، وأنا أحذرها، وذلك أني إذا أشرت على رجل برأي لم يخل من قبول له أو رد، فإن قبله لم يخل من أحد أمرين: إما أن يقع صواباً فينتفع به، أو خطأ فيتضرر به، فإن وقع صواباً وانتفع به لم آمن أن يتداخلني لذلك عجب، وأن تذهب بي نفسي أن قد سقت إليه خيراً، وإن وقع خطأ وتضرر به لم أعدم منه لائمة وذماً. وإن لم يقبله لم يخل أيضاً من أحد أمرين: إما أن ينجح أو يخفق، فإن أنجح أزرى بي وبرأيي، أو اتهمني في مشورتي، وإن أخفق أو ناله ضرر لم آمن من نفسي الشماتة، وأن آثم في أمره. وما اعتوره هذه الآفات، فتركه أسلم.

- قال محمد بن واسع: لا تُشِرَّ على معجبٍ برأيه، فإنه لا يقبل، فقد ترخص العلماء في ترك الإشارة لآفة تعرض فيها، أو عائق يمنع منها. ولعل ابن اليمان كان يعرف من صاحبه المستشير إعجاباً برأيه وتركاً لقبول نصحه، فحذر الفتنة واغتمت الراحة.

- قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر المرء من يخالل». قوله: المرء على دين خليله معناه: لا تخالل إلا من رضيت دينه وأمانته؛ فإنك إذا خالته قادتك إلى دينه ومذهبه، فلا تغرر بدينك، ولا تخاطر بنفسك فتخالل من ليس مرضياً في دينه ومذهبه.

- قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى فرعون معه هامان، انظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي مسلم شر منه، انظروا إلى سليمان بن عبد الملك صاحبه رجاء بن حيوة فقوّمه وسدّده.

- ويقال: إن الخلّة مأخوذة من تخلل المودة القلب وتمكنها منه، وهي أعلى درجات الإخاء، وذلك أن الناس في الأصل أجنب، فإذا تعارفوا اتلفوا فهم أوداء، وإذا تشاكلوا فهم أحياء، فإذا تأكدت المحبة صارت خلّة.

أما الخلوة فإنها تفرغ القلب من الخلق وتجمع الهم بأمر الخالق وتقوّي العزم على الثبات؛ إذ في مخالطة الناس وهنّ العزم وشتات الهم وضعف النية، والخلوة تقل الأفكار في عاجل حظوظ النفس لفقد مشاهدتها بالأبصار؛ لأن العين باب القلب ومنها يدخل آفاته،

وعندها توجد شهواته ولذاته. وقد قال بعض العلماء: من كثرت لحظاته دامت حسراته والخلوة تجلب أفكار الآخرة وتجدد الاهتمام بها لما شهد به الإيقان وتنسي اذكار العباد وتواصل ذكر المعبود، والخلوة من أكبر العوافي.

- عن النبي ﷺ قال: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».



﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾

- ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من شبه البهائم؛ فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاوس؛ ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقى لها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجليه ولغت فيه، فكذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل عن نفسه أو حكى خطأ غيره ترواه وحفظه.

فاعلم يا أخي، أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك، ومصدق ذلك في كتاب الله سبحانه حين يقول في تمثيل من كذب بآيات الله بالكلب، فقال عز وجل:

﴿فَثَلُّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ﴾. وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ يَسْأَلُ﴾. وقال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾. فجعلهم أسوأ حالاً منها، وأبعد مذهباً في الضلال، حتى قامت عليهم الحجة فلم يذعنوا لها، ولأجل ذلك رأى الحكماء أن السلامة من آفات السباع الضارية أمكن، والخلاص منها أسهل من السلامة من شر الناس.

- وكان الشافعي ينشد:

لَيْتَ الْكَلَابَ لَنَا كَانَتْ مُجَاوِرَةً
وَأَنْنَا لَا نَرَى مِمَّنْ نَرَى أَحَدًا
إِنَّ الْكَلَابَ لَتَهْدَا فِي مَوَاطِنِهَا
وَالنَّاسُ لَيْسَ بِهَادٍ شُرْهُمُ أَبَدًا
فَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ فِي تَفْرِيدِهَا أَبَدًا
تَعَشْ حَمِيدًا إِذَا مَا كُنْتَ مَنْفَرِدًا

- زار الزيادي العتابي، فأراد العتابي أن يتزحزح له عن البساط، فقال الزيادي: مكانك! فإن البساط لا يضيق عن متحابين، والدنيا لا تتسع لمتباغضين.

وقد روي عن سفيان الثوري، وعن بشر بن الحارث: إذا استوحشت من الوحدة واستأنست بالخلق لم آمن عليك الرياء. وكان أبو محمد يقول: اجتمع الخير كله في هذه الخصال الأربع وبها صار الإبدال إبدالاً: إخماس البطون، والصمت، واعتزال الخلق، وسهر الليل. وحُذث عن عبد العزيز عن سهل رحمه الله قال: مخالطة الولي للناس ذلٌّ، وتفردّه عزٌّ، وقلّ ما رأيت ولياً لله عزّ وجلّ إلا منفرداً.

- التقى الفضيل وابن المبارك على باب بني شيبه، فقال ابن المبارك: يا أبا علي! ادخل بنا المسجد؛ حتى نتذاكر. فقال الفضيل لابن المبارك: إذا دخلنا المسجد أليس تريد أن تحدثني بغريب ما عندكم وأحدثك بغريب ما عندي من العلم؟ فقال ابن المبارك: بلى.

الصاحب الخير خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء،
ومملي الخير خير من الساكت، والساكت خير من مملي الشر.

وقال الثوري: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن
راياهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

- قال أعرابي: عداوة الحليم أقل ضرراً عليك من مودة الجاهل.

وَلأنَّ يَعاذِيَ عاقلًا خَيرُ لَه

مِنْ أن يَكُون لَه صديقٌ أحمقُ

فارغِبْ بِنَفْسِكَ أن تَصادِقَ جاهِلًا

إنَّ الصديقَ على الصديقِ مَصدِّقُ

فيا من مطية عمره قد أنضاهها الحرص، هلا كففتها قليلاً بزم
القناعة؟ فرب جد أعطب، ورب أكلة تمنع أكالات، وكثرة الماء شرق
أو عزق؟ اخلُ بنفسك في بيت العزلة، واستعن عليها بعدول اللوم،
ونادها بلسان التوبيخ: إلى كم؟ وحتى متى؟ ألم يأن؟ ويحك!! سرق
لص الشيب رأس مال الشباب.

فَأَصَبَحْتُ مُفْلِسَ العُمُرِ

فَهَل لِيَ اليَومَ إلا زَفرةُ النَّدَمِ

- إياك وإخوان السوء؛ فإنهم يخونون من رافقهم، ويخرفون من
صادقهم؛ وقربهم أعدى من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب؛
والمرء يعرف بقرينه.

- وقيل: الإخوان اثنان: محافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء، فاحفظ صديق البلية، وتجنب صديق العافية؛ فإنه أعدى الأعداء.

وكلُّ خليلٍ بالهوينى ملاطفٌ

ولكنَّما الإخوانُ عندَ النوائبِ

أرى الناسَ إخوانَ الرخاءِ وإنما

أخوكَ الذي آخاكَ عندَ المصائبِ

فعليك بالعزلة والذكر والنظر في العلم، فإن العزلة حمية، والفكر والعلم أدوية. والدواء مع التخليط لا ينفع. وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق، والتخليط في الأفعال، فليس لك دواء إلا ما وصفت لك. فأما إذا خالطت الخلق وتعرضت للشهوات، ثم رمت صلاح القلب رمت الممتع.

- فمخالطة الأندال والسفلة تحطُّ الهيبة، وتضع المنزلة، وتُكلُّ اللسان، وتُزري بالإنسان.

- لا تسافر مع جبان؛ فإنه يفر من أبيه وأمه، ولا تسافر مع أحمق؛ فإنه يخذلك وأنت أحوج ما تكون إليه، ولا تسافر مع فاسق؛ فإنه يبيعك بأكلة وشربة.

فإذا صاحبَ فاصحبُ صاحباً

ذا حياءٍ وعفافٍ وكرمٍ

قوله في الشيء: لا، إن قلت: لا

وإذا قلت: نعم، قال: نعم

وقائل كيف تهاجرتما
فقلت قولاً فيه إنصاف
لم يك من شكلي ففارقته
والنَّاسُ أشكالٌ وأصنافُ

تبيّن وكن مثلي أو ابتغ صاحباً
كمثلك إنني مبتغ صاحباً مثلي
ولن يلبث الأقران أن يتفرقوا
إذا لم يؤلف زوج شكلٍ إلى شكلي

- عمادُ المودة المشاكلة، وكل ودّ عن غير تشاكلٍ، فهو سريع التصرّم.

- قال أبو تمام:

ولن تنظّم العقدَ الكعابَ لزينةٍ
كما تنظّمُ الشملَ الشتيتَ الشمائلُ

- من ودّك لأمر ولّي مع انقضائه.

المؤمن على طهارة التوحيد من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ غير أنه لما
خالط أوساخ الهوى تدنست ثياب معاملته، وليس لها تتظف إلا بماء
العلم في بيت العزلة.

- قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم ﷺ من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأسود والأبيض، والسهل والحزن، بين ذلك الخبيث والطيب».

قد بين النبي ﷺ في هذا القول أن الناس أصناف وطبقات، وأنهم إلى تفاوت في الطباع والأخلاق، فمنهم الخير الفاضل الذي يُنتفع بصحبته، ومنهم الرديء الناقص الذي يُتضرر بقربه وعشرته، كما أن الأرض مختلفة الأجزاء والترب، فمنها العذة الطيبة التي يطيب نباتها ويزكو ريعها؛ ومنها السباح الخبيثة التي يضيع بذرها، ويبعد زرعها، وما بين ذلك على حسب ما يوجد منها حساً، ويشاهد عياناً.

- قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن».

وفي هذا القول أيضاً بيان أن أخلاق الناس غرائز فيهم، كما أن المعادن ودائع مركوزة في الأرض؛ فمنها الجوهر النفيس، ومنها الخسيس، وكذلك جواهر الناس وطبائعهم؛ منها الزكي الرضي، ومنها الناقص الدنيء.

وإذا كانوا كذلك، وكان الأمر على العيان منهم مشكلاً، واستبرأ العيب فيهم متعذراً، فالحزم إذاً الإمساك عنهم، والتوقف عن مداخلتهم، إلى أن تكشف المحنة عن أسرارهم وبواطن أمرهم، فيكون عند ذلك إقدام على خيرة، أو إحجام عن بصيرة، ولعلك -أسعدك الله- إذا خبرتهم قليتهم، وإذا عرفتهم أنكرتهم، إلا من يخصصهم الشيا، وقليل ما هم.

شَرُّ السَّبَاعِ الضَّوَارِي دُونَهُ وَزُرُّ
وَالنَّاسُ شَرُّهُمْ مَا دُونَهُ وَزُرُّ
كَمْ مَعْشَرٍ سَلِمُوا لَمْ يُوْذِهِمْ سَبْعٌ
وَمَا تَرَى بَشَرًا لَمْ يُوْذِهِ بَشَرٌ

- قال الفضيل: إذا رأيت السبع فلا يهولنك، وإذا رأيت ابن آدم
فخذ ثوبك ثم فرّ، ثم فرّ.

العزلة رأس الحمية من الدنيا، تخطيط عين بازي الهوى فيألف
الطعام على الطيران، والعزلة صحراء خالية عن بقاع يا سرعة إبصار
الهلاك فيها لذي بصر! قلّ غرس خلوة إلا وعليها ثمرة الأنس.

- قال عبيد بن أيوب العنبري، وقد كان جنى جناية عظيمة فطلبه
السلطان، فأمن في الهرب، حتى وقع في مجاهل الأرض:
لَقَدْ خَفْتُ حَتَّى لَوْ تَمَرُّ حَمَامَةٌ

لَقُلْتُ: عَدُو، أَوْ طَلِيعَةُ مَعْشَرٍ

فَإِنْ قِيلَ: خَيْرٌ، قُلْتُ: هَذَا خَدِيعَةٌ

وَإِنْ قِيلَ: شَرٌّ، قُلْتُ: حَقٌّ فَشَمْرٌ

- قال الخطابي: وسأفيدك فائدة يا أخي، يجل نفعها، وتعظم
عائدها، وما أقولها إلا عن ودّ لك، وشفقة عليك: فإن البلوى في
معاشرة أهل زمانك عظيمة، فاستعن بها على ما يلقاك من أذاهم،
فإنك لا تخلو من قليله، وإن سلمت من كثيره، وذلك أنك قد ترى

الواحد بعد الواحد منهم يتكالب على الناس، ويتسفه على أعراضهم، وينبح فيها نباح الكلب، فيهمك من شأنه ما يهمك، ويسوؤك منه ما يسوؤك، إلا أن يكون رجلاً فاضلاً يرجى خيره، ويؤمن شره، فيطول في أمره ففكره، ويدوم به شغل قلبك، فأزح هذا العارض عن نفسك، بأن تعدّه على الحقيقة كلباً خلقه، وزد به في عدد الكلاب واحداً، ولعلك قد مررت مرة من المرات بكلب من الكلاب ينبح ويعوي، وربما كان أيضاً قد يساور، ويعض فلم تحدث نفسك في أمره بأن يعود إنساناً ينطق ويسبح، فلا تتأسف له ألا يكون دابة تركب، أو شاة تحلب، فاجعل أيضاً هذا المتكلب كلباً مثله، واسترح من شغله، واربح مؤونة الفكر فيه، وكذلك فليكن عندك منزلة من جهل حقك، وكفر معروفك، فاحسبه حماراً، أو زد به في عدد العانة واحداً، فبمثل هذا تخلص من آفة هذا الباب وغائلته.

أيها المبتدئ: عليك بالعزلة، فإنها أصل العمل، تضم شتات قلبك، وتحفظ ما لفقت من خصال يقظتك، فإن حالك كمرقعة بالية، إن تحركت فيها تمزقت.

وإذا جرى القدر باجتماع العقل واليقين في بيت الفكر أخذ في توبيخ الأمارة، فإن كان زمن المرض قد انقضى أثر اللوم ثوران العزيمة إلى قطع القواطع، فحينئذ تكتب النفس بكف الهجر طلاق الهوى، وتتجلبب بجلباب الزهد، وتترهب في دير العزوف، فتستوحش من أهل الدنيا شغلاً بصحبة: أنا جليس من ذكرني.

فيا من قد ضاع يوسف قلبه، جَزَّ بخيم القوم لعلك تجد ريح
يوسف، قَفَّ في السحر على أقدام الذل وقل: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا
وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يا مخذول التواني، يا مجدوع الأمانى، غرق مركب عمرك
في بحر الكسل، ويحك: من لازم المنام لم يرَ إلا الأحلام، متى تفتح
عين عزمك؟ فيا طول هذا الكرى! أما تستنشق ريح السحر؟ أما تجد
برد هواء الفجر؟ أما تعاین ضوء الشيب؟ أما يؤمك عتاب الدهر؟

تَنْبُهِي يَا عَذَبَاتِ الرَّنْدِ
كَمْ ذَا الْكَرَى هَبَّ نَسِيمُ نَجْدِ
أَعْلِلِ الْقَلْبَ بِبَانِ رَامَةٍ
وَمَا يَنْوُبُ غُصْنٌ عَنْ قَدْ
وَاقْتَضَى النُّوحُ حَمَامَاتِ اللَّوَى
هَيْهَاتَ مَا عِنْدَ اللَّوَى عِنْدِي

رحل ركب المحبة على أكوار العزائم، فصبحوا منزل الوصل وأنت
نائم بعد يا عمر العزم: إلى كم في دار الخيزران، يا فضيل المحبة
متى تكسر سيف الفضول؟ يا ابن أدهم الجد، دخلت شهور الحج فما
قعودك ببلخ؟

هَلْ لَكَ بِالنَّازِلِينَ أَرْضَ مِنْى
يَا عِلْمَ الشُّوقِ بَعَدَنَا عِلْمُ

فعليك في بياض نهارك ألا تشتغل إلا بما ينفعك في معادك أو معاشك الذي لا تستغني عن الاستعانة به على معادك. فإن عجزت عن القيام بحق دينك مع مخالطة الناس، وكنت لا تسلم فالعزلة أولى، فعليك بها؛ ففيها النجاة والسلامة. فإن كانت الوسواس في العزلة تجاذبك إلى ما لا يرضى الله تعالى، ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم، فهو أحسن أحوالك وأحوالنا، إذا عجزنا عن الغنمة رضيينا بالسلامة في الهزيمة. فأحسن بحال من سلامة دينه في تعطيل حياته؛ إذ النوم أخو الموت، وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات.

- قال بعض الحكماء: الشرف في الناس طباعٌ، وحب الخلاف لهم عادةٌ؛ والجور فيهم سنةٌ، ولذلك تراهم يؤذون من لا يؤذيهم، ويظلمون من لا يظلمهم، ويخالفون من ينصحهم.

- قال الأصمعي: قيل لرجل: أتؤذي جيرانك؟ قال: فمن أؤذي؟ أؤذي من لا أعرف؟

وما زال كتمانك حتى كأنني

برجع سؤال السائل عنك أعجم

لأسلم من قول الوشاة وتسلمي

سلمت وهل حي على الناس يسلم

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً

ولناس قيل بالظنون وقال

وسئل بعض الحكماء: متى يسلم الإنسان من الناس؟ فقال: إذا لم يكن في خير ولا شر. قيل: متى يكون كذلك؟ قال: إذا مات. قال: وذلك لأنه وهو حي إما أن يكون خيراً، فالأشهرار يعادونه، وإما أن يكون شريراً، فالأخيار يمقتونه، والمثل سائر في قديم الدهر: (ما لقي الناس من الناس).

وما أنت إلا ظالمٌ وابنُ ظالمٍ
لأنك من أولادِ حواءِ وآدمِ
ولو كنتُ مثلَ النصلِ أُلْفِيَتْ قَائِلاً
ألا ما لهذا القَدحِ ليسَ بقائمِ
ولو كنتُ مثلَ القَدحِ أُلْفِيَتْ قَائِلاً
ألا ما لهذا النُّصْلِ ليسَ بصارمِ

- من الناس من يولع بالخلاف أبداً، حتى إنه يرى أن أفضل الأمور ألا يوافق أحداً، ولا يجتمع معه على رأي، ولا يواتيه على محبة؛ ومن كان هذا عادته فإنه لا يبصر الحق، ولا ينصره، ولا يعتقده ديناً ومذهباً؛ إنما يتعصب لرأيه، وينتقم لنفسه ويسعى في مرضاتها، حتى إنك لو رُمت أن تترضاه، وتوخيت أن توافقه على الرأي الذي يدعوك إليه لتعمد خلافك فيه، ولم يرضَ به حتى ينتقل إلى نقيض قوله الأول، فإن عدت في ذلك إلى وفاقه عاد فيه إلى خلافك.

واحفظ لسانك من المزاح في الجد والهزل؛ فإنه يريق ماء الوجه ويسقط المهابة، ويستجرّ الوحشية، ويؤذي القلوب، وهو مبدأ اللجاج

والغضب والتصارم، ويغرس الحقد في القلوب؛ فلا تمازح أحداً؛ فإن مازحك أحد فلا تجبه، وأعرض عنهم؛ حتى يخوضوا في حديث غيره، وكن من الذين إذا مروا باللغو مروا كراماً.

فهذه مجامع آفات اللسان، ولا يعينك عليه إلا العزلة، أو ملازمة الصمت إلا بقدر الضرورة؛ فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حجراً في فيه؛ ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة، ويشير إلى لسانه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. فاحترز منه بجهدك؛ فإنه أقوى أسباب هلاكك في الدنيا والآخرة.

- قال الزجاج: كنا عند المبرد أبي العباس محمد، فوقف عليه رجل فقال: أسألك عن مسألة من النحو؟ قال: لا. فقال: أخطأت. فقال: يا هذا، كيف أكون مخطئاً أو مصيباً ولم أجبك عن المسألة بعد. فأقبل عليه أصحابه يعنفونه، فقال: خلوا عنه ولا تعرضوا له، أنا أخبركم بقصته؛ هذا رجل يحب الخلاف، وقد خرج من بيته وقصدني على أن يخالفني في كل شيء أقوله، ويخطئني فيه، فسبق لسانه بما كان في ضميره.

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: احترسوا من الناس بسوء الظن. مكتوب في الحكمة: إذا كان الغدر في الناس طباعاً، فالثقة بكل إنسان عجز.

سئل الحضيض الرقاشي: ما بقي من رأيك؟ قال: سوء الظن.

عليك بأحد أمرين: إما العزلة والانفراد؛ ففيها سلامتك.. وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم، بأن تعلم أن الإخوة ثلاثة: أخ لآخرين فلا تراعى فيه إلا الدين، وأخ لندياك فلا تراعى فيه إلا الخلق الحسن، وأخ لتأنس به فلا تراعى فيه إلا السلامة من شره وفتنته وخبثه.

والناس ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يتسلى به، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع؛ فتجب مداراته إلى الخلاص منه، وفي مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها، وهو أن تشاهد من خباثت أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه؛ فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن.

- قال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال الرجل أوضع له؟ قال: كثرة كلامه، وإفشاؤه سره، والثقة بكل أحد.

- قال علي بن قادم: لا تخرج مع المهدي حتى تبلوه.

- قال أبو الدرداء: إنك لن تتفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله، ثم ترجع إلى نفسك فتجدها أمقت من سائر الناس.

- قال مالك بن دينار: منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم، ولم أحزن لذمهم. قالوا: كيف ذلك يا أبا يحيى؟ قال: إني لا أرى إلا مادحاً مفرطاً، أو ذاماً مفرطاً.

- قال حفص بن حميد : صحبت الناس خمسين سنة، فلم أجد
أحداً منهم ستر لي عورة، ولا وصلني إذا قطعته، ولا أمنتني إذا غضب،
فالاشتغال بهؤلاء حمقٌ كبير.

لَيْسَ لِلنَّاسِ وِفَاءٌ
لَا وَلَا بِالنَّاسِ خَيْرٌ
قَدْ بَاوَنَّا النَّاسَ فَالْ
نَّاسُ كَسِيرٍ وَعَوِيرٌ

خبرتُ الأنامَ فما أن وجدتُ
على محنةٍ من يساوي نقيراً
فلما تبينتُ أنني التمسْتُ
من الناس شيئاً بعيداً عسيراً
فزعتُ إلى الأُنسِ بالانفرادِ
فكانَ التقلُّلُ منهم كثيراً

إنَّما النَّاسُ فزعةٌ
ليسَ في النَّاسِ مفرجٌ
ذمٌّ من شئتَ منهم
فهو لالذمِّ موضعٌ

إِخْوَانُ هَذَا الزَّمَانِ كُلُّهُمْ
إِخْوَانُ غَدِرٍ عَلَيْهِ قَدْ جُبِلُوا
أَخُوهُمْ الْمُسْتَحَقُّ وَصَلَهُمْ
مَنْ شَرِبُوا عِنْدَهُ وَمَنْ أَكَلُوا
طَوَّوْا ثِيَابَ الْوَصَالِ بَيْنَهُمْ
وَصَارَ ثَوْبُ الرِّيَاءِ يَبْتَدُلُ
وَلَيْسَ فِيمَا رَأَيْتُ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَنْ كَانَ مُعْدِماً عَمَلُ
فَاحْضِظْ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِنْ ظَفَرْتَ
بِهِ لَمْ يَكُنْ فِي إِخَائِهِ دَغْلُ

- كان أعرابي بالكوفة، وكان له صديق، فكان يظهر له مودةً ونصيحة، فاتخذ الأعرابي من عدده للنواذب، فأتاه فوجده بعيداً مما كان يظهر له، فأنشأ يقول:

إِذَا كَانَ وَدَّ الْمَرْءِ لَيْسَ بِزَائِدٍ
عَلَى مَرْحَباً أَوْ كَيْفَ أَنْتَ وَحَالُكَ
وَلَمْ يَكْ إِلَّا كَاشِراً أَوْ مُحَدَّثاً
فَأَفْ لَوْدٌ لَيْسَ إِلَّا كَذِبُكَ

لسانك معسولٌ ونفسك بشةٌ
وعندَ الثريِّ من صديقك ما لكَا
فأنتَ إذا همَّتَ يمينُك مرةً
لتفعلَ خيراً قابلتَها شَمالُكا

وإن من الإخوانِ إخوانَ كثرةٍ
وإخوانَ حياكِ الإلهُ ومرحبا
وإخوانَ كيف الحالُ والأهلُ كلُّهُ
وذلكَ لا يسوى نقيراً متربا
جواداً إذا استغنيتَ عنه بماله
يقولُ إليَّ القرضُ مني فاطلبا
فإن أنتَ حاولتَ الذي خلفَ ظهره
وجدتَ الثريَّ منه في البعدِ أقربا

أنتَ ما استغنيتَ عنُ صا
حبك الدُّهرُ أخوهُ
فإذا احتجتَ إليه
ساعةٌ مجَّك فُوهُ

لَوْ رَأَى النَّاسُ نَبِيًّا
سَأَلُوا مَا وَصَّلُوهُ

جَدُّكَ يَسْقِيكَ بِصَافٍ أَوْ كَدْرٍ
النَّاسُ إِخْوَانُكَ مَا لَمْ تَفْتَقِرْ

إِخْوَةٌ مَا حَضَرْتُ سُرُورًا
فَإِذَا غَبْتُ فَالْسَّبَاعُ الْجِيَاعُ

بَايِنُونِي حَتَّى إِذَا عَايَنُونِي
حَانَ مِنْهُمْ تَضَاوُلٌ وَاجْتِشَاعُ

لَا لِسُوءٍ مِنَ الْبَلَاءِ وَلَكِنْ
ظَهَرَتْ نِعْمَةٌ عَلَيَّ فَهَاجُوا

فَهُمْ يَهْمَزُونَ مِنِّي قَنَاءً
لَيْسَ يَأْلُونَ صَدْعَهَا مَا اسْتَطَاعُوا

مَا كَذَا يَفْعَلُ الْكِرَامُ وَلَكِنْ
هَكَذَا يَفْعَلُ اللَّئَامُ الْوَضَاعُ

وَأَبْعَدَنِي عَنِ الْإِخْوَانِ عِلْمِي بِهِمْ
فَبَقِيتُ مَهْجُورَ النَّوَاجِي

فكم دم لهم في جنب مدح
وجد تحت أثناء المزاح

مضى الأحرار وانقرضوا جميعاً
وخلفني الزمان على علوج
وقالوا: قد لزم البيت جداً
فقلت: لمقد فائدة الخروج

حال عما عهدت ريب الزمان
واستحالت مودة الخلان
واستوى الناس في الخديعة والمك
رفكل لسانه اثنان
قل لمن يبتغي السلامة والصح
ة: عش واجداً بلا إخوان
فلعمري لئن بلوت أصح النسا
س ودأ وجدت ذا ألوان

ألا ذهب التذمُّمُ والوفاء
وبادَ رجاله وبقي الغُثاءُ
وأسلمني الزمانُ إلى أناسٍ
كأنَّهم الذئبُ لهم عواءُ
إذا ما جئتهم يتدافعوني
كأنِّي أجربُ أعداءه داءُ
صديقٌ إذا استغنيتُ عنهم
وأعداءٌ إذا نزلَ البلاءُ
أقولُ ولا ألامُ على مقالِي:
على الإخوانِ كلُّهم العفاءُ

لا يضيعُ الأمينُ سرّاً ولكنْ
ربما يُحسبُ المضيعُ أمينا
إذا ما كنتَ متخذاً خليلاً
فلا تأمنَ خليلك أن يخونا
فإنَّك لم يخنك أخٌ أمينٌ
ولكنْ قلَّ مَنْ تلقى أمينا

- وكيف يكون لك صديقاً من لا يصدقك لسانه عن قلبه، ولا عيانه عن غيبه؛ إذا رآك قال: أطال الله بقاءك، وهو يتمنى فناء

عمرك، وقصر أيام حياتك؛ وأكرمك الله، وهو يريد هوانك وهلاكك،
وسلم الله عليك، وهو يتمنى أن يسلمك الله ولا يصونك.

وهل يكون من هذا صفته أخاً أو صديقاً؟ لا وربك. إنه أعدى
الأعداء، وأولى الناس بالإبعاد والإقصاء.

وهذه قصة على ألسنة الحيوان كما ذكرت بعض كتب الأدب:
قال بعضهم: بينا نحن نتذاكر أوصاف الأشراف، وأشراف الأوصاف،
إذ نظرت إلى خطاف، وهو بالبيت قد طاف، فقلت له: ما لي أراك
للبيوت ملازماً، وعلى مؤانسة الإنس عازماً، فلو كنت في أمرك حازماً،
لما فارقت أبناء جنسك، ورضيت في البيوت بحبسك، ثم إنك لا تنزل
إلا في البيوت العامرة، والمنازل التي هي بأهلها عامرة.

فقال لي: يا كثيف الطبع، يا ثقیل السمع، اسمع الآن قصة
حالي، وكيف عن الطيور ارتحالي، أنا ما فارقت أمثالي، وعاشرت
غير أشكالي، واستوطنت السقوف دون الشعاب والكهوف إلا لفضيلة
الغربة، ولزوماً لأدب الصحبة، صحبت من ليس مني لأكون غريباً،
وجاورت من هو خير مني؛ لأضرب لي بينهم نصيباً، فأعيش عيش
الغرباء، وأفوز بصحبة الأدباء، فالغريب مرحوم في غربته، ملطوف به
في صحبته، فقصدت المنازل غير مضر بالمنازل، أبتني بيتي من حافات
الأنهار، وأكتسب قوتي من مباحات القفار، فلست للجار كمن جار،
ولا لأهل الدار كالغدار، بل أحسن جواني مع جاري، أكثر سوادهم،

ولا أستطعم زادهم، فزهدي فيما في أيديهم هو الذي حببني إليهم، ولو شاركتهم في قوتهم ما بقيت معهم في بيوتهم، فأنا شريكهم في أبنيتهم، لا في أغذيتهم، مزاحمهم في أوقاتهم، لا في أقواتهم، مكتسب من أخلاقهم لا من أرزاقهم، منتهب من جمالهم لا من مالهم، مقتبس من برهم، راغب في حبهم لا في حُبهم، فزهدي بما في أيديهم هو الذي حببني فيهم، مقتدياً في ذلك بإشارة صاحب البشارة ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»، وفي ذلك أقول:

كُنْ زَاهِداً فِيمَا حَوْتُهُ يَدُ الْوَرَى
تَضَحْ إِلَى كُلِّ الْأَنَامِ حَبِيباً
أَوْ مَا تَرَى الْخُطَافَ حَرَمَ زَادُهُمْ

فَغَدَا رَيْباً فِي الْحُجُورِ قَرِيباً
قلت: لله درك لقد عشت عيشاً سعيداً، وسرت سيراً حميداً، ووفقت أمراً رشيداً، وقلت قولاً سديداً، ولا أطلب على موعظتك مزيداً، فالعاقل يفهم، والجاهل يندم!

فناداني البوم، وهو منفرد بالخراب مهموم: أيها الصديق الصادق، لا تكن بمقالة الخطاف واثقاً، ولا لعقله موافقاً، فإنه إن سلم من شبه زادهم، فما سلم من شبهة فرحهم وأعيادهم، وتكثر سوادهم، وقد علمت أن من كثر سواد قوم فهو منهم، ولو صاحبهم ساعة صار مسؤولاً

عنهم، وقد علمت أن مبدأ التفريط من آفة التخليط، والخلطة غلطة، وأول السيل نقطة.

واعلم أن السلامة في العزلة، فمن وليها فلا يخاف عزله، فهلا استنّ بسنتي، وتأسى بوحدتي، واعتزل المنازل والنازل، وزهد في المآكل والآكل، فلا أساكنهم في مساكنهم، ولا أزاخمهم في أماكنهم، ولا أجالسهم في مجالسهم، بل اخترت لنفسي الدائر من الجدران، ورضيت بالخراب على العمران، فسلمت من الأنكاد، وأمنت من شر الحساد، ولم أزل عن الأحباب فريداً، وعن الأتراب بعيداً.

من كان مسكنه التراب فكيف يساكن الأتراب؟ ومن كان الليل والنهار يجريان من عمره فكيف لا يقنع بالخراب؟ ومن علم أن الموت وراءه فكيف يتعلق بالأسباب؟ ومن علم أن العمر قصير، وأن كل شيء إلى الفناء يصير، قنع من الدنيا باليسير، وبات على خشن الحصير، وأفطر على قرص الشعير، وعلم أن الخلق في المصير، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

أما أنا فنظرت إلى الدنيا وذهابها، وإلى الآخرة واقتربها، وإلى القيامة وحسابها، وإلى النفس واكتسابها، فشغلني التفكير في حالي عن منزلي الخالي، وأذهلني ما عليّ وما لي عن أهلي ومالي، وأهمني صحتي واعتلالتي عن القصور العوالي، فجلا اليقين عن بصر بصيرتي كل شبهة، فعلمت أن لا فرح يدوم ولا نزهة، وأن كل شيء هالك إلا

وجهه، فعرفت من هو، وما عرفت ما هو، فحيث كنت لا أراقب إلا هو، وإذا نطقت فلا أقول إلا هو؛ لأنه لا إله إلا هو، وفي ذلك أقول:

أَفَرَدَنِي عَنْهُمْ هَوَاهُ
وَلَيْسَ لِي مَقْصِدٌ سِوَاهُ
أَهِيْمُ وَحْدِي بِصِدْقِ وَجْدِي
وَحُسْنِ قَصْدِي عَسَى أَرَاهُ
أَنْكَرَ صَحْبِي غَرَامَ قَلْبِي
وَمَا دَرَوُا بِالَّذِي دَهَاهُ
أَحْبَبْتُ مَوْلى إِذَا تَجَلَّى
يَقْتَبِسُ الْبَدْرُ مِنْ سَنَاهُ
تَحْيَرُ النَّاسُ فِيهِ شَوْقاً
وَجُمْلَةُ النَّاسِ فِيهِ تَاهُ
وَلَا أَسْمِيهِ غَيْرَ أَنَّى
إِنْ غَلَبَ الْوَجْدُ قُلْتُ: يَا هُوَ

فأخذت موعظته بمجامع قلبي، وقلت: هذا رحمة من ربي، وخلعت عني ملابس عجيبي، إلا أن الهوى يقول: عج بي.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فِي الْيَأْسِ غِنَى، وَفِي الطَّمَعِ الْفَقْرُ، وَفِي الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنْ خُلَطَاءِ السُّوءِ.

توقُّ الناسَ يا ابنَ أبي وأمي
فهمُ تبعُ المخافةِ والرجاءِ
ألم ترَ مظهرينَ عليَّ عتياً
وكانُوا أمسَ إخوانَ الصِّفاءِ
بليتُ بنكبةٍ فغدُوا وراخُوا
عليَّ أشدَّ أسبابِ القضاءِ
أبتُ أقدارُهم أن ينصروني
بمالٍ أو بجاهٍ أو براءِ
وخافُوا أن يُقالَ لهم خذلتُم
صديقاً فادَّعُوا قدمَ الجفاءِ

- قال ابن الرومي:

رأيتُ الأخلاءَ في دهرنا
بظهرِ المودةِ إلا قليلاً
بطاءً عن المبتغي نصرهم
إلى أن يغادرَ شلوأً أكيلاً
وإن حشدُوا لامرئٍ مرةً
أدُّلُّوا عليه دلالاً ثقيلاً

وَلَا تَفْزَعَنَّ إِلَىٰ نَصْرِهِمْ
وَعِشْ عِيشَ حَرٍّ عَزِيزًا ذَلِيلًا

- وَقَالَ أَيْضًا:

أَرَى الضَّيْمَ ذَلًّا عَلَىٰ أَنِّي
أَرَى النَّصْرَ مَنْ صَاحِبِ الْمَنْ رَقًّا
فَلَا تَسْأَلِ النَّصْرَ إِلَّا أَمْرًا
تَرَاهُ بِنَصْرِكَ يَقْضِيكَ حَقًّا
لِسَاءِ اتِّقَاؤِكَ إِمَّا اتَّقَيْتَ
أَنْ تَسْتَضَامَ بِأَنْ تَسْتَرْقَا
فَكَمْ لِلْمِظَالِمِ حِمَالَةٌ
وَعِشْ عِيشَ حَرٍّ مَلَقَىٰ مَوْقَىٰ

سَيَعْرِضُ عَنْ ذِكْرِي وَتَنْسَىٰ مَوَدَّتِي
وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ

دَهْرُنَا دَهْرُ افْتِرَاقٍ
لَيْسَ ذَا دَهْرٍ تَلَاقٍ

قُلْ مَنْ يَلْقَاكَ إِلَّا
بِسَلَامٍ وَاعْتِنَا
فَإِذَا وَلَّيْت عَنْهُ
بُنْتُ مِنْهُ بِطَلَقٍ

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّنِي بِلِسَانِهِ
وَلَكِنْ أَخِي مَنْ وَدَّنِي فِي النَّوَابِ
وَمَنْ مَالُهُ مَالِي إِذَا كُنْتُ مَعْدَمًا
وَمَالِي لَهُ إِنْ عَضَّ دَهْرٌ بِغَارِبٍ
فَلَا تَحْمَدَنَّ عِنْدَ الرِّخَاءِ مُؤَاخِيًا
فَقَدْ يُنْكِرُ الْإِخْوَانُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ

- قال أبو عبدالله النبايجي:

ارْفُضِ النَّاسَ فَكُلُّهُ مَشْغَلُهُ
قَدْ بَخَلَ النَّاسُ بِمِثْلِ الْخَرْدَلِ
لَا تَسْأَلِ النَّاسَ وَسَلْ مَنْ أَنْتَ لَهُ

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سَوَالَهُ
وَيَنْيُ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

- قال إبراهيم بن أدهم: يلومنا الناس ألا نقبل منهم، ويوشك أن نقبل منهم فنهون عليهم، ويوشك أن نسألهم فلا يعطونا.
- وقال إبراهيم النخعي: إن الأغنياء لا يعطونك بقدر ما يغنونك، إنما يعطونك بقدر ما يفضحونك.
- قال رسول الله ﷺ: «يذهب الصالحون الأول فالأول، وتبقى حثالة كحثة الشعير، لا يبالي الله تعالى عنهم».
- حثالة الشعير: رُدَّالته، وما لا خير فيه منه. يقول: كما لا يؤكل ما يبقى من حثالة الشعير، كذلك لا يُصحبُ من يبقى من الناس في آخر الزمان.
- قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ذهب الناس وبقي النَّسَناس. فقليل له: ما النَّسَناس؟ قال: يشبهون الناس وليسوا بناسٍ.
- عن ابن عباس قال: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.
- عن سعيد بن جبير قال: قرأت كتاب دانيال فإذا فيه: يأتي على الناس زمان لا يرى حكيماً فيه قرّة عين.
- وعن الشعبي قال: ما بكيْتُ من زمان إلا بكيتُ عليه.
- عن محمد بن علي قال: يأتي على الناس زمانٌ يكون الولد فيه غيظاً، ويكون المطر قيظاً، ويفيض فيه اللئام فيضاً، ويغيض الكرام فيه غيضاً.

- قال حذيفة رضي الله عنه: ما أبالي بعد سبعين سنة لو دهدت حجراً
من فوق مسجدكم فقتلت منكم عشرة.

- قال جعفر بن محمد: إذا كانت السنة ثلاثين ومئة، فخير أولادكم
البنات، وخير نساءكم العقر.

- عن ابن أبي ليلى قال: سيأتي على الناس زمان يقال له زمان
الذئب، فمن لم يكن في ذلك الزمان كلباً أكلوه.

ذهب الذين يعاش في أكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجر
يتحدثون مخافة وملاذة
ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

ذهب الرجال المرتجى لفعالهم
والمنكرون لكل أمر منكرو
وبقيت في خلف يزين بعضهم
بعضاً ليدفع معور عن معور

خلت الديار فسدت غير مسود
ومن الشقاء تفردي بالسود

وَأَنْتَ بِقَوْمٍ سَوْدُوكَ لِحَاجَةٍ
إِلَى سَيِّدٍ لَوْ يَظْفَرُونَ بِسَيِّدٍ

وَمَا سَدَّتْ فِيهِمْ أَنْ فَضْلَكَ عَمَّهُمْ
وَلَكِنْ هَذَا الْحِظُّ فِي النَّاسِ يَقْسَمُ

أَقْلَى عَلَيَّ اللُّومَ يَا أُمَّ مَالِكٍ
وَذَمِّي زَمَاناً سَادَ فِيهِ الْفَلَافِسُ

وَسَاعَ مَعَ السُّلْطَانِ لَيْسَ بِنَاصِحٍ
وَمُحْتَرِسُ مَنْ مِثْلُهُ وَهُوَ حَارِسُ

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَاذِرُهُ
فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يَحْدِثْ لَهُ غَيْرُ
لَمْ يُبَكِّ مَيِّتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودٍ

- قال المتنبي:

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكُ الْقَبِيحَ بِهِ
مَنْ أَكْثَرُ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ

- تغير أهل الزمان، حتى كلّ من وصفهم اللسان، فأمسى خرفاً بعد حدائته، شرساً بعد لينه، يابس الضرع بعد درارته، ذابل الفرع بعد نضارته، قاحل العود بعد رطوبته، بشع المذاق بعد عذوبته، فلا تكاد ترى لبيباً إلا ذا كمد، ولا ظريفاً واثقاً بأحد، وما أصبح له حليفاً إلا جاهل، ولا أمسى به قرير عين إلا غافل، فما بقي من الخير إلا الاسم، ولا من الدين إلا الرسم، ولا من التواضع إلا المخادة، ولا من الزهادة إلا الانتحال، ولا من المروءة إلا غرور اللسان، ولا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا حمية النفس، والغضب لها، وتطلع الكبر منها، ولا من الاستعادة إلا التعزيز والتبجيل، فالمغرور المائق، المذموم عند الخلائق، النادم في العواقب، المحطوط عن المراتب، من اغتر بالناس ولم يحسم رجاءه باليأس، ولم يظلف قلبه بشدة الاحتراس، فالحذر الحذر من الناس، فقد قل الناس وبقي النسناس، ذئاب عليهم ثياب، إن استرفدتهم حرموك، وإن استتصرتهم خذلوك، وإن استتصحتهم غشوك، إن كنت شريفاً حسدوك، وإن كنت وضيعاً حقروك، وإن كنت عالماً ضللوك وبدعوك، وإن كنت جاهلاً عيروك ولم يرشدوك، وإن نطقت قالوا: مكشار مهذار صفيق. وإن سكّت قالوا: غبي بليد بطي. وإن تعمقت قالوا: متكلف متعمق. وإن تغافلت قالوا: جاهل أحمق. فمعاشرتهم داء وشقاء، ومزايلتهم دواء وشفاء، ولا بد من أن يكون في الدواء مرارة وكراهة، فاختر الدواء بمرارته وكراهته على الداء بغائلته وآفته، والله المستعان.

- عن أبي مسلم الخولاني قال: كان الناس مرةً ورقاً لا شوك فيه، وإنهم اليوم شوكٌ لا ورق فيه.

- اعلّموا أن الناس شجرة بغي، وفراش نار، وذبان طمع.

- إن الدنيا لما فتحت على أهلها كلبوا -والله- أسوأ الكلب، حتى عدا بعضهم على بعضٍ بالسيف، واستحل بعضهم حُرمة بعض؛ تخافقوا على نسخةٍ كسبوها من حرام، وأنفقوها في كل شر، وطبقوا الأرض ظلماً؛ قاتلهم الله وهو قاتلهم، اتخذوا عباد الله خولاً، واتخذوا هذا المال دولاً.

- سبحان الله! ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرهم واستأثر عليهم، ومن صاحب بدعةٍ خرج عليهم بسيفه.

- صنفان خبيثان قد غمّا كل مؤمن: أعلاج عجم، وأعراب لا فقه لهم ولا دين، ومنافق مكذب، وأميرٌ مترف، نعر بهم ناعراً فخرجوا يسعون معه، فراش نار وذبان طمع، يبيع أقوام دينهم بثمن حقير، من مات مات إلى النار، ومن عاش عاش عيشة سوء.

- ظهر الجفاء، وقلّ العلماء، وذهب الحياء، وفشت النكراء، ذهب الصالحون أسلافاً، وبقي خشارة كخشارة الشعير، لا يبالي الله عز وجل بهم بالة.

- قال العتبي في قصيدة له يصف فيها قوس بندق:

إنني تبدلتُ بإخوانِ الصفا
قوماً يرونَ النبلَ تطويلَ اللحى
لا علمَ دُنيا عندهم ولا تُقى
غذُوا صغاراً ثم خلّوهم سُدى
بغرةِ الجهلِ وآدابِ النّسا
فلو ترى شيخهم إذا احتبى
ثمَّ ابتدا في وصفِ شيءٍ أو بدا
من رُخصِ سعرٍ ومن إفراطِ غلا
إن رفَعُوا أصواتهم بلى ولا
حسبتهم ضائناً تداعتُ بثغا
أو سربَ بطٍّ جاوبتُ سربَ قطا
فذلك الدأبُ إلى وقتِ العشا
فالقلبُ يزدادُ صدّاً إلى صدٍّ
لقربهم والعلمُ يزدادُ فنا
وكلُّهم في العقلِ يمشي القهقري
يريدُ قدماً فيجري من ورا

- قال بعض الناس: إنني لا أشبه أهل هذا الزمان إذا رأيتهم قد تلاقوا في المحافل، وتدانوا في المجالس، وتحالت بهم الركب، إلا يقوم تصافوا مستعدين لمحاربة أعدائهم، وتضافروا متأهبين مناصبة

أقرانهم، فشهدوا مركز اللقاء بسيوف مشهورة، وأسنة مطروزة، وقسي موترّة، وسهام مفوّقة، فتطاعنوا ضرباً بسيوفهم، ودعساً برماحهم، وتراشقوا خصلاً سهامهم، حتى انفلت سيوفهم، وكلّت أيديهم، ونُثِلت كنانهم عن آخر أهزّع، فأجلت المعركة بينهم عن قتيل تشخب أوداجه، وجريح يفيح عانده، ومرث لا نهوض به، ومثخن ينوء على ضلعه.

- فذلك الوجه والمثال فيما شبّهته لك من صنيع أهل هذا الزمان إذا ضمتهم المجالس، ولفتهم الملاقى والمجامع، فتصور الآن قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم من الغل والحسد، وما تحني عليه ضلوعهم من الإحن والضغائن قسياً موترّة، وألسنتهم وما يرمون به من القول سهاماً مفوّقة، نصبوا لها أعراض الناس أغراضاً، وافترضوا بها افتراضاً، فهم إذا تأملتهم وجدتهم على طبقات شتى؛ منهم ذو القحة الذي يكاشف بالشتّم الصريح مكاشفة، ويجاهر باللفظ القبيح مجاهرة ومعالنة، ومنهم من يعرّض بالأذى ويكني، ويمرض القول به ويوري، ومنهم من يؤذي صاحبه بالمسارة والنجوى، والمباثة والشكوى، ومنهم من يشجو أخاه بغمز العين، وزى الجبين، ورمز الشفتين، وكرف العرنين، وأسلمهم جانباً لا يعاجل بالسوء معاجلة، ولا يؤاخذ بالذنب بغتة، لكن يحصي الأنفاس، ويعد الحروف والألفاظ، ويحفظها ليوم حاجته وأوان فرصته، فبيكت بها ويعير، ويطنب فيها أو يقصر، على شاكلة قول الشاعر في مثله:

احذَر مَوَدَّةَ مَآذِقِ
شَابِ الْمَرَارَةِ بِالْحَلَاوَةِ
يُحْصِي الْغُيُوبَ عَلَيْكَ أَيَّ
مِ الصَّدَاقَةِ لِلْعَدَاوَةِ

- قال عبد الله بن المعتز: إخوان السوء ينصرفون عند النكبة ويقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسل بالإخلاص والمحبة، إلى أن يظفروا بالأنس والثقة، ثم يוכלون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال؛ فإن رأوا خيراً أو نالوه لم يذكروه، ولم يشكروه، وعلموا أنهم خدعوا صاحبهم عنه وقمروه، وإن رأوا شراً أو ظنوه أذاعوه ونشروه، فإن أدمت مواصلتهم فهم الداء المماطل، المخوف على المقاتل، وإن استرحت إلى مصارمتهم ادعوا الخبرة بك لطول الصحبة والعشرة، فكان حديثهم مصدقاً، وباطلهم محققاً.

- قال الفضل: إني لأتمنى المرض. قلت له: لِمَ ذلك؟ قال: لئلا أرى الناس.

- قال أبو السعد الحارثي: أتيت عوانة بعدما كفَّ بصره، فسلمت عليه وسألت عنه، ثم قلت: إن الله لم يسلب عبداً شيئاً إلا عوّضه مكانه شيئاً هو خيرٌ منه، فما الذي عوّضك من بصرِكَ؟ قال: الطويل العريض يا بغيض. فقلت: ما هو؟ قال: ألا أراك، ولا يقع بصري عليك.

- عن أحمد بن جرح قال: لما كَفَّ بصره وانتقل إلى قريته بغور ساران، قصده رجل من أهل الملتان كحال حاذق بصير بالقدح، فلما ورد عليه أمر بإنزاله وحسن تعهده؛ فكان الرجل يغدو عليه ويروح، وجعل يهَوِّن عليه الأمر في معالجته، ويمنيه رجوع بصره في مدة سريعة، فكان أحمد يدافعه الوقت بعد الوقت إلى أن ضجر الرجل بطول المقام، وملَّ الثواء عنده. قال: فحضرني وطلب إلي أن أستأذن له في الانصراف، فدخلت عليه، وعرَّفته قصة الرجل، وأشرتُ عليه بالإقبال على العلاج، وهَوَّنت عليه الأمر في ذلك. فقال لي: يا أبا سليمان! أتشير عليّ بأن أحتمل هذا الألم، وأن أغرّر بجمال هذه المقلة الباقية، ولست على يقين من السلامة؟ وهب أن العلاج قد نجح ووقع موقعه، وعاد البصر إلى ما كان عليه من القوة؛ فقل لي إذا فتحتُ عيني وأبصرت بها، أنظر إلى مَنْ مِنْ إخواني وأصدقائي وقد هكلوا؟ ألا والله إن الزمان الذي أنا فيه، والناس الذين أنا بين ظهرائهم، لقوم لو كنت بصيراً صحيح البصر لكان من الواجب عليّ أن أتعامى عنهم، فأغض بصري عن النظر إليهم، قل لهذا الإنسان ينصرف في حفظ الله عز وجل، وأمر بتجهيزه. فانصرفت ودفعت له كسوةً ونفقةً، وجهازته فانصرف.

- قال أكثم بن صيفي: رضا الناس غايةٌ لا تُدرَك، ولا تكره سخط من رضاه الجور.

- قال الشافعي: رضا الناس غاية لا تدرك، ليس إلى السلامة من الناس سبيل؛ فانظر ما فيه صلاح نفسك فالزمه، ودع الناس وما هم فيه.

- قال الخليل:

أَنْ دَعِ النَّاسَ وَاشْمِئْزَازَهُمْ
إِذَا عَرَفْتَ الْحَقَّ فَالْزِمِ

دَعِ النَّاسَ مَا شَاؤُوا يَقُولُوا فَإِنِّي
لَأَكْثَرُ مَا يُحْكِي عَلَيَّ حَمُولُ
فَمَا كُلُّ مَنْ أَغْضَبْتُهُ أَنَا مَعْتَبُ
وَلَا كُلُّ مَا يُرَوِّى عَلَيَّ أَقُولُ
- يقول المتنبى:

لَوْ كُلُّ كَلْبٍ عَوَى أَلْقَمْتُهُ حَجْرًا
لَأَصْبَحَ الصَّخْرُ مَثْقَالُ بَدِينَارِ

- وقال:

أَوْ كُلَّمَا طَنَّ الذَّبَابُ زَجَرْتُهُ
إِنَّ الذَّبَابَ إِذَا عَلَيَّ كَرِيمُ

- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اللهم، إني قد سئمتهم وسئموني،
ومللتهم وملوني؛ فأرحني منهم وأرحهم مني، ما يمنع أشقاكم أن
يخضبها بدم. ووضع يده على لحيته.

- قال ابن عباس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أكثرت من الدعاء بالموت
حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند أوان نزوله، فماذا مللت من

أَمَّتْكَ؟ إما تعين صالحاً أو تقوِّم فاسداً. قال: ابن عباس رضي الله عنهما! إني قائل لك قولاً وهو إليك. قال: قلت: لن يعدوني. قال: كيف لا أحبُّ فراقهم وفيهم ناسٌ كلهم فاتحٌ فاه للهوةٍ من الدنيا؛ إما بحق لا ينوء به، أو بباطل لا يناله، ولولا أن أسأل عنكم لهربت منكم، فأصبح الأرض مني بلاقع، فمضيت لشأني وما قُلْتُ: ما فعل الغالبون.

- ولما نزل عمر رضي الله عنه بالبطحاء جمع كومة من الرمال بسط عليها رداءه، ثم اضطجع ورفع يديه، فقال: اللهم، كبرت سنِّي، ورقَّ عظمي، وضُعت قوَّتِي، وخشيتُ الانتشار من رعيتي؛ فاقبضني إليك غير عاجز ولا مضيع. قال: ثم قدم المدينة، فما انسلخ الشهر حتى مات.

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ذهب صفو الدنيا فلم يبقَ إلا الكدر، فالموت اليوم تحفةٌ لكل مسلم.

- قال أبو سلمة: إن استطعت أن تموت فمت، فوالله ليأتينَّ على الناس زمان يكون الموت أحبَّ إلى أحدهم من الذهب الأحمر.

- قال طاوس: لا تحرز دين المرء إلا حفرتة.

- قيل للثوري: لمَ تتمنى الموت وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه؟ فقال: لو سألني ربي عز وجل لقلت: يا ربِّ! لتقتي بك وخوفي من الناس. وقال: لأنني لو خالفتُ واحداً في رمانة فقلت حلوة وقال: مرَّة، لخفت أن يُشاط دمي.

قد قلتُ إذ مدحُوا الحياةَ فأكثرُوا
في الموتِ ألفَ فضيلةٍ لا تُعرفُ
منها أمانُ لقاءه بلقائه
وفراقُ كلِّ معاشرٍ لا يُنصفُ

لولا بناتي وسيئاتي
لذبتُ شوقاً إلى المماتِ
لأنني في جوارِ قومٍ
بغضني قريهم حياتي

يبكي رجالٌ على الحياةِ
وقد أفنى دموعي شوقي إلى الأجلِ
أموتُ من قبل أن يغيرني الدهرُ
رُفائي منه على وجلِ

- قال شيخ من الأعراب: إني لمتيسرٌ للموت، لا بنين ولا بنات،
شيخ كبير، وربُّ غفور.

- وعن عطاء: أنه كان يستخف بالغوغاء ويشلي الناس بهم. يريد
به الجهال وأهل الدناءة، وقلة المروءة.

- قال الأصمعي: الغوغاء: الجراد إذا ماج بعضه في بعض. قال: وبه سُمِّي الغوغاء من الناس.

- عن أبي عاصم النبيل: أن رجلاً أتاه فقال: إن امرأتي قالت لي: يا غوغاء. قال: فقلت لها: إن كنت غوغاء فأنت طالق ثلاثاً. فقال له أبو عاصم: هل أنت ممن يحضر المناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك؟ فقال: لا. فقال له: فهل أنت الرجل يحضر يوم يعرض السلطان أهل السجون، فيقول: فلان أجلد من فلان؟ فقال: لا. فقال: هل أنت الرجل الذي إذا خرج الأمير يوم الجمعة جلست له على ظهر الطريق حتى يمر، ثم تقيم بمكانك حتى يصلي وينصرف؟ فقال: لا. فقال له أبو عاصم: لست بغوغاء، إنما الغوغاء من يفعل هذا.

- وكان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

يُرى مستكيناً وهو للهو ماقِتْ

له عن حديثِ القوم ما هو شاغله

عبوسٌ إلى الجهالِ حينَ يراهمُ

فليسَ له منهمُ خدينٌ يهازله

وأزعجه علمٌ عن الجهلِ كلُّه

وما عالمٌ شيئاً كمن هو جاهله

تذكرُ ما يبقى من العيشِ أجلاً

وأشغله عن عاجلِ العيشِ أجله

- وقيل لبعض الحكماء: إن العامة يشنون عليك، فأظهر الوحشة من ذلك، وقال: لعلهم رأوا مني شيئاً أعجبهم، ولا خير في شيء يسرُّهم ويعجبهم.

- ومدح رجل علياً في وجهه، فقال وهو يتهمه: أنا دون ما قلت، وفوق ما في نفسك.

- فالواجب على العاقل ألا يغترَّ بكلام العوام وتثائهم، وألا يثق بعهد ودّهم وإخائهم؛ فإنهم يقبلون مع الطمع، ويدبرون مع الغنى، ويطيرون مع كل ناعق.

- وكان الحسن رحمة الله عليه إذا رآهم يقول: هؤلاء قتلة الأنبياء.

- وكان بعضهم يقول إذا رآهم: قاتلهم الله، هذه الوجوه التي لا تُرى إلا في الشر.

- وكان آخر منهم يقول في العامة: إنهم إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يُعرفوا.

- وقال آخر: إذا اجتمعوا أضروا، وإذا تفرقوا نفعوا؛ يريد أنهم إذا تفرقوا رجع كل واحد منهم إلى صناعته، فيخرز الإسكاف، ويخصف الحذاء، وينسج الحائك، ويخيط الخياط؛ فينتفع بهم الناس.

اسمعْ فهذا الكلامُ

والله ما فيه علة

أَقْلُ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَنْ لَا يَرَى النَّاسَ قَلَّةً

إذا أَمَّنَ الْجَهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً
فَعَرَضُكَ لِلْجَهَّالِ غُنْمٌ مِّنَ الْغَنَمِ
وإنَّ أَنْتَ نَازِيتَ السَّفِيهَ إِذَا نَزَا
فَأَنْتَ سَفِيهٌ مِّثْلُهُ غَيْرُ ذِي حِلْمٍ
وَلَا تَتَعَرَّضُ لِلْسَفِيهِ وَدَارِهِ
بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالسَّلَامِ
فِيخْشَاكَ تَارَاتٍ وَيَرْجُوكَ مَرَّةً
وَتَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزَمِ

- قال لقمان لابنه: يا بني! لا تكن حلواً فتبلع، ولا مرّاً فتلفظ.

- قال أبو العتاهية:

صَانُ عَبْدٌ مَا لَدَيْهِ
وَرَعَى مَا فِي يَدَيْهِ
وَإِذَا هُمْ بِالْإِنِ
قَرْنَ الْحَزَمِ إِلَيْهِ
مَنْ يَلْنُ لِلنَّاسِ جَدًّا
يَثِيبُ النَّاسُ عَلَيْهِ

- قال الشافعي: أصل كل عداوة الصنعة إلى الأندال.
- قال الأصمعي: كتب كسرى إلى عماله: عاملوا وجوه الناس بمحض المودة، وعاملوا الرعية بالرغبة والرغبة، وعاملوا السفّل بالمخافة.
- من طلب الرياسة بالعلم قبل أوانه لم يزل في ذلّ ما بقي.
- قال سفيان بن عيينة: جلسنا إلى عبيد الله بن عمر، فأحطنا به، فظنر إلينا فقال: شئتُ العلم وذهبتُ بنوره، لو أدركني وإياكم عمر رضي الله عنه لأوجعنا ضرباً، ما أنا أهلٌّ لأنْ أُحدّث، ولا أنتم أهلٌّ لأنْ تُحدّثوا، وما مثلي ومثلكم إلا كما قال الأول: افتضحوا فاصطلحوا.
- قال الزهري: والذي نفسي بيده لقد وارت القبور أقواماً لو رأوني معكم سخرؤا مني.
- قال ابن مسعود رضي الله عنه: كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سنة، فإن غيرت يوماً قلتم: هذا المنكر؟ قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: ذاك إذا قلّت أمناءكم، وكثر أمراؤكم، وقلّت فقهاؤكم، وكثر قراؤكم، وتفقّه لغير الدين، والتّمسّت الدنيا بعمل الآخرة.
- قال الله تعالى ذكره فيما نعت يعيب به أحبار بني إسرائيل: «تتفقهون لغير الدين، وتتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل

الآخرة، تلبسون مسوك الضَّان، وتخفون أنفس الذئاب، وتتقون القذى في شرابكم، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام، تطوّلون الصلاة، وتبيّضون الثياب؛ تقتصون بذلك مال اليتيم والأرملة، فبعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضلُّ فيها رأي ذي الرأي، وحكمة الحكيم».

- عن الحسن قال: طلب هذا العلم ثلاثة أصناف من الناس، فاعرفوهم بصفاتهم، فصنف تعلّموه للمراء والجهل؛ وصنف تعلموه للاستطالة والختل، وصنف تعلموه للتفقه والعقل.

فصاحب المراء والجهل متعرّض للقتال في أندية الرجال، يذاكر العلم بخفة الحلم، قد تسريل الجشع، وتبرأ من الورع؛ فدقّ الله تعالى من هذا خيشومه، وقطع منه حيزومه.

وصاحب الاستطالة والختل، ذو خبٍّ وملق، يستطيل على أشباهه من أمثاله، فيختلهم بخلع جبينه؛ فهو لحوانهم هاضم، ولدينه حاطم؛ فأعمى الله عز وجل على هذا خبره، وقطع من آثار العلماء أثره.

وصاحب التفقه والعقل ذو كآبة وحزن، قد تنحّى في برنسة، وقام الليل في هندسة، يعمل ويخشع، قد أوكدتاه يداه، وأعمدتاه رجلاه؛ فهو مقبل على شأنه، عارف بأهل زمانه، قد استوحش من كل ذي ثقة من أقرانه، فشدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه.

- وعن يزيد بن أبي حبيب قال: إن من فتنة العالم الفقيه أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع إن وجد من يكفيه، وفي الاستماع

سلامة وزيادة في العلم، وفي الكلام - إلا من عصم الله - تومُّق وتزِين، وزيادة ونقصان.

قال: ومنهم من يرى أن بعض الناس لشرفه ووجهه أحق بالكلام من غيره، ويزدري المساكين، ولا يراهم من ذلك موضعاً، ومنهم من يخزن علمه، ولا يحب أن يوجد إلا عنده، ومنهم من يأخذ في علمه بأخذ السلطان، حتى يغضب أن يردَّ عليه شيء من قوله، أو يُعقل عن شيء من حقه، ومنهم من ينصب نفسه للفتيا، ولعله يُؤتى بالأمر لا علم له به، فيستحي أن يقول: لا علم لي فيرحم، فيكتب من المتكلفين، ومنهم من يروي كل ما سمع، حتى يروي كلام اليهود والنصارى؛ إذا أراد أن يعزز كلامه.

- قال أبو هريرة رضي الله عنه: ويل للذي لا يعلم، ولو شاء الله لعلمه؛ وويل للذي يعلم وهو لا يعمل به. سبع مرات.

عش موسراً إن شئت أو معسراً

لا بدَّ في الدُّنيا من الغمِّ

إنِّي رأيتُ الناسَ في دهرنا

لا يطلبون العلمَ للعلمِ

إلا مباهاةً لإخوانهم

وحجةً للخصمِ والظلمِ

- قال شعبة: إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون؟!

- وقد ازدحم أصحاب الحديث على هشيم فطرحوه عن حماره، فكان سبب موته.

- قال يحيى بن حسان: كنا عند سفیان بن عیینة وهو يحدث، فازدحمت فرقة من الناس على محمل شيخ ضعيف فانتهبوه، ودقوا يد الشيخ، فجعل الشيخ يصيح بسفيان: لا جعلتُك مما عملوا بي في حلٍّ، وسفيان لا يسمع، حتى نظر إلى رجل من أولئك الذين صنعوا بالشيخ ما صنعوا، فقال له: ما يقول الشيخ؟ قال: يقول: زدنا في السماع.

- قال مالك بن دينار: مثل قرّاء هذا الزمان كمثّل رجل نصب فخاً، ونصب فيه بُرّةً، فجاء عصفور فوقع قريباً منه، فقال له: ما غيبك في التراب؟ فقال: التواضع. قال: ممّ انحنيت؟ قال: من طول العبادة. قال: ما هذه البرّة المنصوبة فيك؟ قال: أعددتها للصائمين. قال: نعمّ الجار أنت. قال: فلما أمسى وغابت الشمس دنا العصفور فأخذ البرّة فخنقه الفخ. قال العصفور: إن كان كل العبّاد يخنقون خنقك فلا خير في العبّاد اليوم.

- وقال أيضاً: أجزى شهادة القراء في كل شيء إلا بعضهم على بعض، وجدتهم أشدّ تحاسداً من التيوس، توثق الشاء فيرسل عليها التيس، فيهب هذا ويهب هذا.

- وزار عبد الله بن المبارك رجلاً من أهل نيسابور - وكان يُنسب إلى الزهد والتقشف - فلما دخل إليه لم يقبل عليه الرجل، ولم يلتفت إليه، فلما خرج من عنده أُخبر بمكانه، وأُعلم أنه عبد الله بن المبارك، فخرج إليه يعتذر ويتصل. وقال: يا أبا عبد الرحمن! اعذرني وعظني، قال: نعم. إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرك على أحد إلا أريت أنه خير منك؛ وذلك أنه رآه معجباً بنفسه، ثم سأل عنه، فإذا هو حائك.

- قال الخطابي: إن من عادة الفتيان ومن أخذ بأخذهم: بشاشة الوجه، وسجاجة الخلق، ولين العريكة. ومن شيمة الأكثرين من القراء: الكرازة وسوء الخلق. فمن انتقل من الفتوة إلى القراءة كان جديراً أن يتباقي معه تلك اللذوفة والهشاشة، ومن تقرأ في صباه لم يخلُ من جفوة أو غلظة.

- إن فتنة من لا علم لهم من القراء فتنة عظيمة على الناس، والمؤونة في معاشرتهم على الخاصة مؤونة غليظة، وذلك أن جهلهم يحملهم على الإعجاب بأنفسهم وسيماهم، والظاهر من شمائلهم يدعو الجهال من العامة إلى تعظيمهم، والميل إليهم، والتعصب لهم.

- فمن رام من الخاصة إرشادهم وتعليمهم فقد تعرّض للامهم، واستهدف لسهامهم؛ فمداراتهم غصّة وهجنة، ومكاشفتهم شهرة وفتنة.

- وشهرهم طوائف من أصحاب العزلة والتبّل، وأهل التصوف والتبّل؛ فإنهم جهال لا يتعلمون، ومردة لا ينقادون، قد ملك الشيطان قيادهم، فهم والعلم على تضاد وخلاف.

اعتزال مجالس السلاطين

مَنْ أَرَادَ الْمَلِكَ وَالرَّ
حَةَ مِنْ هَمٍّ طَوِيلُ
فَلْيَكُنْ فَرْدًا مِنَ النَّاسِ
سِ وَيَرْضَى بِالْقَلِيلِ
وَيَرَى أَنَّ قَلِيلًا
نَافِعًا غَيْرُ قَلِيلٍ
وَيَرَى بِالْحَزْمِ أَنَّ الْحَزْ
مَ فِي تَرْكِ الْفُضُولِ
وَيَدَاوِي مَرَضَ الْوَحْشِ
دَةً بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ
لَا يَمَارِي أَحَدًا مَاعَا
شَ فِي قَالٍ وَقِيلُ
يَلْزَمُ الصَّمْتَ فَإِنَّ الصَّمْ
تَ تَهْذِيبُ الْعُقُولِ
يَنْزُرُ الْكِبَرَ لِأَهْلِيهِ
هَ وَيَرْضَى بِالْخَمْسِ
أَيُّ عَيْشٍ لَامَرِيٍّ يَصْ
بُحٌ فِي حَالٍ ذَلِيلُ

بين قاصِدٍ وعدو
ومداراة جهول
واعتلال من صديق
وتنح عن مالول
واحتراس من ظنون الـ
سوء أو عدل عدول
ومماشاة بغيض
ومقاساة ثقل
أف من معرفة النأ
س على كل سبيل
وتمام الأمر لا تعـ
رف سمحاً من بخيل
فإذا أكمل هذا
كان في مُلك جليل

- قال النبي ﷺ لكعب بن عجرة: «أعاذك الله يا كعب بن عجرة من إمارة السفهاء. قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي، لا يهدون بهديي، ولا يستنّون بسنّتي؛ فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون عليّ حوضي. ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا

منهم، وسيردون عليّ حوضي. يا كعب بن عجرة! لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت أبداً، النار أولى به. يا كعب بن عجرة! الناس غاديان؛ فمبتاع نفسه فمعتقها؛ أو بائعها فموبقها».

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَارِثِ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: أَيِ التَّخْلِیِّ أَعْجَبُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: التَّخْلِیُّ عَلَى عِلْمٍ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْأَدَبِ مِنْ مَسَائِلِهِ عَنْ أَحْمَدَ قَالَ: قَالَ أَبُو سِنَانٍ: وَجَاءَهُ رَجُلَانِ فَقَالَ: تَفَرَّقَا فَإِنَّكُمَا إِذَا كُنْتُمَا جَمِيعًا تَحَدَّثْتُمَا، وَإِذَا كُنْتُمَا وَحْدَانَا ذَكَرْتُمَا اللَّهَ تَعَالَى.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْحُسَيْنِ: إِنَّهُ نَقَلَ مِنَ الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الْأَدَبِ تَأْلِيفَ الْمَرْوُذِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: كَفَى بِالْعَزَلَةِ عِلْمًا، وَإِنَّمَا الْفَقِيهُ الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ.

- قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن على أبواب السلطان فتناً كمبارك الإبل، والذي نفسي بيده، ولا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله.

- قال الحسن: لا تجيئ أميراً وإن دعاك لتقرأ عنده سورة من القرآن؛ فإنك لا تخرج من عنده إلا شراً مما دخلت.

- قال سفيان: إياك والأهواء، إياك والسلطان.

- قال سفيان: إذا أردت أن تنجو فاجتنب ثلاثاً: لا تدخل على سلطان، ولا تدخل في وصية، ولا تحج عن ميت.

وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوَزِيِّ: وَقَدْ كَانَ أَكْثَرُ السَّلَفِ يُؤْتِرُونَ الْعَزْلَةَ عَلَى الْخِلَاطَةِ.

وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى نَفْعِ النَّاسِ بِمَالِهِ أَوْ بَدَنِهِ لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ مَعَ الْقِيَامِ بِحُدُودِ الشَّرْعِ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَزْلَةِ إِنْ كَانَ لَا يَشْتَغِلُ فِي عَزْلَتِهِ إِلَّا بِنَوَافِلِ الصَّلَاةِ وَالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِمَّنْ انْفَتَحَ لَهُ طَرِيقُ عَمَلٍ بِالْقَلْبِ بِدَوَامِ ذِكْرِ أَوْ فِكْرِ فَذَلِكَ الَّذِي لَا يُعْدَلُ بِهِ أَلْبَتَّةَ.

وَقَالَ أَيْضًا: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ تَنَزُّهِ الْعَالِمِ بِالْعِلْمِ؛ فَهُوَ أَنْيَسُهُ وَجَلِيسُهُ، وَقَدْ قَنَعَ بِمَا يَسْلَمُ بِهِ دِينُهُ مِنَ الْمُبَاحَاتِ الْحَاصِلَةِ لَا عَنْ تَكَلُّفٍ وَلَا عَنْ تَضْيِيعِ دِينَ، وَارْتَدَى بِالْعَزْلَةِ عَنِ الدُّلِّ لِلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَالتَّحَفَ بِالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْكَثِيرِ فَيَسْلَمُ دِينُهُ وَدُنْيَاهُ. وَاشْتَغَالَهُ بِالْعِلْمِ يَدُلُّهُ عَلَى الْفَضَائِلِ وَيُفَرِّجُهُ فِي الْبَسَاتِينِ، فَهُوَ يَسْلَمُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالسُّلْطَانِ وَالْعَوَامِّ بِالْعَزْلَةِ، وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا لِلْعَالِمِ، فَإِنَّهُ إِذَا اعْتَزَلَ الْجَاهِلُ فَاتَهُ الْعِلْمُ فَتَخَبَّطَ.

وَقَالَ أَيْضًا: فَإِذَا عَرَفْتَ فَوَائِدَ الْعَزْلَةِ وَغَوَائِلَهَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الْحُكْمَ عَلَيْهَا مُطْلَقًا خَطَأً، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ إِلَى الشَّخْصِ وَحَالِهِ وَإِلَى الْخِلَاطِ وَحَالِهِ وَإِلَى الْبَاعِثِ عَلَى مُخَالَطَتِهِ وَإِلَى الْفَائِتِ بِسَبَبِ مُخَالَطَتِهِ مِنَ الْفَوَائِدِ، وَيُقَاسُ الْفَائِتُ بِالْحَاصِلِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ الْحَقُّ، فَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْإِنْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةُ الْعِدَاوَةِ،

وَالْإِنْبِسَاطُ لَهُمْ مَجْلَبَةٌ لِقُرْنَاءِ السُّوءِ، فَكُنْ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَمَنْ
ذَكَرَ سِوَى هَذَا فَهُوَ قَاصِرٌ، وَإِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنْ حَالِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ
يُحْكَمَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ الْمُخَالَفِ لَهُ فِي الْحَالِ.

- قال زياد لجلسائه: من أغبط الناس عيشاً؟ قالوا: الأمير
وجلساؤه. فقال: ما صنعتُم شيئاً؛ إن لأعواد المنبر هيبة، وإن لقرع لجام
البريد لفزعة، ولكن أغبط الناس عندي رجل له دارٌ لا يجري عليه
كراها، وزوجةٌ صالحةٌ قد رضىته ورضيها؛ فهما راضيان لعيشهما، لا
يعرفنا ولا نعرفه، فلأنه إن عرفنا وعرفناه أتعبنا ليله ونهاره، وأذهبنا
دينه ودنياه.

تَلَوُّمٌ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بَاهِلِيَّةً

زَوَى الدَّهْرُ عَنْهَا كُلَّ طَرَفٍ وَتَالِدِ

حَوْلَهَا النِّسْوَانُ يَرْفَلْنَ فِي الْكِسَا

مَقْلَدَةٌ أَجْيَاذُهَا بِالْقَلَائِدِ

وَأَفْضَلُ عَيْشٍ فِي الشِّتَاءِ تَنَاثُهُ

هَبِيدٌ يَغَادِي أَصْلَهُ بِالْثَرَائِدِ

يَسْرُكُ أَنِي نَلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرُ

مَنْ الْمَلِكِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي

مَغْصُومًا بِالْمَرْهَفَاتِ الْبَوَارِدِ

دعيني تجنني ميتتي مطمئنة
ولم أتجشم هول تلك الموارد
فإن جسيمات الأمور مشوبة
بمستودعات في رؤوس الأسود

وقال أبو زكريا النواوي رحمه الله: مذهب الشافعي وأكثر العلماء
على أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن، وقطع به
في موضع آخر عن الإمام أحمد.

- قال عبدالله بن طاهر:

وكيف عيش امرئ له
كل يوم علم دون بلدة منشور
وإذا الريح حركت صوت
من بعيد فقلبه مدعور
طبل يا غنياً عن العساكر والبغ
ث هنيئاً لك المقيّل الوثير
من له كسرة يعيش عن النأ
س غنياً بها فذاك الأمير
أنست بوحدتي ولزمت بيتي
فدام الأنس لي ونما السرور

وَأَدَبَنِي الزَّمَانُ فَلَا أَبَالِي
هُجِرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ
فَلَسْتُ بِسَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا:
أَسَارَ الْجَنْدُ أَمْ رَكَبَ الْأَمِيرُ؟

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خالط الناس وزايلهم ودينك لا تكلمنه.
يريد: خالطهم ببدنك وزايلهم بقلبك. وليس هذا من باب النفاق،
ولكنه من باب المداراة.

وعن الحسن قال: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول:
هي العقل كله.

ضَنَّ الْأَمِيرُ بِإِذْنِهِ
فَقَعَدْتُ فِي بَيْتِي أَمِيرًا
وَتَرَكْتُ إِمْرَتَهُ لَهُ
وَاللَّهُ مُحْمُودٌ كَثِيرًا

- قال محمد بن شعبة:

بَابُ الْأَمِيرِ عِرَاءُ مَا بِهِ أَحَدٌ
إِلَّا أَمْرٌ وَاضِعٌ كَفَأَ عَلَى ذَقْنِ

كفيتك الأمر لا تلقى أخا أمل

بباب دارك يستعدي على الزمن

إن الرجاء الذي قد كنت آمله

جعلته ورجاء الناس في كفن

وعن محمد بن الحنفية قال: ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف
من لا يجد من معاشرته بدءاً حتى يجعل الله فرجاً أو قال: مخرجاً.

وأنشد المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقته بد

- قال ذو النون المصري:

ملكْتُ نفسي وذاك ملك

ما مثله للملوك ملك

فصرتُ حراً بملك نفسي

فما لخلق علي ملك

- قال الحدادي في الإقلال من صحبة السلطان:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا

فلا يكن لك في أكتافهم ظل

ماذا تؤمِّل من قومٍ إذا غضبُوا
جأزُوا عليك وإن أرضيتهم ملُّوا

وكان العتابي لا يقربُ السلطان ولا يستمنحه، فقيل له: هذا محمد الأمين يهب ما بين العشرة الآلاف والمئة ألف وأنت ربما تحتاج إلى عشرة دراهم، فكيف لا تقصده. فقال: لأنِّي رأيته يهب العشرة الآلاف من غير سبب، ويردي الرجل من السور من غير سبب، فلست أدري أي الرجلين أكون عنده، وليس الذي أُغرِّر به كالذي آملُهُ منه.

قيل للعتابي: إنك تلقى الناس كلهم بالبشر، فقال: دفع ضغينة بأيسر مؤنة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول.

- وبعث بعض العمال إلى أبي عمر صاحب أبي العباس رسولا يقول له: أخبرني بمقدار ما يمرُّ لك في النفقة في كل سنة؛ حتى أجريه لك. فقال للرسول: قل له: عافاك الله، أنا في جراية من إذا سخط علي لم يسقط جرايتي.

قال محمود الوراق:

أخو البشرِ محمودٌ على كلِّ حالةٍ
ولم يعدم البغضاء مَنْ كان عابسا
ويسرعُ بخلُ المرءِ في هتكِ عرضه
ولم أرَ مثلَ الجودِ للعرضِ حارسا

- قال بعض الحكماء: إن الذي يحدثُ للسلطان التَّيه في أنفسهم، والإعجاب بآرائهم، كثرة ما يسمعون من ثناء الناس عليهم، ولو أنهم أنصفوهم فصدقوهم عن أنفسهم لأبصروا الحق، ولم يخفَ عليهم شيء من أمورهم.

- قال بعض الحكماء: خير السلطان زيادة في الحال، وشرُّه هلاك واستئصال.

وقال آخر:

وكم من أخ لا تحتل منه علةً
قطعت ولم يمكنك منه بديلُ
ومن لم يرد إلا خليلاً مهذباً
فليس له في العالمين خليلُ

- قيل ليحيى بن الحكم: عمر بن عبدالعزيز مولده مولده، ومنشؤه منشؤه جاء كما رأيت. يعني في الكمال. قال: إن أباه كان أرسله إلى الحجاز شاباً سوقاً؛ يغضبُ الناس ويُغضبونه، ويمخض الناس ويمخضونه. والله لقد ولي الحجاج وما عربي أحسن أدباً منه، فطالت ولايته، فكان لا يسمع إلا ما يُحبُّ، فمات وإنه لأحمق سيئ الأدب.

وقال بعضهم:

وأحب إذا أحببت حباً مقارباً
فإنك لا تدري متى أنت نازعُ

وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً

فإنك لا تدري متى أنت راجع

وهذا مأخوذ من الحديث وروي مرفوعاً وموقوفاً وهو في الترمذي: أحب حبيبك هوناً ما، فعسى أن يكون بغيبك يوماً ما، وأبغض بغيبك هوناً ما، فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

- أرسل عمر بن هبيرة - وهو على العراق - إلى فقهاء من فقهاء البصرة، وفقهاء من فقهاء الكوفة؛ فكان ممن أتاه من أهل البصرة الحسن، ومن أهل الكوفة الشعبي، فدخلوا عليه فقال لهم: إن أمير المؤمنين يزيد يكتب إلي في أمورٍ أعمل بها، فما تريان؟ قال: فقال الشعبي: أصلح الله الأمير! أنت مأمور والتبعة على من أمرك. فأقبل على الحسن فقال: ما تقول؟ قد قال هذا، قل أنت. قال: اتق الله يا عمر! فكأنك بملك قد أتاك فاستتزلك عن سريرك هذا، وأخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، إن الله تعالى ينجيك من يزيد، وإن يزيد لا ينجيك من الله سبحانه، فإياك أن تعرض لله تعالى بالمعاصي، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ثم قال: فتبعه الأذن فقال: أيها الشيخ! ما حملك على ما استقبلت به الأمير؟ قال: حملني عليه ما أخذ الله تعالى على العلماء في علمهم، ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾. قال: فأخرج عطاياهم، وفضل الحسن.



المبالغة في العزلة مذمومة

- والمبالغة في كل شيء مذمومة، وخير الأمور أوسطها، والحسنة بين السيئتين.

- وقد عاب رسول الله ﷺ الإغراق في عبادة الخالق عز وجل، والحمل على النفس منها ما يؤودها ويكلُّها، فما ظنك بما دونها من باب التخلُّق والتكلف.

- قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله؛ فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى».

- عن ابن عائشة قال: ما أمر الله تعالى عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان؛ فإما إلى غُلُو، وإما إلى تقصير، فبأيهما ظفر قنع.

تسامح ولا تستوفِ حقَّك كلَّه

وأبقِ فلم يستوفِ قَطُّ كريمٌ

ولا تغلُ في شيءٍ من الأمرِ واقتصدْ

كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميمٌ

والطريقة المثلى في هذا الباب ألا تمتنع من حق يلزمك للناس وإن لم يطالبوك به، وألا تنهمك لهم في باطل لا يجب عليك وإن دعوك إليه؛ فإن من اشتغل بما لا يعنيه فاتته ما يعنيه، ومن انحلَّ في الباطل جمد عن الحق، فكن مع الناس في الخير، وكن بمعزل عنهم في الشر، وتوخَّ أن تكون فيهم شاهداً كغائب، وعالماً كجاهل.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْأَفْضَلِ مِنَ الْخَلْطَةِ وَالْعُزْلَةِ عَلَى مَذْهَبَيْنِ
وَعَنْ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ رَوَايَتَانِ: قَالَ: فِي رِوَايَةِ أَبِي
الصَّقَرِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْهَا: إِذَا كَانَتِ الْفِتْنَةُ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَعْتَزِلَهَا الرَّجُلُ
حَيْثُ شَاءَ، فَأَمَّا مَا لَمْ يَكُنْ فِتْنَةً فَلَا مَصَارُ خَيْرٌ.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ شَيْخٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ الْأَعْمَشُ: هُوَ
ابْنُ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى
أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ». رَوَاهُ
التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ الْمُنْثَنَّى عَنْ ابْنِ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ شُعْبَةَ وَقَالَ: قَالَ ابْنُ أَبِي
عَدِيٍّ: كَانَ شُعْبَةُ يَرَى أَنَّهُ ابْنُ عُمَرَ.

- عن وهيب بن الورد قال: قلت لوهب بن منبّه: إني أريد أن
أعتزل الناس؟ فقال لي: لا بدّ لك من الناس وللناس منك، لك إليهم
حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمّ سميعاً، أعمى بصيراً،
سكوتاً نطوقاً.

قال أبو العتاهية:

قُلْ مَنْ يَعْجَبُ مِنْ
حَسَنِ رَجْوَعِي وَمَقَالِي
رُبَّ صَدٍّ بَعْدَ وَدٍّ
وَهُوَ يَبْعُدُ تَقَالِي
قَدْ رَأَيْنَا ذَا كَثِيرًا
جَارِيًا بَيْنَ الرِّجَالِ

- قال أكثم بن صيفي: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، ومعرفتهم مكسبة لقرين السوء، فكن للناس بين المنقبض والمقارب، فإن خير الأمور أوسطها.

إذا ما عممت الناس بالأنس لم تنزل
لصاحب سوء مستفيداً وكاسباً
وإن تقصهم يرموك عن سهم بغضة
فكن خلطاً إن شئت أو كن مجانباً
فلا تدنن منهم ولا تقصينهم
ولكن أمراً بين ذاك مقارباً

- وعن عمر رضي الله عنه قال: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً.

قالوا: لا خير في الناس ولا بد من الناس، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وسئل: أي الناس خير قال: رجل يجاهد في سبيل الله، ثم مؤمن في شعب من الشعاب يتقي ربه ويدع الناس من شره.

وقال عمر رضي الله عنه: الطمع فقر واليأس غنى، والعزلة راحة من جليس السوء، وقرين الصدق خير من الوحدة.

- قال وهب بن منبه: إني وجدت في حكمة آل داود: حق على العالم ألا يشغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه؛ وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يصدقونه

عيوبه، وينصحونه في نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها مما يحل ويحرم؛ فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات، واستجمام للقلوب، وفضل وبلغة، وعلى العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، ممسكاً للسانه، مقبلاً على شانه.

- قال صعصعة بن صوحان لابن أخيه: كنت أحب إلى أبيك منك، وأنت أحب إلي من ابني؛ إذا رأيت المؤمن فخالصه، وإذا رأيت الفاجر فخالفه.

- قال الحسن: يقولون: المداراة نصف العقل. وأنا أقول: هي العقل كله.

وقال مكحول: إن كان في الجماعة فضل فإن في العزلة سلامة.

وقال عمر رضي الله عنه: خالطوا الناس في معاشكم وزايلوهم بأعمالكم.



اعبروها ولا تعمروها

- عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل». وكان ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

- وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر. يعني جهازه للرحيل.

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنه قال: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتْعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾، وكان النبي ﷺ يقول: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها».

ومن وصايا المسيح ﷺ لأصحابه أنه قال لهم: اعبروها ولا تعمروها. وروي عنه أنه قال:

مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَاراً
تَلْكُمُ الدُّنْيَا فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَاراً

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر! أين متاعكم؟ فقال: إن لنا بيتاً نتوجه إليه. فقال: إنه لا بد لك من متاع مادمت ها هنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا ها هنا.

ودخلوا على بعض الصالحين، فقلبوا بصرهم في بيته، فقالوا: إنا نري بيتك بيت رجل مرتحل، فقال: لا أرتحل، ولكن أطرط طرداً.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

قال بعض الحكماء: عجبت ممن الدنيا مولية عنه، والآخرة مقبلة إليه، يشغل بالمدبرة، ويعرض عن المقبلة.

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء، وكتب الله على أهلها منها الطعن، فكم من عامر موثق عن قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطناً فينبغي للمؤمن أن يكون منهجه فيها على حالين الحال الأول: أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، همه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة. وقد أوصى النبي ﷺ ابن عمر رضي الله عنهما أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين: فأحدهما: أن يترك المؤمن نفسه كأنه غريب في الدنيا، يتخيل الإقامة لكن في بلد غربة، فهو غير متعلق القلب

ببلد الغربية، بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه، وإنما هو مقيم في الدنيا؛ ليقضي مرمة جهازه إلى الرجوع إلى وطنه.

يقال: إن في الإنجيل فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام: كن وسطاً، وامش جانباً.

وقال بعضهم: يا حبذا الوحدة من أنيس إذا خشيت من أذى الجليس. وقال سفيان: ما وجدت من يغفر لي ذنباً، ولا يستر علي زلة، فرأيت في الهرب من الناس سلامة.

فاعتزل الناس عن اختلاطهم وأنسهم لا كما فعل بعض الفرق من ترك نحو الجمعة والجماعات لكمال العزلة؛ فإنه ليس بجائز، وأما الوحشة إلى الجبال والمفاوز التي لا عمران في قربها فالترك وإن جاز حينئذ لكن لعله ترك الأفضل؛ إذ فعل السنن المؤكدة أفضل من سائر النوافل فضلاً عن الفرائض والواجبات، فإيثار فضل يدعو إلى ترك السنن المؤكدة والواجبات، ترك الأفضل لأجل الفاضل.

- قال الفضيل بن عياض: المؤمن في الدنيا مهموم حزين، همه مرمة جهازه، ومن كان في الدنيا كذلك فلا هم له إلا التزود بما ينفعه عند العود إلى وطنه، فلا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم في عزهم، ولا يجزع من الذل عندهم.

قال الحسن: المؤمن كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، له شأن، وللناس شأن، لما خلق الله آدم عليه السلام أسكن هو وزوجته

الجنة، ثم أهبطا منها ووعدا بالرجوع إليها وصالحوا ذريتهما، فالمؤمن
أبدًا يحن إلى وطنه الأول، وحب الوطن من الإيمان كما قيل:
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُفُهُ الْفَتَى

وحنينه أبدًا لأول منزل

ولبعض العلماء:

فحيَّ على جناتِ عدنٍ فإنَّها
منازلُك الأولى وفيها المخيمُ
ولكنَّا سبيَ العدو فهل ترى
نعودُ إلى أوطاننا ونسلمُ
وقد زعموا أنَّ الغريبَ إذا نأى
وشطَّتْ به أوطانه فهو مغرمُ
وأيُّ اغترابٍ فوق غريبتنا التي
لها أضحتِ الأعداءُ فينا تحكُّمُ

وكان عطاء السلمي يقول في دعائه: اللهم، ارحم في الدنيا غريبتى،
وارحم في القبر وحشتى، وارحم موقفي غدًا بين يديك.

قال الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: إنما مثلي
ومثلكم ومثل الدنيا كقوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما
سلكوا منها أكثر أو ما بقي أنفدوا الزاد، وحسروا الظهر، وبقوا بين

ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة؛ فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل يقطر رأسه ماءً. فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: أعطوني عهدكم ومواثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهدهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال: فأوردتهم ماء ورياضاً خضراً، فمكث فيهم ما شاء الله. ثم قال: يا هؤلاء! الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم. فقال جل القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا. وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهدكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه، فوالله ليصدقنكم في آخره. قال: فراح فيمن تبعه وتخلف بقيتهم، فنزل بهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل. أخرجه ابن أبي الدنيا، وأخرجه الإمام أحمد من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ بمعناه مختصراً.

فهذا المثل في غاية المطابقة بحال النبي ﷺ مع أمته، فإنه أتاهم والعرب إذ ذاك أذل الناس وأقلهم وأسوأهم عيشاً في الدنيا وحالاً في الآخرة، فدعاهم إلى سلوك طريق النجاة وظهر لهم من براهين صدقه كما ظهر من صدق أمر الذي جاء إلى القوم الذين في المفازة

وقد نفذ مأوهم، وهلك ظهرهم برؤيته في حلة رجل يقطر رأسه ماءً، ودلهم على الماء والرياض المعشبة، فاستدلوا بهيئته وجماله وحاله على صدق مقالته فاتبعوه، ووعد من اتبعوه بفتح بلاد فارس والروم وأخذ كنوزها، وحذرهم من الاغترار بذلك والوقوف معهم، وأمرهم بالتجزي من الدنيا بالبلاغ والجد والاجتهاد في طلب الآخرة والاستعداد لها، فوجدوا ما وعدهم به حقاً كله، فلما فتحت عليهم الدنيا، كما وعدهم اشتغل أكثر الناس بجمعها واكتنازها والمنافسة فيها، ورضوا بالإقامة فيها، والتمتع بشهواتها، وتركوا الاستعداد للآخرة التي أمرهم بالجد والاجتهاد في طلبها، وقيل قليل من الناس وصيته في الجد في طلب الآخرة والاستعداد لها، فهذه الطائفة القليلة نجت ولحقت نبيها ﷺ في الآخرة، حيث سلكت طريقته في الدنيا، وقبلت وصيته، وامتلئت ما أمرت به.

وأما أكثر الناس فلم يزالوا في سكرة الدنيا والتكاثر فيها، فشغلهم ذلك عن الآخرة حتى فاجأهم الموت بغتة على هذه الغرة، فهلكوا وأصبحوا ما بين قتيل وأسير.

وما أحسن قول يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها لم يفق إلا في عسكر الموت نادماً مع الخاسرين.

الحال الثاني: أن يترك المؤمن نفسه في الدنيا كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، وإنما هو سائر في قطع منازل السفر حتى ينتهي به

السفر إلى آخره، وهو الموت، ومن كانت هذه حاله في الدنيا فهمته
تحصيل الزاد للسفر، فليس له همة للاستكثار من طلب متاع الدنيا،
ولهذا وصى النبي ﷺ جماعة من أصحابه أن يكون بلاغهم من الدنيا
كزاد الراكب.

قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟

قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة.

وقال الحسن: إنما أنت أيام مجموعة، كلما مضى يوم مضى بعضك.

وقال: ابن آدم! إنما أنت بين مطيتين يوضعانك؛ يوضعك الليل إلى
النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلماك إلى الآخرة، فمن أعظم منك
يا ابن آدم خطراً؟!

وقال: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

وقال داود الطائي: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة
مرحلة، حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم؛ فإن استطعت أن
تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن
قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاضٍ
من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغت.

وكتب بعض السلف إلى أخ له: يا أخي! يخيل لك أنك مقيم، بل
أنت دائب السير تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك، والدنيا
تطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكارٍ عليك يوم التغابن.

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر
ولا بد من زاد لكل مسافر
ولا بد للإنسان من حمل عدة
ولا سيما إن خاف صولة قاهر

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره،
وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟ كيف يفرح من يقوده عمره إلى
أجله، وتقوده حياته إلى موته؟

وقال الفضيل بن عياض لرجل: كم أنت عليك؟ قال: ستون سنة.
قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ.
فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟ تقول إنا لله وإنا إليه راجعون، فمن
عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه
موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليعدّ للسؤال جواباً.
فقال الرجل: فما الحيلة؟

قال: يسيرة.

قال: ما هي؟

قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى؛ فإنك إن أسأت فيما
بقي أخذت بما مضى وما بقي.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

وإن امرأً قد سار ستين حجةً

إلى منهلٍ من ورده لقريبُ

قال بعض الحكماء: من كانت الأيام والليالي مطاياها، سارت به

وإن لم يسر.

وفي هذا قال بعضهم:

وما هذه الأيام إلا مراحلُ

يحثُّ بها داعٍ إلى الموتِ قاصدُ

وأعجبُ شيءٍ لو تأملتَ أنها

منازلُ تطوى والمسافرُ قاعدُ

وقال آخر:

ويا ويحَ نفسٍ من نهارٍ يقودُها

إلى عسكرِ الموتى وليلٍ يذودُها

وقال الحسن: لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار،

وتقريب الآجال، هيهات! قد صحبا نوحًا وعادًا وشمود وقرونًا بين ذلك

كثيراً، فأصبحوا قد أقدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم، وأصبح

الليل والنهار غضين جديدين لم ييلهما ما مرا به، مستعدين لمن بقي

بمثل ما أصاب به من مضى.

وكتب الأوزاعي إلى أخ له: أما بعد: فقد أحيط بك من كل جانب،
واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والمقام بين يديه، وأن
يكون آخر عهدك به. والسلام.

نسيرُ إلى الآجالِ في كل لحظةٍ
وأيامُنَا تُطوى وهنَّ مراحلُ
ولم أرَ مثلَ الموتِ حقاً كأنه
إذا ما تخطَّته الأمانِي باطلُ
وما أقبحَ التفريطَ في زمنِ الصِّبا
فكيفَ به والشيبُ للرأسِ شاعِلُ
ترحلُ من الدُّنيا بزادٍ من التقى
فعمركَ أيامٌ وهنَّ قلائِلُ

وأما وصية ابن عمر فهي مأخوذة من هذا الحديث الذي رواه،
وهي متضمنة لنهاية قصر الأمل، وأن الإنسان إذا أمسى لم ينتظر
الصباح، وإذا أصبح لم ينتظر المساء، بل يظن أن أجله يدرك قبل
ذلك، وبهذا فسر غير واحد من العلماء الزهد في الدنيا.

قال المروزي: قيل لأبي عبد الله -يعني أحمد- أي شيء الزهد في
الدنيا؟ قال: قصر الأمل، من إذا أصبح قال: لا أمسى.
قال: وهكذا قال سفيان.

قيل لأبي عبد الله: بأي شيء نستعين على قصر الأمل؟ قال: ما ندري! إنما هو توفيق.

قال الحسن: اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم: ما أملك؟ قال: ما أتى عليَّ شهر إلا ظننت أنني سأموت فيه. قال: فقال صاحبه: إن هذا هو الأمل. فقالا لأحدهم: فما أملك؟ قال: ما أتت عليَّ جمعة إلا ظننت أنني سأموت فيها. قال: فقال صاحبه: إن هذا هو الأمل. فقالا للآخر: فما أملك؟ قال: ما أمل من نفسه في يد غيره.

قال داود الطائي: سألت عطوان بن عمرو التيمي فقلت: ما قصر الأمل؟ قال: ما بين تردد النفس. فحدث بذلك الفضيل ابن عياض فبكي وقال: يقول: يتنفس فيخاف أن يموت قبل أن ينقطع نفسه، لقد كان عطوان من الموت على حذر.

وقال بعض السلف: ما نمت نوماً قط فحدثت نفسي أنني أستيقظ منه، وكان حبيب أبو محمد كل يوم يوصي بما يوصي به المحتضر عند موته، من يغسله ونحوه، وكان يبكي كلما أصبح أو أمسى، فسئلت امرأته عن بكائه فقالت: يخاف الله إذا أمسى ألا يصبح، وإذا أصبح ألا يمسي.

وكان محمد بن واسع إذا أراد أن ينام قال لأهله: أستودعكم الله؛ فاعلموا أن تكون منيتي لا أقوم منها، وكان هذا دأبه إذا أراد النوم.

وقال بكر المزني: إن استطاع أحدكم ألا يبيت إلا وعهده عند رأسه مكتوب فليفعل، فإنه لا يدري لعله أن يبيت في أهل الدنيا، ويصبح في أهل الآخرة.

وكان أويس إذا قيل له: كيف الزمان عليك؟ قال: كيف الزمان على رجل إن أمسى يظن أنه لا يصبح، وإن أصبح ظن أنه لا يمسي، فمبشر بالجنة أو النار.

وقال عون بن عبد الله: ما أنزل الموت كنه منزلته من عد غداً من أجله، كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمل لغد لا يدركه، إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لبغضتم الأمل وغروره.

وكان يقول: إن من أنفع أيام المؤمن له في الدنيا ما ظن أنه لا يدرك آخره.

وكانت امرأة متعبدة بمكة إذا أمست قالت: يا نفس! الليلة ليلتك لا ليلة لك غيرها فاجتهدت، فإذا أصبحت قالت: يا نفس! اليوم يومك لا يوم لك غيره، فاجتهدت.

وقال بكر المزني: إذا أردت أن تتفعل صلاتك فقل: لعلّي لا أصلي غيرها. وهذا مأخوذ مما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «صل صلاة مودع». وأقام معروف الكرخي الصلاة، ثم قال لرجل: تقدم فصل بنا. فقال الرجل: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها. فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل؛ فإنه يمنع خير العمل.

وطرق بعضهم بابَ أخ له، فسأل عنه، فقيل له: ليس هو في البيت. فقال: متى يرجع؟ فقالت له جارية من البيت: من كانت نفسه في يد غيره من يعلم متى يرجع؟!

ولأبي العتاهية:

وَمَا أَدْرِي وَإِنْ أَمَلْتُ عَمْرًا
لَعَلِّي حِينَ أَصْبَحُ لَسْتُ أُمْسِي
أَلَمْ تَرَ أَنَّ كُلَّ صَبَاحٍ يَوْمٍ
وَعَمْرُكَ فِيهِ أَقْصَرُ مِنْهُ أَمْسٍ

وهذا البيت الثاني أخذه مما روي عن أبي الدرداء والحسن أنهما قالا:
ابن آدم! إنك لم تزل في هدم عمرك منذ أن سقطت من بطن أمك.
ومما أنشد بعض السلف:

إِنَّا لَنَنْزَحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا
وَكُلَّ يَوْمٍ مَضَى يَدْنِي مِنَ الْأَجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا
فَإِنَّمَا الرِّبْحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ

وقوله ﷺ: «وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك». أي:
اغتنم الأعمال الصالحة في الصحة قبل أن يحول بينك وبينها السقم،
وفي الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت.

وفي رواية: «فإنك يا عبد الله، لا تدري ما اسمك غداً». أي: لعلك غداً من الأموات دون الأحياء.

وقد روي معنى هذه الوصية عن النبي ﷺ من وجوه، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفرغ».

وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

وقال غنيم بن قيس: كنا نتواعظ في أول الإسلام: ابن آدم! اعمل في فراغك قبل شغلك، وفي شبابك لكبرك، وفي صحتك لمرضك، وفي دنياك لآخرتك، وفي حياتك لموتك.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، وخاصة أحدكم، أو أمر العامة».

وفي الترمذي عنه عن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن العمل، فبعضها يشغل عنه إما في خاصة الإنسان كفقره وغناه، ومرضه وهرمه، وموته، وبعضها عام كقيام الساعة وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء في حديث آخر: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم».

وبعض هذه الأمور العامة لا ينفع بعدها عمل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً».

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

وفيه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

وأخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه من حديث صفوان بن عسال عن النبي ﷺ قال: «إن الله فتح باباً قبل المغرب عرضه سبعون عاماً للتوبة، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه».

وفي المسند عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن معاوية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل».

وروى عن عائشة أنها قالت: «إذا خرج أول الآيات؛ طرحت الأقلام، وحبست الحفظة، وشهدت الأجساد على الأعمال».

وكذا قال كثير بن مرة ويزيد بن شريح وغيرهما من السلف: إذا طلعت الشمس من مغربها طبع على القلوب بما فيها، وترفع الحفظة الأعمال، وتؤمر الملائكة ألا يكتبوا عملاً.

وقال سفيان الثوري: إذا طلعت الشمس من مغربها طوت الملائكة صحائفها، ووضعت أقلامها.

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل ألا يقدر عليها ويحال بينها وبينه إما بمرض أو موت، أو بأن يدركه بعض هذه الآيات التي لا يقبل معها عمل.

قال أبو حازم: إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبقَ

له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل، فلا تنفعه الأمنية، قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما من ميت يموت إلا ندم. قالوا: وما ندامته؟ قال: إن كان محسناً ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون استعتب».

فإذا كان الأمر على هذا فيتعين على المؤمن اغتنام ما بقي من عمره، ولهذا قيل: إن بقية عمر المؤمن لا قيمة له.

وقال سعيد بن جبیر: كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة.

وقال بكر المزني: ما من يوم أخرجه الله إلى الدنيا إلا يقول: يا ابن آدم! اغتمني؛ لعله لا يوم لك بعدي. ولا ليلة إلا تتادي: ابن آدم! اغتمني؛ لعله لا ليلة لك بعدي.

ولبعضهم:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع

فحسب أن يكون موتك بغتة

كم صحيح مات من غير سُقم
ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

وقال محمود الوراق:

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً
وأعقبه يومٌ عليك جديدُ
فإن كنت بالأمسِ اقترفتِ إساءةً
فثنّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ
فيومك إن أعقبته عادَ نفعه
عليك وماضي الأمسِ ليس يعودُ
ولا تُرجِ فعلَ الخيرِ يوماً إلى غدٍ
لعلَّ غداً يأتي وأنتَ فقيدُ



وخيرُ جليسٍ في الأنامِ كتابُ

قال الجاحظ في الكتاب: الكتاب نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل.

والكتاب وعاءٌ مُلئٌ علماً، وظرفٌ حُشيٌّ ظرفاً، وإناءٌ شُحنَ مزاحاً وجداً، إن شئتَ كان أبين من سحبانٍ وائلٍ، وإن شئتَ كان أعياناً من باقلٍ، وإن شئتَ ضحكت من نوادره، وإن شئتَ عجبت من غرائب فرائده، وإن شئتَ ألهتكَ طرائفه، وإن شئتَ أشجبتك مواعظه، ومن لك بواعظٍ مله، وبزاجرٍ مفرٍ، وبناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أخرس، وبباردٍ حار؟!

ومن لك بطبيبٍ أعرابي، ومن لك برومي هندي، وبفارسي يوناني، وبقديم مولد، وبميت ممتع؟!

ومن لك بشيءٍ يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده؟!

وبعد:

فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تظل في حجر، وناطقاً ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء؟

ومن لك بمؤمن لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، وأحفظ لما استحفظ من الأدميين، ومن الأعراب المعربين، بل من الصبيان قبل اعتراض الاشتغال، ومن العميان قبل التمتع بتميز الأشخاص، حين العناية تامة لم تنقص، والأذهان فارغة لم تنقسم، والإرادة وافرة لم تتشعب، والطينة لينة، فهي أقبل ما تكون للطابع، والقضيب رطب، فهو أقرب ما يكون من العلوق، حين هذه الخصال لم يخلق جديدها، ولم يوهن غريها، ولم تتفرق قواها.

ومن كلامهم: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر.

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر: أكتب شعري فالكتاب أحب إليّ من الحفظ؛ لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم يُنشدّها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام.

وعبت الكتاب، ولا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفايةً، ولا أقلّ جناية، ولا أقلّ إملالاً وإبراماً، ولا أحفل أخلاقاً، ولا أقلّ خلافاً وإجراماً، ولا أقلّ غيبة، ولا أبعد من عضيّة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً، ولا أقلّ تصلفاً وتكلفاً، ولا أبعد من مرأى، ولا أترك لشغبٍ، ولا أزهد في جدالٍ، ولا أكف عن قتالٍ، من كتاب.

ولا أعلم قريناً أحسن موافاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر معونة،
ولا أخف مؤونة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أجمع أمراً، ولا أطيّب ثمرة،
ولا أقرب مجتئى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل إبان، من كتاب.

ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه،
وإمكان وجوده، يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة، ومن آثار
العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة،
والمذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، ومن الإخبار عن القرون
الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمع
لك الكتاب.

قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤
فوصف نفسه تبارك وتعالى بأنه علّم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم،
واعتمد بذلك في نعمه العظام، وفي أياديه الجسام.

وقد قالوا: القلم أحد اللسانين.

وقالوا: كل من عرف النعمة في بيان اللسان، كان بفضل النعمة
في بيان القلم أعرف.

ثم جعل هذا الأمر قرآناً، ثم جعله في أول التنزيل، ومستفتح
الكتاب.

- قال بيرم التونسي:

ليلي لرَبِّي وأسفاري وأوراقِي
لكنَّ نهاري لأصحابي وأرزاقِي
الليلُ إنَّ طافَ يُلفِئني بمكتبتي
كراهبِ الديرقوأمأ على ساقِ
أتلُو وأكتبُ أو أدعُو بملءِ دمي
حتَّى يميلَ كرى رأسي وأحداقي
وأسبقُ الديكَ صحواً كي أعودَ لها
حتَّى الصباحِ فأسعى بينَ آفاقي

- وقال محمد علي السنوسي:

في سبيلِ العلومِ والآدابِ
ذابَ قلبي هوى وشابَ شبابي
عاشقُ مدنفٍ ومحبوبي الحر
فُ وكم للحرفِ من أحبابِ
رأسُ مالي وقد بدأتُ من الصفِ
ر طموحي وهمتي وكتابي
وأبُّ فاضلٍ تعهدَ إرشا
دي إلى منهجِ الهدى والصَّوابِ

حين كنا ولا تسل كيف كنا
نعصر الماء من أديم السراب
نحفظ الدرس في ضياء (الفوانيد
س) على شاحب من النور خاب
ونطيل الجلوس فوق حصير
في (الكتاتيب) غارق في التراب
حبر أقلامنا من الفحم مصنو
ع وأوراقنا من الأخشاب
لست أدري ما (الجامعات) وما فيه
ها وما فيها من الناجحين والرساب
جامعاتي هي الحياة وأستا
ذي هو الدهر صانع الطلاب
والشهادات في يدي نتاج
أدبي وموقف إجابي
ما عرفت الفراغ يوماً ولا الله
و ولا لعبة من الألعاب
لعبتي إن لعبت سفر أناجيد
ه وصحف أجلو بهن اكتتابي

واقْتناءُ الكتابِ أشْهَى إلى نَفِ
سِي وأَحْلَى مِنْ اقْتِناءِ الثِيَابِ
اقْرَأْ اقْرَأْ رِسالةَ اللهِ جاءَتْ
لنَبِيِّ الهَدْيِ أَجْلُ خُطابِ
لَفْظَةُ فَذَّةٌ بِها أَصْبَحَ الجَدِ
بُ خَصيباً في عَالَمِ الأَعْرابِ
وانْطَلَقْنا وَالرَّيحُ تَعْصِفُ أَحيا
نأُ وتَرْمِي بِالزُّورِقِ المَنْسَابِ
وَشَراعُ الحِياةِ في لُجْجِ المَوْ
جِ مَصْرُ عَلى اجْتِيازِ العُبابِ
قَرَحَتْ عَينِي القِراءةُ تَعْزِيزِ
بأُ وَحَبَّيْ لَها يَزِيدُ عَذابِي
كَلِّما رَمَتْ عَنْ هَواها سَلَواً
عَدْتُ مَنْ رَغَبَتِي بِغَيرِ جِوابِ
ذاكِ دأْبِي مَدى الزَّمانِ وَطَبِيعِي
أَبْداً في إقامَتِي واغْتِرابِي
عاشِقُ الفَنِّ ما لَهِ مِنْ دَواءِ
أَعْجَزَ الطَّبِّ والأَطْباءُ ما بِي

- وقال صالح جودت:

كنت ألقاك بدارِ الكتبِ تمسِّي وتباكُرُ
وترى في الكتبِ قبلَ الناسِ أحباباً وسامرُ
عاكفاً كالراهبِ الهائمِ في ظلِّ الشعائرِ
نابشاً بينَ التواريخِ كجلابِ الحفائرِ
غارقاً بينَ القواميسِ كغواصِ الجواهرِ
ترضعُ الأوراقَ بالحكمةِ منْ تُدِّي المحابرِ
وتصلي لكتابِ ذاهبِ الطبعةِ نادرُ
وتضحِّي زهرةَ العمرِ وطاقاتِ المحاجرِ
حافظاً كلَّ قديمٍ دارساً كلَّ معاصرِ
زاهداً في نعمةِ الدنيا على الحرمانِ صابرِ
هاتفاً يا عصابةَ المالِ وطلابِ المظاهرِ
كلَّ ما أطلبُ منْ دنياكم ديوانَ شاعرِ

- دخل الأديب يحيى بن المطهر على العلامة محمد بن علي الشوكاني، فوجده داخل كوة (مكان ضيق في البيت) ينقب عن الكتب.
- يقول الشوكاني واصفاً حالته تلك وفرحته بالكتب: كنت في الكوة، ففتح الباب فرأيت الكتب فحصل معي حاصل، سألت منه الدموع، مع أنها لا تسيل على بيت ولا أهل ولا مال، فقلت في تلك الحال:

سلامٌ على تلك الدفاتر إن لي
إليها غراماً فوق كل غرام
سلامٌ عليها إن حييتُ وإن أمتُ
فهذا وداعٌ والدموعُ دوام
على أنها ألقَتْ مقاليدَ وصلها
إليّ فهامتُ بي كمثلي هيامي
ولكنني لو عشتُ ما عشتُ لم أقل
شفيتُ غرامي أو قضيتُ مرامي

- قال بعضهم: ولفساد أهل الزمان، وقلة من يسكن إلى مودته، ويؤمن من خلته، أثر أهل الفضل مجالسة الكتب، وجعلوها عوضاً مما فاتهم من مجالسة الأصحاب، ووصفوها ووصفوا نفوسهم بالإقبال عليها.

- ومن ذلك قول الشاعر أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني:

ما تطعمتُ لذة العيشِ حتّى
صرتُ للبيتِ والكتابِ جليساً
ليسَ شيءٌ أعزُّ عندي من العُدِ
م فلم أبتغِ سواه أنيساً
إنما الدُلُّ في مخالطة النّا
س فدعّه وعشْ عزيزاً رئيساً

- قال الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي رحمته الله في العزلة ومجالسة الكتب: من عرف الشرع كما ينبغي، وعلم حالة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة وأكابر العلماء؛ علم أن أكثر الناس على غير الجادة، وإنما يمشون مع العادة؛ يتزاوون فيغتاب بعضهم بعضاً، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه، ويحسده إن كانت نعمة، ويشمت به إن كانت مصيبة، ويتكبر عليه إن نصح له، ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا، ويأخذ عليه العثرات إن أمكن، هذا كله يجري بين المنتمين إلى الزهد لا الرعاع.

فالأولى بمن عرف الله سبحانه، وعرف الشرع وسير السلف الصالحين، الانقطاع عن الكل؛ فإن اضطر إلى لقاء منتسب إلى العلم والخير؛ تلقاه وقد لبس درع الحذر، ولم يطل معه الكلام، ثم عجل الهرب منه إلى مخالطة الكتب التي تحوي تفسيراً لنطاق الكمال.

وقال: ولا تحسن اليوم المجالسة إلا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف، فأما مجالسة العلماء فمخاطرة؛ إذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة في الأغلب، ومجالسة العوام فتنة للدين إلا أن يحترز في مجالسهم، ويمنعهم من القول، فيقول هو ويكلفهم السماع، ثم يستفز للبعد عنهم.

ولا يمكن الانقطاع الكلي إلا بقطع الطمع، ولا ينقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير، أو أن يتجر بتجارة، أو أن يكون له عقار يستغله،

فإنه متى تشئت الهم، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم وتوفر على ذكر الآخرة؛ فذاك الذي ينفع ويُنتفع به، والله الموفق.

وقال: كان المريد في بداية الزمان إذا أظلم قلبه، أو مرض لبُّه قصد زيارة بعض الصالحين، فانجلى ما أظلم. واليوم متى حصلت ذرة من الصدق لمريد، فردته في بيت عزلة، ووجد نسيماً من روح العافية، ونوراً في باطن قلبه، وكاد همه يجتمع وشتاته ينتظم، فخرج فلقى من يومئذ إليه بعلم أو زهد؛ رأى عنده البطالين، ويجري معهم في مسلك الهذيان الذي لا ينفع، ورأى صورته صورة منمّس، وأهون ما عليه تضييع الأوقات في الحديث الفارغ؛ فما يرجع المريد عن ذلك الوطن إلا وقد اكتسب ظلمة في القلب، وشتاتاً في العزم، وغفلة عن ذكر الآخرة، فيعود مريض القلب، يتعب في معالجته أياماً كثيرة، حتى يعود إلى ما كان فيه، وربما لم يعد؛ لأن المريد فيه ضعف.

فإذا رأى شيخاً قد جرب وعرف، ثم يؤثر البطالة لم يأمن أن يتبعه الطبع.

فالأولى للمريد اليوم ألا يزور إلا المقابر، ولا يفاوض إلا الكتب التي قد حوت محاسن القوم، وليستعن بالله تعالى على التوفيق لمراضيه؛ فإنه إن أراد هياًه لما يرضيه.

وقال: فإن أردت اللذة والراحة؛ فعليك أيها العالم، بعقر بيتك، وكن معتزلاً عن أهلِكَ؛ يطب لك عيشك، واجعل للقاء الأهل وقتاً؛ فإذا عرفوه تصنعوا للقاءك، فكانت المعاشرة بذلك أجود.

وليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلقات فكرك، واحترس من لقاء الخلق، وخصوصاً العوام، واجتهد في كسب يعفك عن الطمع، فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا.

وقد قيل لابن المبارك: ما لك لا تجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين. وأشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه.

ومتى رُزق العالم الغنى عن الناس والخلوة؛ فإن كان له فهم يجلب التصانيف؛ فقد تكاملت لذته، وإن رزق فهماً يرتقي إلى معاملة الحق ومناجاته، فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات إن شاء الله.

نسأل الله عز وجل همة عالية تسمو إلى الكمال، وتوفيقاً لصالح الأعمال، فالسالكون طريق الحق أفراد.

- وأنشد محمد بن أحمد بن الحداد الأندلسي:

ذهبَ الناسُ فانفرادي أنيسي

وكتابي محدثي وجليسي

صاحبٌ قد أمنتُ منه ملاً

واختلاً وكلّ خلقٍ بئس

ليس في نوعه بحيٍّ ولكن

يلتقي الحيّ منه بالرموس

- كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه يعني: النظر في الحديث.

وفي رواية قال: قيل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن! تكثر القعود في البيت وحدك، قال: أنا وحدي؟! أنا مع النبي ﷺ وأصحابه. وفي رواية أخرى: وأنا مع الأنبياء والأولياء والحكماء، والنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

وقال شقيق بن إبراهيم البلخي: قلنا لعبد الله بن المبارك: إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال: أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين. قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أذهب أنظر في علمي، فأدرك آثارهم وأعمالهم. ما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس، فإذا كانت سنة متين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله، وفرّ من الناس فرارك من أسد، وتمسك بدينك يسلم لك لحمك ودمك.

- قال محيي الدين بن عربي: دخلت على بعض من مشايخي، وقد جلس في حضيرة من كتبه وقال: إذا أردت محادثة الحق أحدث المصحف، فلا أزال أناجيهِ ويناجيني، وإذا أردت محادثة الرسول ﷺ، أخذت كتاب حديث، وكذلك كل من أردت مناجاته من الأولين والآخرين، ثم إنني أجالس من لا ينمُّ بمجلسي، ولا ينقل حديثي.

- قال يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري: دخلت على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في بيت كتبه وبين يديه السراج وهو يصنّف. فقلت له: يا أبة! هذا وقت القائلة ودخان السراج بالنهار يؤذيك، فلو نفست عن نفسك. فقال: يا بني! تقول لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين؟!

قال أبو الفرج المعافى بن زكريا: وقد كان بعض من كان له في الدنيا صيت ومكانة عاتبني على ملازمتي المنزل، وإغبابي زيارته، وإقلالتي ما عودته من الإمام به وغشيان حضرته، وقال لي: أما تستوحش الوحدة؟ ونحو هذا من المقالة. فقلت له: أنا في منزلي إذا خلوت من جلس يقصد مجالستي، ويؤثر مساجلتي، في أحسن أنس وأجمله، وأعلاه وأنبله؛ لأنني أنظر في آثار الملائكة والأنبياء والأئمة والعلماء، وخواص الأعلام الحكماء، وإلى غيرهم من الخلفاء والوزراء، والملوك والعظماء، والفلاسفة والأدباء، والكتّاب والبلغاء، والرجاز والشعراء، وكأنني مجالس لهم، ومستأنس بهم، وغير ناءٍ عن محاضرتهم لوقوفني على أنبائهم، ونظري فيما انتهى إلي من حكمهم وآرائهم.

سئل أحد المنزوين بين الكتب للدراسة والتأليف بين أقوام لا يعملون مثله، ولا يودون من يعمل مثله وأي عمل صالح: لماذا لا تلتقي بالناس كما يلتقي غيرك؟ فأجاب: أأخرج إلى محب متخاذل، أو مبغض مخاتل، أو منافق مجامل، أو حسود مزامل، أو جاهل متناول، أو عاقل مماتل، أو لذي برّ غير عاجل، أم لجمع حطام زائل بين متكالب عليه وصائل؟

يا ترى أنفق الوقت - والوقت من ذهب - في أجواء تأخذ
بالأنفاس؟ أم في أجواء بين جلاس، أفيد وأستفيد من بينها ما هو
خير لي وللناس؟

أما إذا ابتغيت لي باللقاء، وغرة المال، فالمال إلى زوال، والعلم باقٍ
مدى الأجيال.

- قيل لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب: توحشت من الناس
جداً، فلو تركت لزوم البيت بعض الترك، وبرزت للناس كانوا ينتفعون
بك وينفعك الله بهم؟

فمكث ساعة، وفي رواية: دخل رجل على أبي العباس ثعلب، وهو
ينظر في الكتاب فقال: إلى متى هذا؟ فأنشد يقول:

إنَّ صَحْبَنَا الْمُلُوكَ تَاهُوا وَعَقُّوا

وَاسْتَخَفُّوا كِبَرًا بِحَقِّ الْجَلِيسِ

أَوْ صَحْبَنَا التَّجَارَ صَرْنَا إِلَى الْبُؤْسِ

وَعَدْنَا إِلَى عَدَادِ الْفُلُوسِ

فَلزَمْنَا الْبُيُوتَ نَسْتَخْرِجُ الْعُدَّ

مَ وَنَمْلًا بِهِ بَطُونُ الطُّرُوسِ

وَقَنَعْنَا بِمَا رَزَقْنَا فَصَرْنَا

أَمْرَاءَ عَلَى الْمُلُوكِ وَالرُّؤُوسِ

لو تركنا ذاك كنا ظفرنا
من أمانينا بعلق نفيس
غير أن الزمان أغنى بنيه
حسدونا على حياة النفوس

- قال أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان:

أرحت نفسي من الإيناس بالناس
لما عنيت عن الأكياس بالياس
وصرت في البيت وحدي لا أرى أحداً
بنات فكري وكتبي هن جلاسي

- كان أبو عيسى بن لبون من قواد المأمون بن ذي النون، قال في زهده وإقلاعه، والتزامه بيته عند انخلاءه:

نفضت كفي عن الدنيا وقلت لها:
إليك عني فما في الحق أغتب
من كسر بيتي لي روض ومن كتبي
جليس صدق على الأسرار مؤتمن
أدري به ما جرى في الدهر من خبر
فعنده الحق مسطور ومختزن
وما مصابي سوى موتي ويدفني
قوم وما لهم علم بمن دفنوا

- قال مجير الدين أحمد بن الحسن الخياط:
ومصاحب الأيام لم يترك له
كُرَّ الليالي والخطوب أصحابا
والمرء يحقر معدماً فإذا بدا
إثراؤه للناس كان مهابا
والدهر ما برحت هموم صروفه
تعشى العيون وتشغل الألبابا
وإذا نبت بالأكرمين مواطن
شكنوا السروج وحركوا الأقتابا
وإذا قست كبد الزمان فلن
يمكره نهاب كل غنيمه وهابا
وممارس الدنيا الدنية لم يهب
منها طعان حوادث وضرابا
حامى الحقيقة ليس يخفر ذمة
ومتى دعاه الصارخون أجابا
إن قال أودع في المسامع حكمة
أو صال ودعت الرؤوس رقابا
فاهجر بني الدنيا وسالمهم تفر
وبمحض نصحي لا تكن مرتابا

وَإِذَا أَرَدْتَ مُجَالِسًا وَمُؤَانِسًا
فَاجْعَلْ جَلِيسَكَ وَالْأَنْيَسَ كِتَابًا

- قال عمر بن المظفر بن الوردى:

مَجَالِسٌ مَوْثَمَنٌ
يَحْمَلُ عَنِّي الْكَافَا
يَأْتِي إِذَا جَالَسَنِي
بِالْكُبَرَا وَالْخُلَفَا
أَرَاهُ لِي فِي خِلَوْتِي
عَنْ كُلِّ خَلٍّ خَلَفَا

- قال أحمد الصافي النجفي:

أَهْوَى الْهَدَوَى وَبِلَدَتِي
فِيهَا الضَّجِيجُ مَخِيمٌ
فَأَفْرُ لِّلصَّحْرَا فَتَزُ
عَجْنِي الْوَحُوشُ تَهْمُهُمْ
فَأَوْثُمُ بَسْتَانَا فَأَسُ
مَعُ طَيْرِهِ يَتَرْنُمُ
فَأَزُورُ مَقْبَرَةً لِأَنَّ
بِهَا الْأَهَالِي نَوْمُ

لَكِنْ مِنْ الْأَرْوَاحِ يَزُ
عَجْنِي صَاحُ مَوْلِي
فَأَجَالِسُ الْكُتُبَ الَّتِي
لِي بِالْإِشَارَةِ تَفْهَمُ

- قال سعيد بن المسيب: إن في العزلة لسلامة؛ فأنبل أن تُرى في
مجالس السفهاء، فإذا اغتممت وحدك؛ فادرس كتاباً من فعل الفقهاء.

- قال شاعر:

عائشٌ في وحدتي واللهُ قربي
ونداماي قوافي وكتبي
يا لها من رفقةٍ صادقةٍ
لم تخنْ عهدي ولا فاهتْ بكذبٍ
أنا أهواها وأهوى قربها
من قديم ولها يخفق قلبي
كشموعٍ ومَناراتٍ لمن
سهرُوا الليلَ وناجُوا بعضَ شهبٍ
لا أنيسَ مثلَ كتبي في الحمى
لا جليسَ مثلها يعرفُ حبي
لا رفيقَ هُنا يرفقُ بي
فرفاقي كتبي من بعد أبي

- قال عبد الكريم القيسي:

ولما رأيتُ البغيَ في النَّاسِ ظاهراً
ولم أرَ منهمْ جانحاً لمثابي
وكنْتُ خصصتُ البعضَ منهمْ بخلةٍ
عتبتُ عليها النفسَ أيَّ عتابِ
رغبتُ بنفسِي عنْ مراعاةِ ودَّهمْ
وأصبحتُ عنهمْ أمةً بكتابِ

- قال لسان الدين بن الخطيب: أنشدت من استفهمني عن حالي:

أملِي مِنَ الدُّنْيَا تَأْتِي خُلُوةً
فِي مَنْزِلٍ بَادٍ خَصِيبِ الْجَانِبِ
أُذَكِّي بِهِ زِنْدَ الْقِرَاءَةِ وَالْقِرَى
رَحَبَ الْجَنَابِ لَطَارِقِ أَوْ طَالِبِ
حَتَّى أَلَا قِي اللَّهَ لَمْ تَصْرِفْنِي إِلَـ
أَوْهَامُ عَنْهُ بِشَاغِلٍ أَوْ شَاغِبِ

- قال أبو الفتح علي بن محمد البستي:

لَمَّا رَأَوْنِي فَرِيداً حَلَسَ زَاوِيَةً
مُسْتَوْحِشاً فِي أَنْاسِ حِلْمِهِمْ سَفَهُ
قَالُوا: وَضِيعٌ سَلَا عَنْ حِظِّهِ وَرَأَى
أَنْ النَّبِيَّ هُوَ الْمُسْتَحَقُّرُ النَّبَهُ

لَو أَنصَفُونِي أَصَاخُوا لِلنِّدَاءِ وَهَلْ
تَرْجَى إِصَاخَةَ قَوْمٍ بَعْدَمَا انْتَبَهُوا
أَنْتَى يَكُونُ وَضِيعُ النَّفْسِ ذَا هَمِّ
لَهُ بِإِبْلَاغِهَا أَقْصَى الْعُلَا وَلَهُ
مَا عَابَنِي غَيْرَ أَنْتَى عِبْتُ شَهْوَتَهُ
إِلَيْهِ ظَنَّا بِأَنَّ الْهَمَّةَ الشَّرُّ
رَضِيتُ نَفْسِي لِنَفْسِي مَوْئِسًا حَذْبًا
إِنْ ظَنَّ بِي وَلَهُ أَوْ ظَنَّ بِي وَرَهُ
فَفِي بَلَاغَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ لِي بَلْغٌ
وَفِي رِيَاضِ الرِّيَاضِيَّاتِ لِي نُزْهُ
وَلَيْسَ يَزِرِي بِنَفْسِي فَقْدُ مَوْئِسِهَا
وَهَلْ يَضُرُّ بَعِينَ الْأَكْحَلِ الْمَرَهُ
مَا أَشْبَهُونِي فَعَادُونِي لِنَقْصِهِمْ
وَلَيْسَ يَشْبَهُ تَبْرًا خَالِصًا شَبَهُ

- قال عمر بن خلف بن مكي:

اجْعَلْ صَدِيقَكَ نَفْسَكَ
وَجُوفَ بَيْتِكَ حَلْسَكَ
وَاقْنَعْ بِخَبْزٍ وَمِلْحٍ
وَاجْعَلْ كِتَابَكَ أَنْسَكَ

واقطع رجاءك إلا
ممن يُصرفُ نفسك
تعش سليماً كريماً
حتى تُوافي رمسك

- وقال عمر بن مظفر بن الوردي:

إني تركت عقودهم وفسوخهم
وفروضهم والحكم بين اثنين
ولزمت بيتي قانعاً ومطالعا
كتب العلوم وذاك زين الزين
أهوى من الفقه الفروق دقيقة
فبها يصح تفرز النصين
وأحب في الإعراب ما هو غامض
عن نصف نحوي وعابر عين
وأقول في علم البديع معانياً
مقسومة بين البيان وبينني
وتركت نظم الشعر إلا نادراً
كالبيت في سنة أو البيتين
ما الشعر كالعلم الشريف نباهة
فالعلم فيه سعادة الدارين

- قال أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم:

رغيفاً خبزِ يابس
تأكله في زاوية
وكوز ماء بارد
تشربه من ساقية
وغرفة ضيقة
نفسك فيها خالية
أو مسجداً بمعزل
عن الورى في ناحية
تدرس فيه دفترًا
مستنداً بسارية
معتبراً بمن مضى
من القرون الخالية
خير من السّاحات في
فيء قصور عالية
تعقبها عقوبة
تصلى بنار حامية
فهذه وصيّي تي
مخبرة بحالتي

طوبى لمن يسمعها
تلك لعمري كافية
فاسمع لنصح مشفق
يُدعى أبا العتاهية
- وقال سعيد فياض:
لا يسلّم الإنسان من كاره
حتى ولو عاش الهدى والصواب
ولا يرى السراء في عمره
إلا وميضاً خادعاً كالسراب
فاصبر ولا تجزع إذا أمطرت
دنياك همّاً عاصفاً في العذاب
واقنع من النعمى بسدّ الطوى
فكلّ شيءٍ آيلٌ للتّراب
وادفعْ هوى النفس وطغيانها
تنعمْ بعيش هانيءٍ مستطاب
وابعدْ عن الناس وضوئهم
واستبدل اللغو بصمت الكتاب
ففي الكتاب العقلُ مخضوضٌ
تبصرُ فيه ما تبدى وغاب

يعطيك كلَّ الحقِّ في حمليه
أو تركه لا لومه أو عتاب
صوتُ النُّهى في صمته ناطقٌ
وفي حديثِ الناسِ ظفرٌ ونابٌ

- قال محمد الأسمر:

مجالسُ الناسِ صارتْ لا حديثَ بها
إلا فلانُ به كيتٌ وفيه كذا
حتَّى إذا جاءهم هشُّوا لمقدمه
كمن يداعبُ صيداً بعد ما أخذا
فاحبسْ لسانك إن وافيتَ مجلسهم
فلو أتيتَ بقرآنٍ لقليلٍ هذى
وإن نطقْتَ فخيرُ القولِ أوجزه
فلا تثرثرْ به بل ألقه نبذا
وليس يغنيك هذا عن حذارهم
في كلِّ شيءٍ وعن تعليقك العودا
خيرٌ من الناسِ كتبُ الناسِ تقرؤها
وأن تظلَّ بعقرِ الدارِ منتبدا
أو صاحبِ الناسِ وانهلْ من مناهلهم
وعاطِهم وتعاطي الودَّ وهو أذى

واعلم بأنهم حربٌ مسعرةٌ
فالبسٌ لديهم دروعُ الحربِ والخودا
واشحنُ سلاحك واعلم أن كلهم
مقلدٌ صعدةٌ أو صارمٌ شحذا
كم من أخيدٍ لديهم وهو صاحبهم
فلا تكنه وكن أخاذ من أخذا

- قال جمال الملاح:

تخليت للقوم عن موضعي
وعدت لنفسي وديني معي
تركت المناصب مستغنيا
أسير إلى المنصب الأرفع
أرى الفضل ينسج لي حلة
من الأدب الغض لم تنزع
وأعرضت عن شرف كاذب
به لم أغر ولم أخدع
تركت السياسة للمدعين
وكم في العشيرة من مدع

وفضلتُ في عزلتي وحشةً
هي الأنسُ يمالأُ لي مخدعي
فلا العينُ تنظرُ ما لا تحبُّ
ولا الأذنُ تسمعُ ما لا تعي
وما استوحشَ المرءُ في كتبه
يحاطُ بكلِّ فتى ألمعي
لدى مجلسٍ حافلٍ بالبدورِ
نطلُّ على السفرِ من مطلعِ
محاسنٍ من أدبٍ واسعٍ
تضافُ إلى شرفٍ أوسعٍ
وفضلٍ أهمُّ بكتمانه
فيعلو سناءهُ على البرقعِ
سناءٌ على رغمِ أنفِ الحسودِ
ومن يرفعُ اللهَ لا يُوضعِ
أحبُّ حياةَ تعودتُها
حياةَ الفتى الباسلِ الأروعِ
وأحفظُ للنفسِ حريةً
طويتُ على حبِّها أضلعي

- وقال عامر البحريري:

جلس العالم في منزله
وعن الباطل واللغو اعتزل
يطلب الكتب ويعلي قدرها
ما له من صحبة العمر ملل
ينفق المال لكي يبتاعها
لا يبالي بغذاها من أكل
كل يوم منه شطر صالح
لقراءات ودرس وشغل
صحبه الأدنى هم أصحابها
سادة الرأي وأرباب النحل
الغزالي وابن رشد عنده
أرشد الحلم لصاح ما غفل
وسماء العبقريات له
حين يرضى فكرة خير نزل
هذه الكتب غدت أبناءه
فهو منها في سرور وجدل
انشروها تنشروا أفكاره
وتطيلوا منه للدهر الأجل

- قال إسماعيل أبو شقرة:

تأسيتُ عن هجرِ الأحبةِ والورى
وفقدى لأيامِ الصبابةِ والهوى
بعودي إلى دار أحسُّ بأنها
هي الجنةُ الخضراءُ ترقصُ في الهوا
وأشعرُ أني حينَ عدتُ لحصنها
هزارٌ إلى وكرٍ له أب أو أوى
فلا أنا بالآسي على فقدِ صحبتي
ولا أنا بالباكي على جنبِ خوى
ألاعبُ أطفالي فيرجعُ ضحكهم
إلى هسٍّ أوصالي مزيداً من القوى
وأهفو إلى زوجي فتشعلُ في دمي
حيناً إلى الماضي يضجُّ من الجوى
وإن طلبتُ نفسي السكينةَ أسرعْتُ
تلبّي لها زوجي السكينةَ بالنوى
فأستلُّ من ركنِ الخزانةِ (دارساً)
أعزُّ على جرحي البليغ من الدوا
ففي الكتبِ الصفراءِ أحظى بمتعةٍ
أطيرُ بها عن عالمِ اللغو والهوى

وَأَسْمُو بِهَا عَنْ كُلِّ أَرْضٍ تَشْدَنِي
إِلَى أَقْرَبِ اللَّذَاتِ نَوْلًا لِمَنْ نَوَى
وَفِي كِتَابِ الْأَشْعَارِ أَسْمُو لِرَتْبَةٍ
تَرِينِي بَنِي الْإِنْسَانِ كَالنَّمْلِ فِي الْكَوَى
فَلَا تَبْتَئِسْ إِنْ عَقَّكَ النَّاسُ سَاعَةً
فَهَذَا سَلُوكُ النَّاسِ مَذْ خَلَقْتُ طَوَى
تَعُودُ عَلَى نَارِ الْقَطِيعَةِ وَالْأَسَى
وَلَا تَشْكُ مَنْ بِالْغَدْرِ سِيمَ أَوْ اكَتَوَى
فَلَمْ أَرِ أَغْبَى أَوْ أَجَنُّ مِنَ الَّذِي
يَخَالِطُ أَقْوَامًا تَعِيشُ عَلَى الْغَوَى

قال جونسون: الكتب مرشدة في الصغر، وتسلية في الكبر، ورفيق في العزلة.

- قال أبو الطيب المتنبّي:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرَجٌ سَابِحٌ
وَحَيْرٌ جَلِيسٌ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

يقول: إن سرج الفرس هو أعز مكان؛ لأنه يمتطي لطلب المعالي أو محاربة الأعداء لدفع شرهم، أو للهرب من الضيم واحتمال الذل.
وإن الكتاب هو خير جليس؛ لأنه مأمون الجانب، فلا أذى ولا شر، ولا يحتاج في مجالسته إلى مؤونة، ثم إنه يفاد من آدابه وكل ما يحتويه.

- قال أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازي اللغوي:

وقالوا: كيف حالك؟ قلت: خيرٌ

تقضى حاجةٌ وتفتو حاجٌ

إذا ازدحمت همومُ الصدرِ قلناً:

عسى يوماً يكونُ لها انفراجٌ

نديمي هرتي وأنيسُ نفسي

دفاترُ لي ومعشوقِي السَّراجُ

قال بعض الحكماء: من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب

لم تفتّه سلوة، ومن آسنه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان.

- وخير جليس في الزمان كتاب، فهو النديم الكريم، والخذن

الأمين، البريء من الذنوب، السليم من العيوب، الذي إن أدنيته لم

يباعدك، وإن أقصيته لم يعاودك، وإن واصلته حمدته، وإن هاجرته

أمنته، وإن استتطقته أسمعك، وإن استكفيته أقنعك، وإن استقلته

كفّ، وإن استثقلته خفّ، وإن دعوته لبّاك، وإن استغفيته أعفاك.

لا يعصي لك أمراً، ولا يُحمِّلُك إصراً، عرضك معه وافر، وهو

لسرك غير ناشر، أنيق المنظر، طيب المخبر، جميل المشاهد، كثير

المحامد، يملأ العيون قرة، والنفوس مسرة، يُضحك الحزين اللهف،

ويلهي الغضبان الأسف.

يجتلب السرور، ويشرح الصدور، يطرد الهموم والأحزان، وينفي
بواعث الأشجان، مجاورته أحسن مجاورة، ومسامرته أحلى مسامرة،
ومجالسته أنفع مجالسة، ومؤانسته أمتع مؤانسة.

فيه مدعاة إلى الطرب، ومسلاة من الوصب، وتعلّة لذي الغرام،
وتلهية لقلب المستهام، وأنس للمستوحش، وري للمتعطش، وعمارة
للمجالس، وحلية للمؤانس، تلقي القلوب محبتها عليه، وتميل النفوس
بكليتها إليه، ليس بينه وبين حبات القلوب حجاب، ولا يغلّق بينه وبين
سويداواتها باب.

- لما سُيّر علي بن الجهم إلى خراسان كتب إلى بعض إخوانه على
لسان غلام له: أما بعد، فإن الله إذا أراد أمراً جعل له من قضائه سبباً
يجري بعلمه، وينتهي إلى قدره، لا إله إلا هو، أحصى كل شيء عدداً،
وأحاط بكل شيء علماً، وجعل لكل قدراً، ومن أسباب قدره أن سهل
لي بعدك من الشعر ما أخاطب به الشاهد، وأكاتب الغائب، وأجتدي
به وأستزيد، وأبلغ ما أريد، وهو يؤنسني إذا أوحشت، ويطيعني إذا
عصيت، ويصدع عني إذا شيت، بليغ الخطبة، جميل العشرة، كريم
الصحة، يرد الأندية، ويلج الأخبية، سائراً في البلاد، مسافراً من
غير زاد، راضياً إن رضيت، مؤذياً إن أوذيت، جازياً بما أوليت، باقياً
إذا أفنيت، معترضاً في الأسمار، عالماً بالأخبار، ومعزياً عن الأوتار.

يحضر إن غبت، ويجسر إن هبت، ولا يحظر بالحظر، ولا يوزع

بالزجر، وإذا قيد رتك، إذا أغمد بتك، وإذا جرد فتك، يلقح به الغزل، ويعلل به الثمل، ويأنس به الوجل، وقد أتحفتك منه ببعض ما يجد عندك ذكرنا، وتعرف به خبرنا، وهو شعر قلته في مقام واحد، لم أزل أعجب منه، وسأصف لك المقام؛ لتحمد الله تعالى عليه:

لما كان اليوم الذي وردنا نيسابور، وقصدنا باب الأمير، وقد احتشد لنا الناس، وكان من قدر ذلك يتوهم مع الخبر الشائع الذي حملنا له أن الداعي علينا سيكثر، وأن الشامت بنا سيظهر، إذ كنا في حال لم يحمل على مثلها بابك ولا المازيار، وما منهما إلا قد رأينا، فبينما الناس كذلك، إذ أقبل به في محمل قليل الوطاء، مسلوب الغطاء، فلما توسطنا الجماعة، ونظروا إليه، فلم يكن في ظاهره ما يسمح، ولا في قديمه ما ينكر، ولا في مساعيه ما ينقم، ولا في قدر الذنب الذي ذكر أنه فعله ما يبلغ به ذلك عند الناس، وجد الولي إلى الدعاء له بالخير سبيلاً، وساعده من حضر، وارتج الجميع بالدعاء له، فصار ما نعي عليه معونة له، وأبى الله تعالى المحسن إلينا أن يسلبه الستر الجميل، إذ سلبه الآدميون الغطاء، وألا يزيل نعمه، إذ زال كل ما كان فيه، وألا يجعل لأعدائه إلى الشماتة به سبيلاً. والسلام.

- قال بعض الحكماء: قيل لرجل: من يؤنسك؟ فضرب بيده إلى كتبه وقال: هذه. فقيل: من الناس؟ فقال: الذين فيها.

وقيل لبعضهم: أما تستوحش؟ فقال: يستوحش من معه الأنس كله؟ قيل: وما الأنس كله؟ قال: الكتب.

- قال ملك الهند لولده، وكان له أربعون ولداً: يا بني! أكثروا من النظر في الكتب، وازدادوا في كل يوم حرفاً؛ فإن ثلاثة ضروب من الناس لا يستوحشون في غربة، ولا يقصر بهم عن مكرمة: الشجاع حيثما توجه، فإن بالناس حاجة إلى شجاعته وبأسه. والعالم؛ فإن بالناس حاجة إلى علمه وفهمه. والحلو اللسان، الظاهر البيان؛ فإن الكلمة تجوز له بحلاوة لسانه ولين كلامه.

فإن لم تعطوا في أنفسكم رباطة الجأش، وجرأة الصدر، فلا يفوتكم العلم وقراءة الكتب، فإنه أدب وعلم قد قيده لكم من مضى من قبلكم، تزدادون به عقلاً.

- قيل لرجل بطرسوس: ما هنا أحد تستأنس إليه؟ قال: نعم. قيل: فمن؟ فمدّ يده إلى المصحف ووضعه في حجره، وقال: هذا.

- وقال بعضهم:

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي

وفيها شفاء للذي أنا كاتم

وقال أحمد شوقي:

أنا من بدّل بالكتب الصّحابة

لم أجد لي وافيّاً إلا الكتابا

صاحبٌ إن عبته أو لم تعب

ليس بالواجد للصّاحب عابا

كلّما أخلقته جدّني
وكساني من حُلَى الفضلِ ثيابا
صحبته لم أشك منها ريبةً
وودادٌ لم يكلفني عتابا
ربّ ليلٍ لم نقصر فيه عن
سمر طال على الصمتِ وطابا
كان من همّ نهاري راحتي
ونداماي ونقلي والشرابا
إن يجدني يتحدث أو يجد
ملأ يطوي الأحاديث اقتضابا
تجد الكتب على النقد كما
تجد الإخوان صدقاً وكذابا
فتخيّرهما كما تختارهُ
وادخر في الصّحبِ والكتبِ اللُّبابا

وقال محمد رضا الزين:

طفّت البسيط فلم أجد من ودّه
صافٍ ولكن الأنام عقاربُ
فخير حياة للفتى عزل نفسه
عن الناس والكتب الأنيقة صاحبُ

فليست تذييع السر وهي صواق
إذا حدثت أو جونت لا جانب
تقص أحاديثاً بأفصح منطق
بغير لسان فهي عجم عوارب

وقال علي الجندي:

نفضت يدي من كل خل عرفتُهُ
وإن شاقني خل فيا حبذا الكتب
سأحيا وحيداً كالطريد وربما
يسر الفتى بالبعد إن ساءه القرب

قال ابن المقفع: كل مصحوب ذو هفوات، والكتاب مأمون العثرات.

- وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الحكيم:

مارست دهرى وجريت الأناام فلم
أحمدهم قط في جد ولا لعب
وكم تمنيت أن ألقى به أحداً
يسلي من الهم أو يعدي على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا
كانت مواعيدهم كالآل في الكذب

وكان لي سببٌ قد كنتُ أحسبُني
أحظى به وإذا دائي من السببِ
فما مقلّم أظفاري سوى قلّمي
ولا كتائبُ أعدائي سوى كتبي

قال سعيد بن عبدربه:

لَمَّا عَدِمْتُ مَوَانِسًا وَجَلِيسًا
نَادِمْتُ بِقِرَاطًا وَجَالِينُوسًا
وَجَعَلْتُ كَتَبَهُمَا شِفَاءً تَفَرَّدِي
وَهُمَا الشِّفَاءُ لِكُلِّ جَرَحٍ يَوْسًا
وَوَجَدْتُ عِلْمَهُمَا إِذَا حَصَلَتْهُ
يَذْكِي وَيُحْيِي لِلْجِسْمِ نَفُوسًا

وقال الأمير أبو نصر أحمد بن الحسين بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الميكالي: تذاكرنا المتنزهات يوماً وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق. وقال آخرون: بل نهر الأبله.

وقال آخرون: بل سعد سمرقند. وقال بعضهم: نهروان بغداد. وقال بعضهم: شعب بوان بأرض فارس. وقال بعضهم: نوبهار بلخ. فقال: هذه متنزهات العيون، فأين أنتم عن عيون متنزهات القلوب؟

قلنا: وما هي يا أبا بكر؟

قال: عيون الأخبار للقتبي، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر. ثم أنشأ يقول:

وَمَنْ تَكُ نَزْهَتُهُ قَيْنَةٌ

وَكَأْسُ تَحَسُّ وَأُخْرَى تُصَبُّ

فَنَزْهَتُنَا وَاسْتِرَاحَتُنَا

تَلَاقِي الْعَيُونَ وَدَرُسُ الْكُتُبِ

قيل لبعض العلماء: ما بلغ من سرورك بأدبك وكتبك؟

فقال: هي إن خلوت لذتي، وإن اهتممت سلوتي، وإن قلت: إن زهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار، ويمتعان بحسنهما الألفاظ؛ فإن بستان الكتب يجلو العقل، ويشحذ الذهن، ويحيي القلب، ويقوي القريحة، ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويمتع في الخلوة، ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويسر بغرائبها، ويفيد ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ، وتصل لذته إلى القلب، من غير سامة تدركك، ولا مشقة تعرض لك.

سَهْرِي لَتَنْقِيحِ الْعُلُومِ الذُّلِّي

مَنْ وَصَلَ غَانِيَةً وَطِيبَ عَنَاقِ

وَتَمَائِلِي طَرِباً لِحُلِّ عَوِيصَةِ

أَشْهَى وَأَحْلَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ

وصريرُ أقلامٍ على أوراقها
أحلى من الدوكاء والعشاقِ
وَأَلدُّ مَنْ نَقَرَ الْفَتَاةَ لِدَفِّهَا
نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْراقِي
يا مَنْ يَحاولُ بِالْأَمَانِي رَتْبِي
كَمْ بَيْنَ مُسْتَفِلٍ وَآخِرِ راقٍ
أَبَيْتُ سَهْرانَ الدَجَى وَتَبَيْتُهُ!
نوماً وَتَبَغْيِي بَعْدَ ذاكَ لِحاقِي؟



عزلة عالم

ولما صار ابن الوزير العالم اليمني عالماً يشار إليه بالبنان، وبَعْدَ صيته واشتهر علمه بين الناس، خاف على نفسه من فتنة الشهرة وحُب الدنيا، فعزف عن المضي في هذا الطريق، ورجع لمحاسبة نفسه على ما أسلف، ولما عوتب على انقطاعه من مجالس التدريس أجاب عليهم بقوله:

لَا مَنِي الْأَهْلُ وَالْأَحِبَّةُ طُرًّا

فِي اعْتِرَالِي مَجَالِسِ التَّدْرِيسِ

قُلْتُ: لَا تَعْدِلُوا فَمَا ذَاكَ مِنِّي

رَغْبَةً عَنِ عُلُومِ تِلْكَ الدُّرُوسِ

غَيْرَ أَنَّ الرِّيَاضَ تَأْوِي الْأَفَاعِي

وَجَوَارِ الْحَيَّاتِ غَيْرُ أَنْيْسِ

غَيْرَ أَنِّي خَبَرْتُ كُلَّ جَلِيسِ

فَوَجَدْتُ الْكِتَابَ خَيْرَ جَلِيسِ

هِيَ رِياضُ الْجِنَانِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ

وَسَنَاهَا يُزْرِي بِنُورِ الشُّمُوسِ

حَبَّذَا الْعِلْمُ لَوْ أَمِنْتَ وَصَاحِبُ

تَ إِمَامًا فِي الْعِلْمِ كَالْقَامُوسِ

فَدَعُونِي فَقَدْ رَضِيتُ كِتَابِي

عَوْضًا لِي عَنْ أَنْسِ كُلِّ أَنْيْسِ

وقد وصف محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير حاله قائلاً: ثم إنه بعد ذلك انتصب لنشر هذه العلوم، وتصدر برهة من الزمان وهُرع إليه الطلبة من كل مكان، فاستتاروا بمعارفه واقتبسوا من فوائده، فظهر أمره وبعد صيته، فلما رأى أن في هذا طرفاً من الدنيا والرئاسة قدع نفسه وقمعها، ومنعها مما تشوّفت إليه وردعها، ثم أقبل على الله بكليته، فلزم العبادة والأذكار، وقيام الليل وصيام النهار، وتأديب النفس وإذلالها للملك الجبار، فألجمها بلجام الزهد، وجرها بعنان التقوى، وأخزاها في ميدان الورع، وساقها بسوط الصبر، وأدخلها إصطبل الخلوة، وربطها على جدار التوكل، وعلفها الجوع، وسقاها الدموع، وألبسها سراويل الذل والخضوع، وتوجّها بتاج التبتل والخشوع، ولم يبق نوع من أنواع الرياضة، ولا طريق من طرق السلوك إلا سلك بها مسلكه، وشرع بها في جناحه، وكلفها تحمُّل أعبائه.

ولقد كان يخصف نعله ويكتسب لأهله، وربما تظاهر بأنواع التصرفات والحرف كحرف الفدايين والجفاة، ويلبس الصوف الخشن، ويُفطر على قرص الشعير بلا إدام؛ ويقصد بذلك رياضة نفسه وتحقيرها، وتصغيرها وردعها، وتعريفها بمنزلتها عنده.

ثم يقول: ومن رقائق أشعاره في بعده من الناس وانقطاعه أبيات كان كتب بها إلى المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى في عقيب دعوته:

أَعَاذِلُ، دَعْنِي أُرِي مُهْجَتِي
 أَزُوفَ الرَّحِيلِ وَلُبْسَ الْكَفَنِ
 وَأَذْفِنُ نَفْسِي قَبْلَ الْمَمَاتِ
 فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي كُهُوفِ الْفِتَنِ
 فَإِنْ كُنْتُ مُقْتَدِيًا بِالْحَسَنِ
 فَلِي قُدُوءٌ بِأَخِيهِ الْحَسَنِ
 فَقَدْ حَمَدَ الْمُصْطَفَى فِعْلَهُ
 لِإِطْفَاءِهِ لِنَارِ الْمَحْنِ
 وَلَوْ كَانَ فِي فِعْلِهِ مُخْطِئًا
 لَمَا كَانَ لِلْمَدْحِ مَعْنَى حَسَنِ
 وَأَقْبَلَ مَا فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ
 مِنْ ذِكْرِ مَوْجِ بَحَارِ الْفِتَنِ
 فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي الْإِعْتَزَالِ
 جَاءَتْ بِذَا مُسْنَدَاتِ السُّنَنِ
 وَفِي دَرْسِ آيِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ
 وَتَرْجِيْعِهَا لِيَهِيَجَ الْحَزْنَ
 وَدَرْسِ الصَّحِيحِ مِنَ الْمُسْنَدَاتِ
 إِلَى الْمُرْسَلِ الْعَاقِبِ الْمُؤْتَمَنِ

وَمَحَوِ الدُّنُوبَ بِدَمْعٍ يَصُوبُ
عَلَى مَا مَضَى فِي قَدِيمِ الزَّمَنِ
وَأَمْسِ الرُّسُومَ مَحْتَهَا الْغُيُومُ
وَأَنْسَى الْحَبِيبَ وَأَنْسَى الْوَطْنَ
وَأَنْسَى الدِّيَارَ وَسُكَّانَهَا
وَمَا كَانَ لِي فِيهِمْ مِنْ شَجَنِ
وَأَبْكِي بِشَجْوٍ عَلَى مُهْجَتِي
بُكَاءِ الْحَمَائِمِ فَوْقَ الْفَنَنِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْوَرَى ظَاعِنِي
نَ نَحْوِ الْبَلَى مَا لَهُمْ مِنْ سَكَنِ
فَأَيَّقَنْتُ أَنْبِي بِلَا مَرِيَّةٍ
غَدَاً ظَاعِنٌ مِثْلُ مَنْ قَدْ ظَعَنَ
سَأَجْعَلُ ذِكْرَ الْبَلَى فِي الْقُنُوتِ
مَكَانَ ادِّكَارِ اللَّوَا وَالْدَّمَنِ

وأورد من كلامه في الزهد قوله:

أيها السائر، إلى ديار الموتى! قد سارت الدنيا وما تدري، والراكب
لسفينة البقاء، أما علمت أنها إلى الفناء تجري؟

أنت المغتر بمدة العمر وهي قصيرة، والمفتتن في أنواع الهوى بغير
بصيرة، عجباً من اختلاف أحوالك وأطوارك، وتقلباتك وأسفارك، أما

أسفار دنياك فتشفق فيها من عبد عاجز أن ينهب طمرك، وأما سفرك
إلى أخراك فتأمن فيه من رب قادر أن يقصف عمرك، ما أخوفك في
موضع السلامة وآمنك في موضع المخافة! أما خوفك فحيث ينجو
الغني بفلوسه، والفقير ببؤسه، والمترقق برفقائه، والقوي بقوته، وأما
أمنك فحيث ارتعدت فرائص الملوك القواهر، ولم يدفع عنهم الحصون
ولا العساكر، ضلّةً لرأيك فاستيقظ، وضیعةً لعمرك فاستحفظ:

يَا مُوَلَّعًا بِوَصَالِ عَيْشِ نَاعِمٍ
سَتُصَدُّ عَنْهُ رَاضِيًا أَوْ كَارِهًا
نَّ الْمَنِيَّةَ تُزْعِجُ الْأَخْرَارَ عَنْ
أَوْطَانِهِمْ وَالطَّيْرَ عَنْ أَوْكَارِهَا !

فاقطع حبال الأمل ورجاه، واعلم أنك إن لم تمت فجأة مرضت
فجأة، فاستعن على ترقيق قلبك وخشوعه، واحتسب طرفك ودموعه،
بتصور حال خروج الروح من الجسد، والمفارقة للأهل والولد، والسفر
الذي ليس بعده إياب، إلى المنزل الذي وساده الحجر وفراشه التراب،
حيث لا أهل ولا أصحاب، ولا أنس ولا أتراب، هيهات ما في التراب
من ترب، ولا في الشراب من شرب.

إن آخر قضاء الإخوان لحقوقك، وأول قطيعتهم لك وعقوقك،
هيلهم للتراب على قبرك عند الدفن، وإدراهم الدمع من الدمع ما
سح به الجفن، ثم كلما رمّ جسمك في لحدك، وأكل التراب من جلدك،

رَمَّتْ عندهم حبائل ودُّك، وامَّحت رسوم عهدك، وإلى هذا أشار من يقول في بعض الفصول: صدق المثل: لا صديق لميت، لو كان يصدق مات حين يموت.

فما اشتغالك بما لا ينفعك في معاشك ولا معادك، ولا يُبصرُك في اقترابك ولا ابتعادك، اصحب صاحباً لا تحتاج معه إلى سواء، وهُمَّ عملاً واحداً لا تكلف نفسك إلا إياه، لعل قلبك بذلك الصاحب يأنس، ونفسك من غير ذلك العمل تئأس.

إنك إن جلوت بالخلوة فؤادك، وقصرت على الخير مرادك، وكحلت عينيك سُهادك، واتخذت الله في كل أمر عمادك، وشفعت بالدموع لمرود وجهك الذي لا حياء في ديباجته، ورفعت إلى الله يديك مرتعشاً من هيئته وجلالته، وشفعت ذلك بإطالة السجود والناس هجود، وبالإلحاح في طلب القبول والناس غفول؛ رجعت لك رعاية تأخذ بضُبُعَيْكَ عند السقطات، وتنقذك من ورطتك عند الورطات، لعلهم إن علموا بحبه يرعون حق ودّه لقلبه، ويسمحون طول بعده منهم بحسن وصله وقربه، فيئأس الحُساد من حنينه، ويستريح من عظيم كربه بإراحة القلب وسلوانه.

ومن كلام له: إخواني! قَطُّعُوا مرائر الآمال؛ فإن الأمر قريب، واستكثروا من صالح الأعمال؛ فإن السفر بعيد، وسرحوا أبصاركم في مواطن الأهوال؛ فإن الأمر جليل، وقلِّبوا أفكاركم في عواقب

الأحوال؛ فإن اللبث قليل، واهتدوا بنور القرآن في ظلمة الحيران، وانتفعوا بقول الرحمن: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

ألا أدلكم على طيب هذه النفوس، ومطلقكم من هذه الحبوس، عليكم بالقرآن فإنه الطيب الآسي، عليكم بالقرآن فإنه الكريم المواسي، ارتعوا في رياض حواميمه، انتفعوا ببيان طواسيمه، اقتدوا بأعلام مصابيح، استقوا بغمام مجاديجه... إلى قوله:

انظروا إلى معجز لا يناله طاقات العباد، وجديد لا يخلق على الترداد، وأسلوب يتعالى عن الإقواء والسناد، وغريب لا يماثله ما في الأنجاد، وعربي جاء به أفصح من نطق بالضاد، تحدى به مهرة الكلام فأسكتهم، وأردى به فرسان البيان فكبتهم، أظهر به عجزهم، وأبطل به عزائمهم وعزهم، وتلاه في مجامع محافلهم المشهودة بمسالفهم، وأوحاه في مسامع جحافلهم المرفودة بمصاقعهم، فقالوا: مرة ساحر كذاب، وتارة شاعر مرتاب.

تالله لهم أكذب وأشعر، وأعرف بأساليب الكلام وأسحر، راضوا فنون البلاغة وملكوها، وارتضعوا أضراب البلاغة ولاكوها، وخاضوا أودية الشعر وغماره، ومارسوا أعمارهم كهوله وأغماره، فما بالهم وهذه الفرية على من لا يحسن إقامة بيت من أوزانه، ولا يدرى بأفنانهم في ميدان عروضه وميزانه.

وأعجب من هذه رميهم له بالخيانة، وهو في أسنتهم يدعى الأمين، وبهتهم له بالخيانة وهو في بيوتهم مُصاصة المصاصة في

النسب العربي المبين، معروف البشارة في باديتهم ومكّتهم، مشهور العدالة في بطحائهم وبكّتهم... إلى كلام طويل حذفناه اختصاراً.

وقد ابتعد الإمام ابن الوزير عن الناس، حتى عن أهله ومال إلى الزهد والورع، واشتغل بالذكر والعبادة - كما ذكر أحمد بن عبد الله الوزير في كتابه الفضائل - وملازمة الخلوات والأماكن الخالية، كمسجد وهب، ومسجد نُقْم، ومسجد الروية، ومسجد الأخضر، وفي المنازل العالية على سطح الجامع ينقطع في بعض هذه الأماكن ثلاثة أشهر: رجب، وشعبان، ورمضان، ويعتذر عن موافقة أهله وأرحامه، ويسألهم إسقاط الحق من الزيارة وعن غيره.

كما كان يذهب إلى المفاوز وشعاف الجبال وبطون الأودية، وأقام بعض الوقت في رأس قلّة بني مسلم (جبل سَحَمَر) ووصف حاله بقوله:

فَحِيناً بِطُودٍ تُمْطِرُ السُّحْبُ دُونَهُ
أَشَمَّ مَنِيفٍ بِالْغَمَامِ مُؤَزَّرُ
وَحِيناً بِشُعْبِ بَطْنٍ وَادٍ كَأَنَّهُ
حَشَا قَلَمٍ تُمْسِي بِهِ الطَّيْرُ تَصْفُرُ
أَجَاوِرُ فِي أَرْجَائِهِ الْبُومَ وَالْقَطَا
فَجِيرَاتُهَا لِلْمَرْءِ أَوْلَى وَأَجْدَرُ
هُنَالِكَ يَصْفُو لِي مِنَ الْعَيْشِ وَرْدُهُ
وَالْأَفْوَردُ الْعَيْشِ رَنْقٌ مُكَدَّرُ

فَإِنْ يَبْسَتْ ثَمَّ الْمَرَاعِي وَأَجْدَبَتْ
فُرُوضُ الْعُلَا وَالْعِلْمُ وَالْدِّينُ أَخْضَرُ
وَلَا عَارَ أَنْ يَنْجُو كَرِيمٌ بِنَفْسِهِ
وَلَكِنْ عَارًا عَجْزُهُ حِينَ يُنْصَرُ
فَقَدْ هَاجَرَ الْمُخْتَارُ قَبْلِي وَصَحْبُهُ
وَفَرَّ إِلَى أَرْضِ النَّجَاشِيِّ جَعْفَرُ

وقال بعضهم: لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة، ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته، لكان ذلك خيراً كثيراً.

والمطلوب إنما هو ترك فضول الصحبة؛ لما في ذلك من شغل البال، وتضييع الوقت عن المهمات، وجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج إلى الغداء والعشاء، فيقتصر منه على ما لا بد له منه، فهو أروح للبدن والقلب.

- أوصى أحد العلماء ابنه، فقال: يا بني! لا ناصح له مثلي، ولا منصوح لي مثله، قدمت لك في هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك في كل أوان رجوت لك حسن العاقبة إن شاء الله تعالى، وإن أخف منه للحفظ، وأعلق بالفكر، وأحق بالتقدم قول الأول:

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ
ثَلَاثٌ فَمِنْهُنَّ حُسْنُ الْأَدَبِ
وِثَانِيَّةٌ حُسْنُ أَخْلَاقِهِ
وِثَالِثَةٌ اجْتِنَابُ الرِّيبِ

فإذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها في الغربة رأيتها جامعة نافعة، لا يلحقك إن شاء الله تعالى مع استعمالها ندم، ولا يفارقك بر ولا كرم.

ولله در القائل:

يُعَدُّ رَفِيعُ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا
وَأِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِيبٍ
إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ
وَمَا عَاقِلٌ فِي بَلَدٍ بِغَرِيبٍ
وَمَا قَصَرَ الْقَائِلُ حِينَ قَالَ:

وَاصْبِرْ عَلَى خَلْقٍ مِنْ تَعَاشِرِهِ
وِدَارِهِ فَالْبَيْبُ مَنْ دَارَى
وَاتَّخَذَ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا
وَمَثَلَ الْأَرْضِ كُلَّهَا دَارًا
وَأَصْغِ يَا بَنِي، إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ، وَسَلِّمْ الْكَرَمَ وَالصَّبْرَ:
وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ
لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ

فحسن الخلق أكرم نزيل، والأدب أرحب منزل، ولتكن كما قال أحدهم في أديب متغرب: وكان كلما طراً على ملك فكأنه معه ولد، وإليه قصد، غير مستريب بدهره، ولا منكر شيئاً من أمره.

وإذا دعاك قلبك إلى صحبة من أخذ بمجامع هواه؛ فاجعل التكلف له سلباً، وهبّ في روض أخلاقه هبوب النسيم، وحل بطرفه محل الوسن، وانزل بقلبه نزول المسرة؛ حتى يتمكن لك وداده، ويخلص فيك اعتقاده، وطهر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا ترخص في جانبه لحسود لك منه يريد إبعادك عنه لمنفعته، أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك، ومع هذا فلا تغترّ بطول صحبته، ولا تتمهد بدوام رقدته، فقد ينبهه الزمان، ويغير منه القلب واللسان، ولذا قيل: إذا أحببت فأحبيب هوناً ما، ففي الممكن أن ينقلب الصديق عدواً والعدو صديقاً، وإنما العاقل من جعل عقله معياراً، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله، وجعل نصب ناظره قول أبي الطيب المتنبّي:

ولما صار ودُ النَّاسِ خِيباً

جزيْتُ على ابتسامٍ بابتسامٍ

وفي أمثال العامة: من سبقك بيوم فقد سبقك بعقد، فاحتذى مثله من جرّب.

واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم، وزيادة تجاربهم، ولا تتكل على عقلك؛ فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالباً بتجاربهم، يريحك ويقع عليك رخيصةً. وإن رأيت من له مروءة وعقل وتجربة فاستفد منه، ولا تضيع فعله ولا قوله؛ فإن فيما تلقاه تلقياً لعقلك، وحثاً لك واهتداءً، وإياك أن تعمل بهذا البيت في كل موضع:

فالحُرُّ يخدعُ بالكلامِ الطيبِ

فقد قال أحدهم: ما قيل أضر من هذا البيت على أهل التجميل،
وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه حتى تتدبره،
فإن كان موافقاً لعقلك مصلحاً لحالك قواه ذلك عندك، وإلا فانبذه
نبذ النواة، فليس لكل أحد يتبسم، ولا كل شخص يكلم، ولا الجود مما
يعم به، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يعامل به كل أحد.

ولله در القائل:

وما لي لا أوفي البرية قسطها

على قدر ما يعطى وعقلي ميزان

وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة
الكفاء، ولا الكفاء بمعاملة الأعلی، ولا تضيع عمرك فيمن يملكك
بالمطامع، ويشتيك عن مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة، واسمع
قول الأول:

وبع أجلاً منك بالعاجل

وأقلل من زيارة الناس ما استطعت، ولا تجفهم بالجملة، ولكن
يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء ولا ثقل أيضاً.
أقعد في كسر بيتي ولا أرى أحداً وأستريح من الناس؛ فإن ذلك
كسل داعٍ إلى الذل والمهانة، وإذا علم عدو لك أو صديق منك ذلك
عاملاً بحسبه، فازدراك الصديق وجسر عليك العدو، وإياك أن

يفرك صاحب واحد من أن تذخر غيره للزمان، وتطيعه في عداوة
سواه، ففي الممكن أن يتغير عليك فتطلب إعانة عليه أو استغناء عنه
فلا تجد ذخيرة قدمتها، وكان هو في أوسع حال وأعلى رأي بما
دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره، فلو اتفق لك أن تصحب من كل
صناعة وكل رياسة من يكون لك عدة؛ لكان ذلك أولى وأصوب.

وسلني فإني خبير، طال والله ما صحبت الشخص أكثر عمري
لا أعتمد على سواه، ولا أعتد إلا إياه، منخدعاً بسرابه موثقاً في
حبائل خطابه، إلى أن لا يحصل لي منه غير العوض في البنان وقوله
(لو كان ولو كان).

ولا يحملنك أيضاً هذا القول أن تظنه في كل أحد وتعجل المكافأة،
وليكن حسن الظن بمقدار ما، وأصبر بقدر ما، والفظن لا تخفى عليه
مخايل الأحوال، وفي الوجوه دلالات وعلامات، وأصغ إلى القائل:

ليس ذا وجهٍ من يضيف ولا يقري

ولا يدفع الأذى عن حريم

فمن كان له وجه مثل هذا الوجه فول وجهك عنه قبلة ترضاها،
ولتحرص جهدك على ألا تصحب أو تخدم إلا رب حشمة ونعمة، ومن
نشأ في رفاهية ومروءة فإنك تنام معه في مهاد العافية، وإن الجياد
على أعراقها تجري، وأهل الأحساب والمروءات يتركون منافعهم متى
كانت عليهم فيها وصمة.

وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان: أشرب مصعب الخمر؟
فقال عبد الملك وهو عدو له محارب له على الملك: لو علم مصعب أن
الماء يفسد مروءته ما شربه.

والفضل ما شهدت به الأعداء..

يا بني! وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وتغير، وقد قيل: اصحب
من شئت فإنك مفارقه. فمتى فارقت أحداً فعلى حسنى في القول
والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجع إليه، فلذلك قال الأول:

وَلَمَّا مَضَى سَلَمٌ

بَكَيْتُ عَلَى سَلَمٍ

وإياك والبيت السائر:

وَكُنْتُ إِذَا حَلَلْتُ بَدَارِ قَوْمٍ

رَحَلْتُ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكْتُ عَارَا

واحرص على ما جمع قول القائل: ثلاثة تبقى لك الود في صدر
أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتوسع له في المجلس، وأن تدعوه بأحب
الأسماء إليه.

واحذر كل ما بيّنه لك القائل: كل ما تغرسه تجنيه إلا ابن آدم،
فإنك إذا غرسه يقلعه.

وقول الآخر: ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن.

وقول الآخر: ابن آدم ذئب مع الضعف، أسد مع القوة.

وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره، فيحكى
أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته فجأبه: إن الصحبة رِقٌّ، ولا
أضع رقي في يدك؛ حتى أعرف كيف ملكتك.

واستمل من عين من تعاشره، وتفقد في فلتات الألسن وصفحات
الأوجه، ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك ألا تبينه؛ فإن
الكلام سلاح السلم، وبالأنين يعرف ألم الجرح، واجعل لكل أمر أخذت
فيه غاية تجعلها نهاية لك، وأكد ما أوصيك به أن تطرح الأفكار،
وتسلم للأقدار:

واقبل من الدهر ما أتاك به
مَنْ قَرَّ عينا بعيشه نفعه

فالأفكار تجلب الهموم، وتضاعف الغموم، وملازمة القطوب عنوان
المصائب والخطوب، يستريب به الصاحب، ويشمت العدو المجانب، ولا
تضر بالوساوس إلا نفسك؛ لأنك تنصر بها الدهر عليك.

ولله در القائل:

إذا ما كنت للأحزان عوناً
عليك مع الزمان فمن تلوم

مع أنه لا يرد عليك الفأنت الحزن.

ولقد شاهدت بغرناطة شخصاً قد ألفته الهموم وعشقتة الغموم
من صغره إلى كبره، لا تراه أبداً خلياً من فكره حتى لقب بصدر الهم.
ومن أعجب ما رأيته منه: أنه يتنكد في الشدة ولا يتعلل بأن يكون
بعدها فرج، ويتنكد في الرخاء؛ خوفاً من ألا يدوم، وينشد:

وعند التناهي يقصر المتطاولُ

توقع زوالاً إذ قيل تمّ

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب، ومثل هذا غمره فحسور
يمكر ضياعاً.

ومتى رفعك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسنه حسداً
لك، وقصداً لتصغير قدرك عندك، وتزهيداً لك فيه، فلا يحملك ذلك
على أن تزهد في عملك، وتركن إلى العلم الذي مدحوه، فتكون مثل
الغراب الذي أعجبه مشي الحجلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه، ثم
أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه؛ فبقي مخبل المشي.

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ويقول: ما بقي في
الدنيا كريم ولا فاضل، ولا مكان يستراح فيه؛ فإن الذين تراهم على
هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان، واستحقت طلعتة
للهوان، وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم، وعجزوا عن طلب الأمور
من وجوها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس، وإقامة الأعذار لأنفسهم
بقطع أسبابهم وتعذير أمورهم، ولا تُزل هذين البيتين من فكرك:

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا
فَأَخُو الْعِزِّ لَيْنٌ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ
فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

ولا قول الآخر:

تَهْ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ
وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثَرِي
كَالْغَصَنِ يَسْفِلُ مَا اكْتَسَى
ثَمَرًا وَيَعْلُو مَا تَعَرَى

ولا قول الآخر:

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ
وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
وَاعْتَقِدْ فِي النَّاسِ مَا قَالَهُ الْقَائِلُ:
وَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ
وَمَنْ يَغْوِ لَا يَعْدُمُ عَلَى الْغَيِّ لَأَنَّمَا

وتحفظ بما تضمنه قول الآخر:

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ
ذَمُّوهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

ولله در القائل:

وما كلُّ ما فوقَ البسيطةِ كافياً

فإذا اقتنعتَ فكلُّ شيءٍ كافٍ

والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم، والفظن يقنع بالقليل، ويستدل باليسير، والله سبحانه خليفتي عليك، لا رب سواه.

- عن مقاتل بن صالح الخراساني، قال: دخلت على حماد بن سلمة فإذا ليس في بيته إلا حصير وهو جالس عليه، ومصحف يقرأ فيه، وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ فيها، فبينما أنا عنده إذ دق داق الباب، فقال: يا صبية! اخرجي انظري من هذا. قالت: هذا رسول محمد بن سليمان. قال: قلولي له يدخل وحده. فدخل وسلم وناولته كتاباً. فقال: اقرأه. فإذا فيه:

من محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمة.

أما بعد:

فصَبَّحَكَ اللهُ بما صَبَّحَ به أوليائه وأهل طاعته، وقعت مسألة فإننا نسألك فيها.

فقال: يا صبية! هلمي بالدواة. ثم قال: اكتب في ظهر الكتاب:

أما بعد:

فأنت صَبَّحَكَ ما صَبَّحَ به أوليائه وأهل طاعته، أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً، فإن وقعت مسألة فائتتا فتسألنا عما بدا لك، وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدك ولا تأتني بخيلك ورجلك، فلا أنصحك ولا أنصح نفسي. والسلام.

فبينما أنا عنده جالس، إذ دق داقُّ الباب، فقال: يا صبية! اخرجي انظري من هذا؟

فقالت: محمد بن سليمان. قال: قلبي له يدخل وحده. فسلم ثم جلس بين يديه، فقال: ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رعباً؟

فقال حماد: سمعت ثابتاً يعني البُنَّانِي يقول: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْعَالِمُ إِذَا أَرَادَ بَعْلِمِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى هَابَهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِذَا أَرَادَهُ يُكْثِرُ بِهِ الْكُنُوزَ هَابَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

فقال: ما تقول يرحمك الله في رجل له ابنان، وهو عن أحدهما أرضى، فإذا أراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟

فقال: لا ويرحمك الله فإنني سمعت ثابتاً البُنَّانِي يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُعَذِّبَ عَبْدًا بِمَالِهِ وَفَقَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ لَوْصِيَّةً جَائِرَةً».

قال: فحاجة؟

قال: هاتِ ما لم تَكُنْ رَزِيَّةً في دين الله.

قال: أربعين ألف درهم تستعين بها على ما أنت عليه.

قال: ارُدِّدْها على من ظلمته بها.

قال: والله ما أعطيتك إلا ما ورثته.

قال: لا حاجة لي فيها.

قال: ازوها عني زوى الله عنك أوزارك.

قال: فغير هذا؟

قال: هاتِ ما لم يكن رزية في دين الله.

قال: تأخذها فتقسمها.

قال: فلعلِّي إنْ عدَلْتُ في قِسْمَتِهَا أن يقول بعض من لم يُرَزَق منها:

إنه لم يعدل في قِسْمَتِهَا فيأثم، ازوها عني زوى الله عنك أوزارك.

وقال الشافعي: من أحب أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم فعليه

بالخلوة وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين

ليس معهم إنصاف ولا أدب.

قال أبو يزيد البسطامي: كنت ثنتي عشرة سنة حدادَ نَفْسِي، وخمس

سنين مرآةَ قلبي، وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا في وسطي زَنَارٌ ظاهر،

فعملت في قطعه ثنتي عشرة سنة، ثم نظرت فإذا في باطني زَنَارٌ

فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع، فكُشِفَ لي، فنظرت

إلى الخلق فرأيتهم موتى، فكَبَّرْتُ عليهم أربع تكبيرات. ١. هـ.

فقال بعضهم: يكفي في شدة خفاء الرياء اشتباهه هذا الاشتباه على هذا السيد الذي عرّ نظيره في هذا الطريق.

وأما قوله: (فَرَأَيْتُهُمْ مَوْتَى) فهو في غاية من النفاسة والحسن، قل أن يوجد في غير كلام النبي ﷺ كلام يحصل معناه، وأنا أشير إلى معناه بعبارة وجيزة، فمعناه: إنه لما جاهد هذه المجاهدة، وتهذبت نفسه، واستتار قلبه، واستولى على نفسه وقهرها، وملكها ملكاً تاماً، وانقادت له انقياداً خالصاً: نظر إلى جميع المخلوقين فوجدهم موتى لا حكم لهم، فلا يضرون ولا ينفعون، ولا يعطون ولا يمنعون، ولا يحيون ولا يميتون، ولا يصلون ولا يقطعون، ولا يقربون ولا يبعدون، ولا يسعدون ولا يشقون، ولا يرزقون ولا يحرمون، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وهذه صفة الأموات أن يعاملوا معاملة الموتى في هذه الأمور المذكورة، وألّا يُخافوا ولا يُرجوا، ولا يُطمعَ فيما عندهم، ولا يُراووا ولا يداهنوا، ولا يُشتغل بهم، ولا يُحتقروا، ولا يُنتقصوا، ولا تُذكر عيوبهم، ولا تُتبع عثراتهم، ولا يُنقّب عن زلاتهم، ولا يُحسدوا، ولا يُستكثر فيهم ما أعطاهم الله تعالى من نعمه، ويُرحموا ويُعذّروا فيما يأتونه من النقائص، ولا يمنع ذلك من أنّا نقيم عليهم ما جاء الشرع به من الحدود، ولا يمنعا إقامة الحد ما قدّمناه.

ولا يمنعا أيضاً ما قدّمناه من إقامة الحد أنّا نحصر على ستر عوراتهم من غير تنقص لهم بها، كما يفعل ذلك بالميت، وإذا ذكرهم

ذاكراً بشين نهيناه عن الخوض في ذلك كما ننهاء عن ذلك في الميت، ولا
نفعل شيئاً لهم ولا نتركه لهم، ولا نمتنع من القيام بشيء من طاعات
الله بسببهم، ولا نمتنع من ذلك بسبب الميت، ولا نتكثر بمدحهم ولا
نحبه، ولا نكره سبهم إيانا ولا نقابله.

فالحاصل أنهم كالعدم في جميع ما ذكرناه، فهم مدبرون تجري فيهم
أحكام الله تعالى، فمن عاملهم هذه المعاملة، جمع خير الدنيا والآخرة.

يقول علي بن عبد العزيز الجرجاني:

يقولون لي فيك انقباض وإنما

رأوا رجلاً عن موقف الدل أحجماً

أرى الناس من داناهم هان عندهم

ومن أكرمته عزة النفس أكرما

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما

بدا طمع صيرته لي سلماً

وما زلت منحازاً ببعضي جانباً

عن الدل أعتد الصيانة مغنماً

إذا قيل: هذا منهل قلت: قد أرى

ولكن نفس الحر تحتمل الظما

أنزها عن بعض ما قد يشينها

مخافة أقوال العدا فيم أو لما

فأصبح عن عيب اللئيم مسلماً
 وقد رحّت في نفس الكريم معظماً
 وإنّي إذا ما فاتني الأمر لم أبت
 أقلّب كفي إثره متندماً
 ولكنّه إن جاء عضواً قبلته
 وإن مال لم أتبعه هلاً وليتما
 وأقبض خطوي عن حظوظ كثيرة
 إذا لم أنلها وافر العرض مكرماً
 وأكرم نفسي أن أضاحك عابساً
 وأن أتلقى بالمديح مذمماً
 وكم طالب رقي بنعماء لم يصل
 إليه وإن كان الرئيس المعظماً
 وكم نعمة كانت على الحرّ نقمة
 وكم مغنم قد عدّه الحرّ مغرماً
 ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
 لأخدم من لاقيت لكن لأخدماً
 أشقى به غرساً وأجنيه ذلة
 إذا فاتباع الجهل قد كان أحزماً

وإني لراضٍ عن فتى متعففٍ
يروح ويغدو ليس يملك درهما
يبىء يراعي النجم من سوء حاله
ويصبح طلقاً ضاحكاً متبسماً
ولا يسأل المثرين ما بأقضهم
ولو مات جوعاً عفاً وتكرماً
فإن قلت زئد العلم كاب فإنما
كبا حين لم نحرس سماء وأظلاما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
محيّاه بالأطماع حتى تجهما
وما كل برقٍ لاح لي يستفزني
ولا كل فكري مُنجداً ثم مُتهدماً
إلى أن أرى ما لا أغضُّ بذكره
إذا قلت قد أسدى إلي وأنعماً



فوائد العزلة وثمارها

واعلم أن للعزلة فوائد كثيرة، فمنها:

البعد عن غيبة الناس فالغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس وهي ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء أكان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء أذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك، فأما الدين فكقولك: سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل في النجاسات ليس باراً بوالديه، قليل الأدب لا يضع الزكاة مواضعها ولا يجتنب الغيبة، وأما البدن فكقولك: أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصفر، وأما غيرهما فكقولك: فلان قليل الأدب، متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم كثير الأكل وما أشبه ذلك، أو كقولك: فلان أبوه نجار أو إسكاف أو حداد أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو فلان سيئ الخلق متكبر، مرأى معجب عجول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك.

وقد روي في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أندرون ما الغيبة؟ قالوا: الله

ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: وإن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهتته.

وروي في سنن أبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني قصيرة. فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». أي: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتها.

وروي في سنن أبي داود عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم.

وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ياكم والغيبة؛ فإن الغيبة أشد من الزنا»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليزني فيتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبا». .

وعن أنس رضي الله عنه قال: من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان جيء به يوم القيامة مزقة عيناه ينادي بالويل والثبور، ويعرف أهله ولا يعرفونه.

وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً وأقلهم غيبة.

وقال الأحنف: فيّ خصلتان: لا أغتَاب جليسي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه.

وقيل للربيع بن خثيم: ما نراك تعيب أحداً؟ فقال: لست عن نفسي راضياً، فأتفرغ لذم الناس، وأنشد:
لنَفْسِي أَبْكِي لستُ أَبْكِي لغيرها
لنَفْسِي مِنْ نَفْسِي عَنِ النَّاسِ شَاغِلُ

وقال كثير عزة:

وسعى إليّ بغيبِ عِزَّةَ نِسْوَةٍ
جعلَ الإلهُ خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم: أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق ذو القرنين، وأول من عمل الحيس يوسف، وأول من عمل خبز الجرادق نمرود، وأول من كتب في القراطيس الحجاج، وأول من اغتَاب إبليس لعنه الله اغتَاب آدم عليه السلام.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن المغتَاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن أصرّ فهو أول من يدخل النار.

ويقال: لا تأمن مَنْ كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتَاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك.

وقيل للحسن البصري رضي الله عنه: إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إلي؟ فقال الحسن: أهديت إلي حسناتك فأردت أن أكافئك.

واعلم أن في الخلوة فوائد:

الفائدة الأولى: السلامة من آفات اللسان، فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم. وقد قال عليه السلام: «رحم الله امرأً تكلم فغنم، أو سكت فسلم» ولا يسلم في الغالب من آفاته إلا من أثر الخلوة على الاجتماع. وقال علي رضي الله عنه: إذا رأيت الفقير يؤثر الخلوة على الاجتماع والصمت على الكلام والصيام على الشبع فاعلم أن حبه قد عسل، وإذا رأيتَه يؤثر الخلطة والكلام والشبع على ضدها فاعلم أن حبه خاوٍ.

وقال: في القوت وفي كثرة الكلام قلة الورع وعدم التقوى وطول الحساب ونشر الكتاب وكثرة الطالبين وتعلق المظلومين بالظالمين وكثرة الإشهاد من الكرام الكاتبين ودوام الإعراض عن الملك الكريم؛ لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، وفيه الكذب وفيه الغيبة والنميمة والزور والبهتان.

ثم قال: وفي الخبر: أكثر خطايا ابن آدم في لسانه، وأكثر الناس ذنباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً فيما لا يعنيه.

الفائدة الثانية: حفظ البصر والسلامة من آفات النظر؛ فإن من كان معتزلاً عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه

من زهرة الدنيا وزخرفها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِٖٓ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَتِهِمْ فِيهِ﴾.

فتمنع بذلك النفس من التطلع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها. وقال محمد بن سيرين: إياك وفضول النظر؛ فإنها تؤدي إلى فضول الشهوة.

وقال بعض الأدباء: من كثرت لحظاته دامت حسراته.

وقالوا: إن العين سبب الحين أي الهلاك، ومن أرسل طرفه اقتتص حتفه، وإن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقة القلب.

الفائدة الثالثة: حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

قال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

قال القشيري: فأرباب المجاهدة إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات من الدنيا.

قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضة.

الفائدة الرابعة: حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف العبد وكمال له وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».

ولا شك أن من انفرد عن الناس ولم ينظر إلى ما هم فيه من الرغبة في الدنيا والانكباب عليها سلم من متابعتهم في ذلك وسلم من متابعة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة، وقل من يخالطهم أن يسلم ممّا هم فيه.

وقد روي عن عيسى عليه السلام: لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قالوا: من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون في الدنيا الراغبون فيها.

الفائدة الخامسة: السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأردال، ففي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم، ففي بعض الأخبار: مثل الجليس السوء كمثل الكير إذا لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه. وقال بعضهم: الجلسة مع غير الأخيار تزدل، ولو تكون صافياً.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود ما لي أراك منتبذاً وحدانياً؟ فقال: إلهي قلبت الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظان وارثد لنفسك إخواناً، وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه فإنه لك عدو.

الفائدة السادسة: التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر، ولا شك أن العبد إذا كان وحده تفرغ لعبادة ربه وانجمع عليها بجوارحه وقلبه لقلّة من يشغله عن ذلك.

قال في القوت: وأما الخلوة فإنها تفرغ القلب من الخلق وتقوي العزم على الثبات.

الفائدة السابعة: وجدان حلاوة الطاعات وتمكن لذيق المناجاة.

قال أبو طالب: ولا يكون العابد صادقاً حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية، وحتى يكون أنسه في الوحدة وروحه في الخلوة وأحسن أعماله في السر.

الفائدة الثامنة: راحة القلب والبدن؛ فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمورهم وتعب البدن بالسعي في أغراضهم وتكميل مرادهم، وإن كان في ذلك الثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم.

الفائدة التاسعة: صيانة نفسه ودينه من التعرض لشورور الخصومات التي توجبها الخلطة؛ فإن للنفس تولعاً وتسارعاً للخوض في مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا وزاحمتهم فيها.

وللشافعي رحمته الله:

وَمَنْ يَذِقِ الدُّنْيَا فَإِنِّي طَعَمْتُهَا
وَسِيقَ إِلَيَّ عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَلَمْ أَرَهَا إِلَّا غُرُوراً وَبَاطِلاً
كَمَا لَاحَ فِي ظَهْرِ الْفَلَاحِ سَرَابُهَا
وَمَا هِيَ إِلَّا جِيْفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ
عَلَيْهَا كَلَابٌ هَمَّهْنَ اجْتَنَابُهَا

فإن تجتنبها عشتَ سلماً لأهلها
وإن تجتذبها ناهشتك كلابها
فطوبى لنفسٍ أوطأت قعر بيتها
مغلقة الأبوابِ مرخي حجابها

الفائدة العاشرة: التمكن من عبادة التفكير والاعتبار وهو المقصود الأعظم من الخلوة. وكان عيسى عليه السلام يقول: طوبى لمن كان كلامه ذكراً وصمته تفكيراً ونظره عبرة، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

وقال كعب: من أراد شرف الآخرة فليكثر من التفكير.

وكان أفضل عبادة أبي الدرداء التفكير؛ وذلك لأنه يصل به إلى حقائق الأشياء وتبيين الحق من الباطل ويطلع بها أيضاً على خفايا آفات النفوس ومكائدها وغرور الدنيا ويتعرف بها وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها.

قال الحسن رضي الله عنه: الفكرة مرآة تريك حسنك من سيئك ويطلع بها أيضاً على عظمة الله وجلاله إذا تفكر في آياته ومصنوعاته، ويطلع بها أيضاً على آلائه ونعمائه الجليلة والخفية، فيستفيد بذلك أحوالاً يزول بها مرض قلبه ويستقيم بها على طاعة ربه. وقد قال الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين في فوائد العزلة: فلنحصرها في ست فوائد:

- الفائدة الأولى: التفرغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة، وملكوت السموات والأرض؛ فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه، ولهذا قال بعض الحكماء: لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى.

والتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذي استراحوا من الدنيا بذكر الله، الذاكرون الله بالله، عاشوا بذكر الله، وماتوا بذكر الله، ولقوا الله بذكر الله.

ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر، فالعزلة أولى بهم، ولذلك كان ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء، وينعزل إليه حتى قوي في نور النبوة، فكان الخلق لا يحجبونه عن الله، فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى، حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليفه، فأخبر النبي ﷺ عن استغراق همه بالله، فقال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ».

ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سرّاً إلا قوة النبوة، فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك.

وقيل لبعض الرهبان: ما أصبرك على الوحدة؟!

فقال: ما أنا وحدي. أنا جليس الله تعالى، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت.

وقيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة؟

فقالوا: إلى الأنس بالله.

وقال سفيان بن عيينة: لقيت إبراهيم بن أدهم في بلاد الشام فقلت له: يا إبراهيم! تركت خراسان؟ فقال: ما تهنأت بالعيش إلا ها هنا، أفر بديني من شاهق إلى شاهق، فمن يراني يقول موسوس أو حمال أو ملاح.

وقيل لغزوان الرقاشي: هَبْكَ لا تضحك، فما يمنعك من مجالسة إخوانك؟ قال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة مَنْ عنده حاجتي. وقيل للحسن: يا أبا سعيد! ها هنا رجل لم نره قطّ جالساً إلا وحده خلف سارية. فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به.

فنظروا إليه ذات يوم، فقالوا للحسن: هذا الرجل الذي أخبرناك به، وأشاروا إليه، فمضى إليه الحسن، وقال له: يا عبد الله! أراك قد حببت إليك العزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ فقال: أمر شغلني عن الناس.

قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن، فتجلس إليه؟ فقال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن.

فقال له الحسن: وما ذاك الشغل يرحمك الله؟

فقال: إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنوب، فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب.

فقال له الحسن: أنت يا عبد الله، أفقه من الحسن، فالزم ما أنت عليه.

وقيل: بينما أويس القرني جالس، إذ أتاه هرم بن حيان، فقال له أويس: ما جاء بك؟

قال: جئت لأنس بك.

فقال أويس: ما كنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره.

وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به وقلت: أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس، وأن يجيئني من يشغلني عن ربي.

وقال عبد الله بن زيد: طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة.

قيل له: وكيف ذلك؟

قال: يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة.

وقال ذو النون المصري: سرور المؤمن ولذته بمناجاة ربه.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قلَّ علمه، وعمي قلبه، وضيعَ عمره.

وقال ابن المبارك: ما أحسن حال من انقطع إلى الله تعالى!

ويُروى عن بعض الصالحين أنه قال: بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعباد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إليّ

تنحى إلى أصل شجرة وتستتر بها . فقلت: سبحان الله! تبخل عليّ بالنظر إليك؟ فقال: يا هذا! إني أقمت في هذا الجبل دهرًا طويلًا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها، فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري، فسألت الله تعالى ألا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي، فسكنه الله عن الاضطراب وآلفه الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول، فإليك عني. ثم صاح: واغمّاه من طول المكث في الدنيا! ثم حوّل وجهه عني ثم نفّس يديه وقال: إليك عني يا دنيا، لغيري فتزيني، وأهلك فغري. ثم قال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهم قلوبهم عن ذكر الجنان، وعن الحور الحسان، وجمع همهم في ذكره فلا شيء ألدّ عندهم من مناجاته. ثم مضى وهو يقول: قدوس.

إذاً، ففي الخلوة أنس بذكر الله، واستكثار من معرفة الله، وفي مثل ذلك قيل:

وإنّي لأستغشي وما بي غشوة

لعلّ خيالاً منك يلقي خيالياً

ولذلك قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيكثر حينئذ ملاقة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة؛ ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة.

وقد قيل: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

فهذه فائدة جزيلة، ولكن في حق بعض الخواص، ومن يتيسر له بدوام الذكر والأنس بالله، أو بدوام الفكر التحقيق في معرفة الله، فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرتها المعاملات: أن يموت الإنسان محباً لله، عارفاً بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

- الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة، ويسلم منها في الخلوة وهي أربع: الغيبة، والنميمة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عنه المنكر. ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب الله آفات اللسان ووجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون؛ فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس، والتفكه بها، والتنقل بحلاوتها، وهي طعمتهم ولذتهم، وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة؛ فإن خالطتهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكّنت كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك، فازدادوا غيبة إلى غيبة، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين، وهو واجب، ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات؛ فإن سكوت عصى الله به، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر؛ إذ ربما يجره طلب الخلاص منها إلى معاصٍ هي أكبر مما نهى عنه ابتداءً.

وفي العزلة خلاص من هذا؛ فإن الأمر في إهماله شديد، والقيام به شاق، وقد قام أبو بكر خطيباً وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَقْرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ».

وَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ إِذَا رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقِيَ اللَّهَ عَبْدًا حَجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ! رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ». وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يُطاق، ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر، وفي العزلة خلاص، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات، وتحريك لغوائل الصدور، كما قيل.

ومن جرَّب الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً، فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه، فإذا سقط عليه قال: يا ليتني تركته مائلاً.

نعم، لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام، وأنت اليوم لا تجد الأعوان، فدعهم وانج بنفسك.

وأما الرياء فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا، وأقل ما يلزم فيه النفاق، فإنك إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بفيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتها كنت من شرار الناس، قال ﷺ: «تَجِدُونَ مِنْ شَرِّارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهِينِ، يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهِ».

وأقل ما يجب في مخالطة الناس: إظهار الشوق والمبالغة فيه، ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه، وهذا نفاق محض.

قال السري: لو دخل عليّ أخ لي فسويت لحيتي بيدي لدخوله لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين.

وكان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام، فجاء إليه أخ له فقال: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة يا أبا علي. فقال: هي والله بالمواحشة أشبه، هل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك، وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عني أو أقوم عنك.

وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبداً إلا أحب ألا يشعر به.

ودخل طاوس على الخليفة هشام، فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال: لِمَ لَمْ تخاطبني بأمر المؤمنين؟ فقال: لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذباً.

فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز فليخالط الناس، وإلا فليرضَ
بإثبات اسمه في جريدة المنافقين، فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون
في قولهم: كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي
الجواب عنه، فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا.

قال حاتم الأصم لحامد اللفاف: كيف أنت في نفسك؟ قال: سالم
معافى. فكره حاتم جوابه، وقال: يا حامد! السلامة من وراء الصراط،
والعافية في الجنة.

وكان إذا قيل لعيسى عليه السلام: كيف أصبحت؟ قال: لا أملك
تقديم ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أحاذر، وأصبحت مرتهاً بعملي،
والخير كله في يد غيري، ولا فقير أفقر مني.

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من
ضعفاء مذنبين، نستوفي أرزاقنا وننتظر آجالنا.

وكان أبو الدرداء إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بخير
إن نجوت من النار.

وقيل لأويس القرني: كيف أصبحت؟

فقال: كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح، وإذا أصبح
لا يدري أنه يمسي؟!

وقيل لمالك بن دينار: كيف أصبحت؟

فقال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد.

وقيل لحكيم: كيف أصبحت؟

فقال: أصبحت أكل رزق ربي، وأطيع عدوه إبليس.

وقيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟

فقال: ما ظنك برجل يرحل كل يوم على الآخرة مرحلة؟

وقيل لرجل وهو يجود بنفسه: ما حالك؟

فقال: وما حال من يريد سفرًا بعيداً بلا زاد، ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة.

وقيل لحسان بن أبي سنان: ما حالك؟ فقال: ما حال من يموت ثم يُبعث ثم يحاسب؟

وقال ابن سيرين لرجل: كيف حالك؟

فقال: وما حال من عليه خمس مئة درهم ديناً وهو معيل؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه. وقال: خمس مئة اقض بها دينك، وخمس مئة عُدّ بها على نفسك وعيالك.

ولم يكن عنده غيرها، ثم قال: والله لا أسأل أحداً حاله أبداً. وإنما فعل ذلك لأنه خشي أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرئياً منافقاً، فقد كان سؤالهم عن أمور الدين، وأحوال

القلب في معاملة الله، وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة.

وأما مسارقة الطبع مما يُشاهد من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين، قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله، إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع، فيسقط وقعه واستعظامه له، وإنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب، فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة، أو أن تنحل القوة الوازعة، يذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه.

ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحققر الصغائر من نفسه، ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه، فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده، وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم. وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع، فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والنتزه عن الدنيا، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار، وإلى عبادته بعين الاستحقار، وما دام يرى نفسه مقصراً فلا يخلو عن داعية الاجتهاد؛ رغبة في الاستكمال، واستتماماً للاقتداء.

ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله، وإقبالهم على الدنيا، واعتيادهم على المعاصي، استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه، وذلك هو الهلاك.

ويكفي في تغير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته، وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله ﷺ: «عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تُنْزَلُ الرَّحْمَةُ». وإنما الرحمة دخول الجنة، ولقاء الله، وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه، وهو انبعاث الرغبة من القلب، وحركة الحرص على الاقتداء بهم، والاستتكاك هو عما هو ملابس له من القصور والتقصير. ومبدأ الرحمة فعل الخير، ومبدأ فعل الخير الرغبة، ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين، فهذا معنى نزول الرحمة.

والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه، وهو أنه عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة؛ لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي، واللعنة هي البعد، ومبدأ البعد من الله هو المعاصي، والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة، والشهوات الحاضرة، لا على الوجه المشروع، ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وفحشها عن القلب، ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع.

وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم؟

بل قد صرح بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْكَبِيرِ، إِنْ لَمْ يُحْرِقْكَ بِشَرِّهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ».

فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به، فكذلك يسهل الفساد على القلب، وهو لا يشعر به.

وقال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ صَاحِبِ الْمِسْكِ، إِنْ لَمْ يَهَبْ لَكَ مِنْهُ تَجِدْ رِيحَهُ». ولهذا أقول: مَنْ عَرَفَ مِنْ عَالَمِ زَلَّةٍ حَرَمَ عَلَيْهِ حكايتها لعلتين:

إحدهما: إنها غيبة، والثانية وهي أعظمهما: إن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها؛ فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية، فإنه مهما وقع فيها فاستكرر ذلك دفع الاستتكار، وقال: كيف يستبعد هذا وكلنا مضطرون إلى مثله، حتى العلماء والعباد؟!

ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر، لشق عليه الإقدام. فكم من شخص يتكالب على الدنيا، ويحرص على جمعها، ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها، ويهون على نفسه قبحها، ويزعم أن الصحابة لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة، وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية رضي الله عنهما، ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة، ولوازمها من المعاصي.

والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات، بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه، بالتزليل على مقتضى الشهوة

ليتعلم به، وهو من دقائق مكاييد الشيطان ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وضرب ﷺ مثلاً وقال: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْتَمِعُ الْحِكْمَةَ ثُمَّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا بِشَرِّ مَا يَسْتَمِعُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِيًا فَقَالَ: يَا رَاعِي! اجْرُرْ لِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ. فَقَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ خَيْرَ شَاةٍ فِيهَا، فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الْغَنَمِ». وكل من ينقل هفوات الأمة فهذا مثاله أيضاً.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته: أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم، مع أن صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم، وحز الرقبة عند قوم وترك الصوم كله لا يقتضيه، ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر، فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب.

وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب، أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياي للناس ولا يُستبعد منه ذلك، والغيبة أشد من الزنا، فكيف يكون أشد من لبس الحرير؟!

ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب، وهون على النفس أمرها.

فتفتطن لهذه الدقائق، وفرّ من الناس فرارك من الأسد؛ لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا، وغفلتك عن الآخرة، ويهون عليك المعصية، ويضعف رغبتك في الطاعة؛ فإن وجدت جليساً يذكر الله رؤيته وسيرته، فالزمه ولا تفارقه، واغتممه ولا تستحقره، فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن، وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة، وأن الوحدة خير من الجليس السوء.

ومهما فهمت هذه المعاني ولا حظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته، لم يخف عليك أن الأولى التباعد عنه بالعزلة، أو التقرب إليه بالخلطة، وإياك أن تحكم مطلقاً على العزلة أو على الخلطة بأن أحدهما أولى؛ إذ كل مفصل بإطلاق القول فيه ب: (لا) أو (نعم) خلف من القول محض، ولا حق في المفصل إلا التفصيل.

- الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفوس عن الخوض فيها، والتعرض لأخطارها، فقلماً تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لما ذكر رسول الله ﷺ الفتن ووصفها، وقال: «إذا رأيت الناس مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه». قلت: هكذا فماذا تأمرني؟ فقال: «الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة».

- الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن، ومرة بالاقتراعات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كُنْهه، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك، ولذلك قال بعض الحكماء لغيره: أعلمك بكلمتين خير من عشرة آلاف درهم؟

قال: ما هما؟

قال:

اخفضِ الصوتَ إنْ نطقتَ بليلاً

والتفتِ بالنهارِ قبلَ المقالِ

ليسَ للقولِ رجعةٌ حينَ يبدؤُ

بقبيحٍ يكونُ أو بجمالِ

لا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسيء الظن به، ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ونصب المكيدة له، وتدسيس غائلة وراءه، فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، وقد اشتد حرصهم على الدنيا، فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها.

قال المتنبى:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ
وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبّيه بقول عدااته
فأصبح في ليل من الشك مُظلم
وقد قيل: معاشره الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار.

وأَنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثير، ولسنا نطول بتفصيلها، ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها، وفي العزلة خلاص من جميعها، وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة، قال الشاعر:

من حمد الناس ولم يبلهم
ثم بلاهم ذم من يحمده
وصار بالوحدة مستأنساً
يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر (رضي الله عنه): (في العزلة راحة من القرين السوء).

وقيل لعبد الله بن الزبير (رضي الله عنه): ألا تأتي المدينة؟

فقال: ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة.

وقال ابن السماك: كتب صاحب لنا: أما بعد، فإن الناس كانوا

دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له ففرّ منهم فرارك من الأسد.

وقال الحسن رضي الله عنه: أردت الحج، فسمع ثابت البناني بذلك، وكان أيضاً من أولياء الله، فقال: بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصاحبك. فقال له الحسن: وَيَحَكَ، دَعْنَا نَتَعَاشِرُ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْنَا، إِنِّي أَخَافُ أَنْ نَصْطَحِبَ فَيَرَى بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ مَا نَتَمَاقَتُ عَلَيْهِ.

وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والبروءة والأخلاق، والفقر وسائر العورات. وقد مدح الله سبحانه المستترين فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

ولا عار إن زالت عن الحرِّ نعمة
ولكن عاراً أن يزول التَّجَمُّلُ

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه، وأخلاقه وأفعاله عن عورات، الأولى في الدين والدنيا سترها، ولا تبقى السلامة مع انكشافها.

وقال أبو الدرداء: كَانَ النَّاسُ وَرَقًا لَا شَوْكَ فِيهِ، فَالْنَّاسُ الْيَوْمَ شَوْكٌ لَا وَرَقَ فِيهِ.

وإذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول، فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر.

وقال سفيان بن عيينة: قال لي سفيان الثوري في اليقظة في حياته وفي المنام بعد وفاته: أقل من معرفة الناس؛ فإن التخلص منهم شديد، ولا أحسب أنني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت.

وقيل لبعضهم: ما حملك على أن تعتزل الناس؟

قال: خشيت أن أسلب ديني، ولا أشعر.

وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء.

وقال أبو الدرداء: اتَّقُوا اللَّهَ وَاحْذَرُوا النَّاسَ، فَإِنَّهُمْ مَا رَكِبُوا ظَهَرَ
بَعِيرٍ إِلَّا أَدْبَرُوا، وَلَا ظَهَرَ جَوَادٍ إِلَّا عَقَرُوهُ، وَلَا قَلْبَ مُؤْمِنٍ إِلَّا حَرَبُوهُ.

وقال بعضهم: أقلل المعارف، فإنه أسلم لدينك وقلبك، وأخف
لسقوط الحقوق عنك؛ لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق، وعسر
القيام بالجميع.

- الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وينقطع طمعك
عن الناس: فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد؛ فإن إرضاء
الناس غاية لا تُدرَك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى.

ومن أهون الحقوق وأيسرها: حضور الجنازة، وعيادة المريض،
وحضور الولائم والإملاكات، وفيها تضييع الأوقات، وتعرض للآفات،
ثم قد تعوق عن بعضها العوائق، وتستقبل فيها المعاذير، ولا يمكن
إظهار كل الأعداء، فيقولون له: قمت بحق فلان وقصرت في حقنا.
ويصير ذلك سبب عداوة، فقد قيل: من لم يعد مريضاً في وقت
العيادة انتهى موته؛ خيفة من تخجيله إذا صحَّ على تقصيره.

وقال الشافعي: أصل كل عداوة اصطناع المعروف في اللئام.

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طعمه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال، فيتأذى بذلك، ومهما اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾. وقال ﷺ: «انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ دُونَكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

وحكي أن المزني رحمته الله خرج من باب جامع الفسطاط، وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه، فبهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته، فتلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾. ثم قال: بل أصبر وأرضى، وكان فقيراً مقللاً، فالذي هو في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن؛ فإن من شاهد زينة الدنيا، فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر، وإما أن يهلك هلاكاً مؤبداً؛ أما في الدنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات، فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له، وأما في الآخرة فبإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه. ولذلك قال الأعرابي:

إِذَا كَانَ الَّذِي مِنْ جَانِبِ الْغِنَى

سَمَوْتُ إِلَى الْعِلْيَاءِ مِنْ جَانِبِ الْفَقْرِ

أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلاً.

- الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة حمقهم وأخلاقهم؛ فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر.

قيل للأعمش: مم عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء.
ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال: في الخبر أن مَنْ سَلَبَ
اللَّهُ كَرِيمَتَيْهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمَا، فما الذي عَوَّضَكَ؟
فقال في معرض المطالبة: عوضني الله منهما أنه كفاني رؤية الثقلاء،
وأنت منهم.

وقال ابن سيرين: سمعت رجلاً يقول: نظرت إلى ثقل مرة فغشي علي.
وقال جالينوس: لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء.
وقال الشافعي: ما جالست ثقيلاً إلا وجدت الجانب الذي يليه من
بدني كأنه أثقل علي من الجانب الآخر.

وهذه الفوائد ما سوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية
الحاضرة، ولكنها أيضاً تتعلق بالدين، فإن الإنسان مهما تأذى برؤية
ثقل لم يأمن أن يغتابه وأن يستتكر ما هو صنع الله، فإذا تأذى من
غيره بغيبة أو سوء الظن، أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر
عن مكافأته، وكل ذلك يجر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة عن
جميع ذلك، فليفهم.

آفات العزلة:

الآفة الأولى: التعليم والتعلم اللذان هما من أعظم العبادات لا
يتحصلان إلا بالخلطة، والعزلة قبل تعلم الفروض غلط.

قال النخعي: تفقه ثم اعتزل. إلا أنه ينبغي ألا يكون المراد الجاه واستكثار الأصحاب والأتباع والتقدم على الأقران وتقرب السلطان وتولي الأعمال واجتلاب الأموال؛ لأنها هلاك الدين.

وقد قال بعضهم: دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك، فليس لك منهم مال ولا جمال، وإخوان العلانية أعداء السر، إذا لقوك تملقوك، وإذا غبت عنهم سلقوك، ومن أتاك منهم كان عليك رقيباً، وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق ونميمة وغل وخديعة، فلا تغترّ باجتماعهم عليك، فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلماً إلى أوطارهم وحماراً في حاجاتهم، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم دالاً عليك، ويرونه حقاً واجباً لديك، ويعرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم، فتعادي عدوهم وتتصر غريبهم وخادمهم ووليهم، وتنتهز لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً بعد أن كنت متبوعاً رئيساً، وهذا كلام حق رحم الله قائله؛ فإن المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم، فكأنه يهدي تحفة إليه، فيرى حقه واجباً عليه، ثم المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك ويبذل دينه وعرضه في أبواب الظلمة لأجل أغراضهم الذميمة ومع ذلك نسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مقادير الفضل، وسلقه السفهاء بالسنه حداد، وثاروا عليه ثوران الأسود والأساد.

الآفة الثانية: النفع والانتفاع؛ فإن الخلطة للاكتساب لأجل التصدق أفضل من العزلة لأجل النوافل، وإن كانت العزلة لأجل التحقق في

معرفة الله تعالى وعلوم الشرع والإقبال بكنه الهمة على الله والتجرد به للذكر أفضل، وأيضاً القيام بحاجات المسلمين حسبة لله تعالى على حدود الشرع أفضل من العزلة بنوافل الصلوات والأعمال البدنية وإن كانت القلبية من المعارف لا معادل لها أصلاً وقطعاً.

الآفة الثالثة: التأديب والتأدب بكسر النفس وقهر الشهوات بتحمل أذى الناس، وهو أفضل من العزلة لمن يتهذب.

الآفة الرابعة: الاستئناس والإيناس وذلك قد يكون حراماً كمجالس الغيبة واللهو، ومباحاً كالأنس بالمشايخ، ومستحباً كترويح القلوب؛ فإن القلوب إذا كُتِّ عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالس ترويح فهي في بعض الأوقات ربما تكون أفضل في حق بعض الناس وفي بعض الحالات دون الأخرى.

الآفة الخامسة: في نيل ثواب كحضور الجنائز وعيادة المرضى.

الآفة السادسة: التواضع الذي هو أفضل المقامات، ولا يوجد في الوحدة.

الآفة السابعة: التجارب؛ إذ مجرد العقل غير كافٍ في مصالح

الدين والدنيا.

قال في القشيرية: والعزلة من أمارات الوصلة، ولا بد للمرء

في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه.



العزلة بغير عين العلم زلة

أقصد بها العزلة عن الشر وفضول المباح، وهي مما يشرح الخاطر ويذهب الحزن.

- قال ابن تيمية: لا بد للعبد من عزلة لعبادته، وذكره وتلاوته، ومحاسبته لنفسه، ودعائه واستغفاره، وبعده عن الشر، ونحو ذلك.

- ولقد عقد ابن الجوزي في صيد الخاطر ثلاثة فصول، ملخصها أنه يقول: ما سمعت ولا رأيت كالعزلة، راحةً وعزاً وشرفاً، وبعداً عن السوء وعن الشر، وصوناً للجاه والوقت، وحفظاً للعمر، وبعداً عن الحساد، والثقلاء، والشامتين، وتفكيراً في الآخرة، واستعداداً للقاء الله عز وجل، واغتناماً للعمر في الطاعة، وجولان الفكر فيما ينفع، وإخراج كنوز الحكم، واستتباط الأحكام من النصوص. ونحو ذلك من كلامه الذي ذكره في العزلة، هذا معناه بتصرف.

- وللعزلة عزٌّ لا يعلمه إلا الله، ففي العزلة استثمار العقل، وقطف جنى الفكر، وراحة القلب، وسلامة العرض، وموفور الأجر، والنهي عن المنكر، واغتنام الأنفاس في الطاعة، وتذكر الرحيم، وهجر الملهيات والمشغلات، والفرار من الفتن، والبعد عن مداراة العدو، وشماتة الحاقد، ونظرات الحاسد، ومماطلة الثقيل، والاعتذار إلى المعاتب، ومطالبة الحقوق، ومداواة المتكبر، والصبر على الأحمق.

وعن الشبلي رحمه الله تعالى: الزم الوحدة وامسح اسمك من القوم واستقبل الجدار حتى تموت.

- وفي العزلة ستر للعورات: عورات اللسان، وعثرات الحركات، وفلتات الذهن، ورعونة النفس.

- فالعزلة حجاب لوجه المحاسن، وصدف لدر الفضل، وأكمام لطلع المناقب.

- وما أحسن العزلة مع الكتاب! وفرة للعمر، وفسحة للأجل، وبحبوحة في الخلوة، وسفراً في طاعة، وسياحة في تأمل.

- وفي العزلة تجد التأمل والترقب، والتفكر والتدبر، وفي العزلة تحرص على المعاني، وتحوز على اللطائف، وتتأمل في المقاصد، وتبني صرح الرأي، وتشيد هيكل العقل.

- والروح في العزلة في جذل، والقلب في فرح أكبر، والخاطر في اصطياد الفوائد.

- ولا تُرائي في العزلة؛ لأنه لا يراك إلا الله، ولا تُسمع بكلامك بشراً، فلا يسمعك إلا السميع البصير.

- كل اللامعين والنافعين، والعباقرة والجهابذة، وأساطين الزمن، ورواد التاريخ، وشداة الفضائل، وعيون الدهر، وكواكب المحافل، كلهم سقوا غرس نبلمهم من ماء العزلة حتى استوى على سوقه، فنبتت شجرة عظمتهم، فأتت أكلها كل حين بإذن ربها.

- وقال أحمد بن خليل الحنبلي:

من أراد العزَّ والراحةَ من همٍّ طويلٍ
ليكن فرداً من النَّاسِ ويرضى بالقليلِ
كيف يصفو لامرئٍ ما عاش من عيشٍ وبيلٍ
بين غمرٍ من ختولٍ ومداجاةٍ ثقیلٍ
ومدارةٍ حسودٍ ومعاناةٍ بخيلٍ
أه من معرفة الناس على كل سبيلٍ

فالزم العزلة عن الناس؛ لأنك قد عرفت أنه ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ
مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

- وقال الحميدي المحدث:

لقاء الناس ليس يفيده شيئاً
سوى الإكثار من قيلٍ وقيلٍ
فأقلل من لقاء الناس إلا
لكسب العلم أو إصلاح حالٍ
- قالوا: كل من أحب العزلة فهي عزُّ له.

وأخرج أبو داود بإسناد جيد عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: ثلاثة
كلهم ضامن على الله عز وجل: رجل خرج غازياً في سبيل الله، فهو
ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر

وغنيمة، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على الله، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل.

قال بعض العلماء: ضامن على الله معناه مضمون فاعل بمعنى مفعول.

قال: وقوله: دخل بيته بسلام يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يسلم إذا دخل منزله كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ﴾.

والثاني: أن يكون أراد أن يلزم البيت طلباً للسلامة من الفتن، يرغب بذلك في العزلة ويأمر بإقلال الخلطة، والله أعلم.

- وقد قال بعضهم: إن العزلة والاختلاط يختلفان باختلاف متعلقاتهما، فتحمل الأدلة الواردة في الحض على الاجتماع على ما يتعلق بطاعة الأئمة وأمور الدين، وعكسها في عكسه، وأما الاجتماع والافتراق بالأبدان، فمن عرف الاكتفاء بنفسه في حق معاشه ومحافظة دينه، فالأولى له الانكفاف من مخالطة الناس، بشرط أن يحافظ على الجماعة، والسلام والرد، وحقوق المسلمين من العيادة وشهود الجنازة، ونحو ذلك.

والمطلوب إنما هو ترك فضول الصحبة، لما في ذلك من شغل البال وتضييع الوقت عن المهمات، ويجعل الاجتماع بمنزلة الاحتياج

إلى الغداء والعشاء، فيقتصر منه على ما لا بد له منه، فهو أروح للبدن والقلب. والله أعلم.

- والناس في مسألة العزلة والخلطة طرفان ووسط.

فالطرف الأول: من اعتزل الناس حتى عن الجمع والجماعات والأعياد ومجامع الخير، وهؤلاء أخطؤوا.

والطرف الثاني: من خالط الناس حتى في مجالس اللهو واللغو، والقليل والقال، وتضييع الزمان، وهؤلاء أخطؤوا.

والوسط: من خالط الناس في العبادات التي لا تقوم إلا باجتماع، وشاركهم فيما فيه تعاون على البر والتقوى، وأجر ومثوبة، واعتزل مناسبات الصد والإعراض عن الله، وفضول المباحات: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

قال بعضهم:

وفي خلوة الإنسان بالعلم أنسه

ويسلم دين المرء عند التوحد

أي: انفراد الإنسان عن الناس وأحوالهم وشؤونهم بمطالعة كتب العلم من التفسير والحديث والفقه وسيرة الرسول ﷺ والتفهم في ذلك، وتتبع أيامه ﷺ وأحواله وشؤونه والتأدب بآدابه، والتخلق بما أمكنه من أخلاقه، وذكر غزواته وسراياه ومكاتباته، والوفود الذين

كانوا يفدون عليه من أقطار الأرض، ومطالعة كتب الرقائق والوعظ
وذم الدنيا والاحتفال بها والرضا عن النفس، ومطالعة اللغة العربية
وكتب النحو وما يحتاج إليه من الآلات، فمطالعة المرء لهذه العلوم
والخلوة بها أنسه في خلوته ووحدته.

قال في القاموس: والأنس بالضم وبالتحريك والأنسة محركة
ضد الوحشة، وقد أنس به بتثليث النون وأنسه ضد أوحشه، وأنس
الشيء أبصره.

فإذا كان الإنسان قد منحه الله تعالى طرفاً صالحاً من العلوم
وانفرد بها عن أبناء زمانه في خلوته لم يستوحش أبداً. كيف وهو
يمر على أخبار الأوائل وأيامهم، ويطلع على شؤونهم وأحوالهم،
ويظهر على أفعالهم وكلامهم، ونثرهم ونظامهم، وكرمهم وقتالهم،
وهممهم ونكالهم، وإقدامهم وإحجامهم، وإحلالهم وإبرامهم، وكفرهم
وإسلامهم، وأديانهم وأصنامهم، وحلم الرسل وعزمهم، وسعة أخلاقهم
وحزمهم، وعفوهم وصبرهم، وتضرعهم إلى الحق وذكرهم، حتى إذا
انتهيت إلى سيرة الخاتم للرسالة والقامع للكفر والضلالة كنت كأنك
بين أظهر الصحابة الكرام الذين قشع الله بهم الكفر وأباده، ونصر
بهم نبيه ﷺ وأهلك أضداده، فتارة تفرح وأخرى تبكي، ورأيت وقعاتهم
واحدة تشرح وأخرى تتكي؟

فمن كان في خلوته بهذه المثابة فكيف لا تفارقه الوحشة والكآبة،
ويصحبه الأنس والسرور والمهابة، مع ما يطلع عليه من معرفة الأحكام

الشرعية، والأخبار النبوية، وسير الملوك والدول، وأخبار الأخبار والأول، والشرائع والملل، والمقالات والنحل، وأهل التقوى والخشوع، والطاعة والخضوع، والظلمة والجبايرة، والأكاسرة والقياصرة، فكل هذا يأنس به في خلوته، ويسكن إليه في وحدته. ويسلم دين المرء المختلي من شائبة الرياء ومقارفة الأذى عند التوحد والانفراد، والعزلة عن العباد. ومن سلم دينه فقد حصل على غاية المراد، وسعد كل الإسعاد.

- العزلة الشرعية السنية: بعدك عن الشر وأهله، والفارغين واللاهين والفوضويين، فيجتمع عليك شملك، ويهدأ بالك، ويرتاح خاطرك، ويجود ذهنك بدرر الحكم، ويسرح طرفك في بستان المعارف.

والخلوة عن الخلق إنما تمدح لمن أتقن أمر دينه، وعلم من العلوم ما يتعين عليه علمه، وعرف الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحظور، وما يجب لله ويجوز، وما يستحيل في حقه جل شأنه وتعالى سلطانه، وكذا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

- إن العزلة عن كل ما يُشغِلُ عن الخير والطاعة دواء عزيز، جرّبه أطباء القلوب فنجح أيما نجاح، وأنا أدلك عليه:

- في العزلة عن الشر واللغو وعن الدهماء تلقيح للفكر، وإقامة لناموس الخشية، واحتفال بمولد الإنابة والتذكر، وإنما كان الاجتماع المحمود، والاختلاط الممدوح في الصلوات والجمع، ومجالس العلم

والتعاون على الخير، أما مجالس البطالة والعطالة فحذارٍ حذارٍ، اهرب بجلدك، ابكِ على خطيئتك، وأمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك.

- الاختلاط الهمجي حرب شعواء على النفس، وتهديد خطير لدنيا الأمن والاستقرار في نفسك؛ لأنك تجالس أساطين الشائعات، وأبطال الأراجيف، وأساتذة التبشير بالفتن والكوارث والمحن، حتى تموت كل يوم سبع مرات قبل أن يصلك الموت: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

إذاً: فرجائي الوحيد إقبالك على شأنك، والانزواء في غرفتك، إلا من قول خير أو فعل خير، حينها تجد قلبك عاد إليك، فسلم وقتك من الضياع، وعمرك من الإهدار، ولسانك من الغيبة، وقلبك من القلق، وأذنك من الخنا، ونفسك من سوء الظن، ومن جرّب عرف، ومن أركب نفسه مطايا الأوهام، واسترسل مع العوام فقل: عليه السلام.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: والله لوددت أن بيني وبين الناس باباً من حديد لا يكلمني أحد ولا أكلمه، حتى ألحق بالله عز وجل.

- لئن اعتزلُ وأفيد نفسي خير لي من أخالط الناس وأتضرر.
- اعتزل الناس إلا من خير، وكن جليس بيتك، وأقبل على شأنك، وقلل من المخالطة.

- العزلة تحميك من الحاسد والشامت، والثقل والمتكبر، والمغتاب والمعجب... وكفى بها نفعاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا مخافة الوسواس لدخلت إلى بلاد لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس؟

وقال سعيد بن المسيب وابن سيرين: العزلة عبادة. وقال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيت الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة.

- العزلة مملكة الأفكار، وكثرة الخلطة حمق، والثوق بالناس سفه، واستعداؤهم شؤم.

- رب كلمةٍ سلبت نعمة، ورب زلةٍ أوجبت ذلة، وكم من خلوة حلوة.

- العزلة يجب أن تكون تابعة للحاجة وجارية مع المصلحة.

وأوصى داود الطائي: فِرَّ من الناس كما تفر من الأسد.

وأوصى سفيان الثوري رحمه الله تعالى بعض أصحابه، فقال: إن استطعت ألا تخالط في زمانك هذا أحدًا فافعل، وليكن همك مرمة جهازك، وكان يقول: هذا زمان السكوت ولزوم البيت.

وقد كان الإمام أحمد رحمته الله يحب الانفراد والعزلة من الناس، وكذلك إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، ويوسف ابن أسباط في خلق كثير من الخواص.

- يقول الغزالي: ولسنا نريد - رحمك الله - بهذه العزلة التي نختارها مفارقة الناس في الجماعات والجمعات، وترك حقوقهم في

العبادات، وإفشاء السلام ورد التحيات، وما جرى مجراها من وظائف الحقوق الواجبة لهم، وصنائع السنن والعبادات المستحسنة فيما بينهم، فإنها مستثناة بشرائطها، جارية على سبيلها، ما لم يحلّ دونها شغل، ولا منع عنها مانع عذر.

إنما نريد بالعزلة ترك فضول الصحبة، ونبذ الزيادة منها، وحط العلاوة التي لا حاجة بك إليها.

والمختار هو التوسط بين العزلة عن أكثر الناس وعوامهم، والخلطة بالصالحين، والاجتماع مع عامتهم في نحو جمعهم وجماعاتهم، فالعزلة تكون مستحبة في بعض الأحيان ما لم يترتب عليها تضييع حق من حقوق الله من حجٍّ أو شهود الجمعات والجماعات، أو تضييع حق من حقوق العباد.

والعزلة لا تصلح لعامة الناس؛ فإنهم بابتعادهم عن الناس وعن أهل العلم منهم خاصة لا يقوون على مقاومة الشيطان، والرسول ﷺ يقول: «عَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ يَأْكُلُ الْقَاصِيَةَ». فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضر شيء على الجهال.

- قال إبراهيم النخعي: تفقّه ثم اعتزل.

وبهذا نرى أن أمر العزلة اختلف فيه الناس بين مؤيد ومعارض، وأن المؤيد منهم اشترط فيها شروطاً وقيوداً، من عدم تخلف عن الجمع والجماعات، وعدم التفريط في الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، وإلا لو اعتزل الصالحون والدعاة لانتشر الفساد وقوي أنصاره، ولما وجدت للحق ناصراً ولا لأهله معيناً.

- قال ابن الوزير في العزلة: وما زلت في زمن الحداثة وأيام الغرارة أسدّ سمعي عن كل نصيحة، وأرد بطبعي في هذا كل حجة صحيحة، وحبك الشيء يعمي ويصم، ولا ينجو من الهوى إلا من عَصِم، حتى أسفر لي وجه الخبرة عن أحوال الرجال، فنادى مؤذن التجارب: الصلاة في الرحال، وأمر الفصحاء برفع الأصوات بالندارة من كل منارة، فتارة وعيت: ﴿فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾.

و«اتَّعَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَخْصًا مُطَاعًا وَهُوَ مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَاعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ».

و«اعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنَّكَ تَعَضُّ عَلَى جَذَعِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

و«الزَّمْ بَيْتَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَاتْرُكْ مَا تُنْكِرُ».

و«لَيْسَ عَكَ بَيْتِكَ وَأَبُكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ».

- ولما لم أسلم من القيل والقال بعد الفرار والاعتزال، أعجبنى أن أصل هذه الأبيات بقول من قال:

لَوْ تَرَكْنَا وَذَاكَ كُنَّا ظَفِرْنَا
مِنْ أَمَانِينَا بِعَلْقِ نَفِيسٍ
غَيْرَ أَنَّ الزَّمَانَ أَعْنِي بَنِيهِ
حَسَدُونَا عَلَى حَيَاةِ النُّفُوسِ

- والعزلة تكون جائزة للإنسان ما لم يتعين عليه فرض يوجب تركها من جهاد تغيير منكر، وتعلم أو تعليم، أو مانع شرعي ممن يجب طاعته شرعاً من أحد الوالدين، أو إمام أو قاضٍ، أو خصم له حق واجب، أو حق مسلم لازم، أو راجح لم يعارضه خوف فتنة في الدين.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ﴾

وهذه من أعظم الدلالات على فضيلة العزلة؛ لأن أهل مريم الذين اعتزلتهم هم بيت الصلاح والنبوة، فدل على أن العزلة لا تختص باعتزال أهل الشرِّ.

- ومن ذلك ما صح واشتهر، بل عُلِمَ وتواتر، من أنه حُبُّ الخلاء إلى رسول الله ﷺ قبل النبوة حتى فاجأة الحق في غار حراء.

وكان رسول الله ﷺ يتخذ في المسجد حصيراً في أيام اعتكافه يحجز بينه وبين أهل المسجد من أهله الأقربين، وأصحابه السابقين؛ لما في الخلوة من اجتماع القلب على ذكر الله تعالى.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾. فجعلوا العزلة والهجرة سبباً لذلك.

كُنْ حَلَسَ بَيْتِكَ وَاعْتَزَلْ مَنْ تَرْتَضِي
شُغْلًا بِرَبِّكَ أَوْ تَمُوتَ وَحِيدًا
فَالِلُهُ عَظَمَ مَرِيماً فِي ذِكْرِهِ
بِالْاعْتَزَالِ لِتَذَكُّرِ الْمَعْبُودِ
مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَعْتَزِلْ إِلَّا ذَوِي
فَضْلٍ أَكْأَرَمَ رُكْعًا وَسُجُودًا
وَكَذَلِكَ الْخِضْرُ الْمُكْرَمُ مَا قَضَى
أَرَبَ الْمُكَلَّمِ حِينَ رَامَ مَزِيدًا
فَاضْبِرْ لِعُسْرِ الْأَنْفِرَادِ وَلَوْ عَلَى
عَضِّ النَّوَاجِدِ أَوْ تَمُوتَ حَمِيدًا

- وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ خَيْرٌ مَا عَاشَ النَّاسُ لَهُ: رَجُلٌ مَمْسُكٌ لِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْمَوْتَ أَوْ الْقَتْلَ فِي مَظَانِّهِ، وَرَجُلٌ فِي

غَنِمَ فِي رَأْسِ شَعَفٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَافِ، أَوْ بَطْنٍ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ
يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ
النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ».

- وكان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يُقالُ
له: جُمْدَان. فقال: «سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ. قالوا: وما
المُفْرَدُونَ؟ قال: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

- قال ابن الأعرابي: فَرَّدَ الرجل إذا تفقه، واعتزل الناس، وخلا
بمراعاة الأمر والنهي.

- وقال الأزهري: هم المتخلون من الناس بذكر الله تعالى.

- وقال القرطبي: وإنما ذكر النبي ﷺ هذا القول بعد قوله:
«سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ». لأنه جبل منفرد بنفسه هناك،
ليس بجذائه جبل، فذكره بهؤلاء المتفردين.

تَضَرَّدَ فَلَوْلَا الْإِنْضِرَادُ وَحُبُّهُ

لَمَّا ذَكَرَ الْمُخْتَارُ لِلصَّحْبِ جُمْدَانَا

أَثَارَ مِنَ الْمُخْتَارِ أَشْوَاقَ خَاشِعٍ

إِلَى عَهْدِ غَارِ فِي حَرَاءٍ لَهُ زَانَا

فَأَبْدَى إِلَى تِلْكَ الْعُهُودِ تَشَوُّقُ الدِّ

كَرِيمِ إِلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الَّذِي بَانَا

فَلَوْلَا تَكَالِيفُ الرِّسَالَةِ لَمْ يَزَلْ عَلَى خَيْرِ عَهْدٍ هَاجَ مِنْهُ وَأَشْجَانَا

والخلاص من الذنوب بصلاح القلوب والإخلاص، وإنما الفرار وسيلة إلى ذلك وعونٌ عليه، وفطام للنفس الخبيثة من العادات المستحكمة المستقرة المكتسبة من الأهل والأصدقاء، والخطاء في طول العمر من الصغر إلى الكبر، بحيث يُعَدُّ التاركُ لها من الجانبين، فلا يزول هذا الطبع المستحكم إلا بلطف الله تعالى، ورياضة قوية، ومجاهدة ومعاهدة مصحوبة بلطف الله واستعانتة وتوقيفه.

- والعزلة وسيلة لحفظ اللسان من قبيح الكلام ومكروهه وفُضُولِهِ، وما لا يعني الإنسان، فقد تواتر تعظيم خطره، وعُلم من الكتاب والسنة والتجارب، وما أشد الخطر في ذلك مع عدم الحاجة إليه، خصوصاً على قول من يقول: إن المتكلم في غيره بما يكره لا تجزيه التوبة حتى يُخبر غيره ذلك بما قاله على التفصيل، فيبرئه على علم بذلك. وهو مذهب الشافعي.

- والعبادة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة والعاشرة في الصمت، وقد تضمنته العزلة.

- وفي شرح ابن أبي الحديد: إن من اعتزل وتفرَّغ لعبادة الله سامحه أهل الحقوق ولم يجدوا عليه، ومن لم يفعل ذلك لم يستطع القيام بجميع الحقوق ولم يُسامح في شيء، وإن قام بحق بعضهم دون

بعض مع الخلطة كان أقوى سبب لعدم المسامحة، وإثارة الأحقاد .

- وفي ذلك يقول بعضهم:

إِذَا أَنْتَ عَاشَرْتَ الْأَنَامَ جَمِيعَهُمْ
تَعِبْتَ وَلَمْ تَقْضِ الْحُقُوقَ وَلَمْ تُرْضِ
وَإِنْ تُرْضِ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ مِنَ الْأُلَى
صَحِبْتَ أَتَاكَ الشَّرُّ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ
فَدَعَهُمْ بِلا حِقْدٍ لِرَبِّكَ مُخْلِصًا
فَفِي سَعَةٍ مَنْ يَتْرُكُ النَّفْلَ بِالْفَرْضِ

وفي العزلة السلامة من فتنة الغضب، وما يترتب عليه من فتنة
العداوات والتآلم والمفاسد التي لا تحصي، وقد دل على ذلك الحديث
الصحيح عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: أوصني. قال: «لَا تَغْضَبْ».
قال: أوصني. قال: «لَا تَغْضَبْ». قال: أوصني. قال: «لَا تَغْضَبْ».

- والخلطة سبب اتصال الأضياع والكروب بالنفوس والقلوب؛
فإن الإنسان يرى ويسمع من ذلك ما يكدر عليه النعم، ويوقعه في
البغض والوحشة، ويملاً قلبه من الإحـن والأحقاد والعداوات.

- وفي العزلة عدم الاطلاع على ذنوب الناس وعيوبهم، وعدم
الاطلاع على القرائن الدالة على ذلك، الغارسة لاعتقاده في
القلوب.

- وفي العزلة عدم الوقوع في الفتن المدركة بالحواس كالبصر لما لا يقدر عليه ولا يصبر عنه، وسماع ما يثير فتنة الحب، أو ما يوقع في شر الغضب. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

- وقال الحكيم:

وَكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا
لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعَبَتْكَ الْمَنَاطِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ
عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

- وفي العزلة التقية والمدارة، وعدم الحاجة إلى المعارض في الكلام، وعدم الضرورة إلى الوقوع فيما يكرهه الإنسان من مساوئ الأخلاق والأفعال والهفوات، وعدم المساعدة على بعض الأمور البواطل لشيء من ذلك.

- وفي العزلة السلامة من الحسد برؤية ما يتجدد من النعم على الخلق خصوصاً الأعداء، وكذلك السلامة من التَّشَفِّي بما يتجدد عليهم من النِّقَم، والسلامة من اليسير منهما.

- وفي العزلة حفظ الوقت، وهو من أعظم المهمات؛ لأنه رأس مال الأعمال إِنَّ حُفْظَ رُجِيَّتِ الْفَائِدَةِ، وَإِنْ أُضِيعَ بَطَلَتْ، وهو العمر الموهوب لمن أراد أن يَذْكُرَ أو أراد شكوراً، نعمة الله تعالى لاكتساب الفضائل والتسبب إلى رحمة الله التي هي سبب النجاة، وليس به عوض؛ لأن ما

فرط لا يعوّض بعمر ثانٍ، ولا يُستدرك في وقت آخر، وضياعه يقوم مقام قصره، بل مقام عدمه، بل كان عدمه أنفع لمن كسب فيه ما يضره ويوقعه في العذاب، فإذا حُفِظَ من الضياع بالشواغل الضارة وغير النافعة كان حفظه أقوى أسباب الفوز والسلامة، والنعمة والكرامة، وإلا كان سبب الحسرة والندامة، والخُسران الأعظم في يوم القيامة.

- واعلم أن الخلوة غير مقصودة لنفسها، وإنما هي وسيلة إلى ترك المآثم والمهالك، والتفرغ للاشتغال بالطاعات، والمحافظة على الفضائل بعد الفرائض، ومن لم يشغل بذلك في خلوته خُشي عليه من الخذلان، فإنه وإن خلا من الناس فلم يخلُ من النفس والشيطان، فابدأ بإصلاح قلبك وتطهيره من الحسد والغل والعُجب والرياء والكبر ونحوها من الخبائث الباطنة، وحافظ على قواعد خصال الخير وأمهااتها، مثل الصبر الذي هو أحد أسبابها، وحسبك أن الله مع الصابرين، وأن الله يحب الصابرين وأن ذلك في كتابه المبين، ولذلك بدأ الله بهم في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾.

وعد الواحد من المؤمنين يغلب عشرة، ثم اثنين بشرط الصبر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

حجج المائلين إلى المخالطة:

احتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾، وبقوله تعالى: ﴿فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

فامتن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة. والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور، وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات، والعزلة لا تنافي ذلك.

واحتجوا بقوله ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». وهذا ضعيف؛ لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتع بسببه المؤلف، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف، ولكنه ترك المخالطة اشتغلاً بنفسه وطلباً للسلامة من غيره.

واحتجوا بقوله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً خلع ربة الإسلام من عنقه». ويقول: «من فارق الجماعة فمات فميته جاهلية». ويقول ﷺ: «من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربة الإسلام من عنقه». وهذا ضعيف؛ لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة، فالخروج عليهم بغي، وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم، وذلك محذور لا ضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة.

واحتجوا بنهي ﷺ عن الهجر فوق ثلاث؛ إذ قال: «من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار»، وقال ﷺ: «لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، والسابق بالصلح يدخل الجنة». وقال: «من

هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه». قالوا: والعزلة هجره بالكلية. وهذا ضعيف؛ لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلاً من غير غضب. مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين.

أحدهما: أن يرى فيه إصلاحاً للمهجور في الزيادة.

الثاني: أن يرى لنفسه سلامة فيه. والنهي وإن كان عاماً فهو محمول على ما وراء الموضوعين المخصوصين بدليل ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر. وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه ﷺ اعتزل نساءه وآلى منهن شهراً، وصعد إلى غرفة له وهي خزانتة، فلبث تسعة وعشرين يوماً؛ فلما نزل قيل له: إنك كنت فيها تسعة وعشرين، فقال: الشهر قد يكون تسعاً وعشرين. وروت عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائقه». فهذا صريح في التخصيص. وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال: هجران الأحقق قربة إلى الله، فإن ذلك يدوم إلى الموت؛ إذ الحماقة لا ينتظر علاجها. واحتجوا بما روي: أن رجلاً أتى الجبل؛ ليتعبد فيه، فجيء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: «لا تفعل أنت ولا أحد منكم، لصبر أحدكم في بعض موطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاماً».

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة، وإياكم والشعاب، وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد»، وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم.

ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾. إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة. وهذا ضعيف؛ لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين. وعند اليأس من إجاباتهم فلا وجه إلا هجرهم، وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من بركة. واحتجوا بقول موسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُون﴾. وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم. وقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. فأمرهم بالعزلة. وقد اعتزل نبينا صلى الله عليه وسلم قريشاً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلّى الله كلمته. وهذا أيضاً اعتزال عن الكفار. وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار، وإنما النظر في العزلة من المسلمين.

واحتجوا بقوله ﷺ لعبد الله بن عامر الجهني لما قال: يا رسول الله ما المناجاة؟ قال: «ليسعك بيتك، وأمسك عليك لسانك، وابك على خطيئتك».

وروي أنه قيل له ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى». قيل: ثم من؟ قال: «رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره». وقال ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي».

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر، فأما قوله لعبد الله ابن عامر فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه ﷺ بنور النبوة من حاله، وإن لزوم البيت كان أليق به، وأسلم له من المخالطة، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وألا يخرج إلى الجهاد، وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل. وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة، ولذلك قال ﷺ: «الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». وعلى هذا ينزل قوله ﷺ: «رجل معتزل يعبد ربه ويدع الناس من شره. فهذا إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته». وقوله ﷺ: «إن الله يحب التقي الخفي» إشارة إلى إثارة الخمول وتوقي الشهرة. وذلك لا يتعلق بالعزلة، فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس؟ وكم من مخالطة خامل لا ذكر له ولا شهرة؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة.

واحتجوا بما روي أنه ﷺ قال لأصحابه رضي الله عنهم: «ألا أنبئكم بخير الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فأشار بيده نحو المغرب وقال: رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه. ألا أنبئكم بخير الناس بعده؟ وأشار بيده نحو الحجاز وقال: رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس».

لطائف في العزلة:

ومن لطائف من عاش العزلة ما ذكره الأصمعي قال: كانت امرأة تنزل متخية من الحي، وتحب العزلة، وكان لها غنم، فطرقها اللصوص، فقالت لأمتها: أخرجني من هنا؟ قالت: ها هنا حيان، والحمارس، وعامر والحارث، ورأس عنز وشادن، وراعيا بهمنا: فنحن ما أولئك، أي: فنحن أولئك، فلما سمعوا ذلك ظنوا أن عندها بنيها. وقال الأصمعي: فلما سمعت حسهم قالت لأمتها: أخرجني سلح بني من هنا. قال: وسلح: جمع سلاح، وحيان والحمارس: أسماء تيوس لها.

ومما يذكر في لطائف العزلة أن الشفنين من الطير التي تترنم؛ وصوته في ترنمه يشبه صوت الرباب. وفي طبعه أنه إذا فقد أنثاه لم يزل أعزب، يأوي إلى بعض فراخه حتى يموت، وكذلك الأنثى إذا فقدت الذكر. وهو متى سمن سقط ريشه وامتنع من السفاد، فهو لذلك لا يشبع. وهو طائر يؤثر العزلة.

ومما يذكر فيها أيضاً أن الدب حيوان يحب العزلة، فإذا جاء الشتاء دخل وجاره الذي اتخذه في الغيران، ولا يخرج حتى يطيب الهواء.

ومما جاء في مقامة العزلة للزمخشري قوله: يا أبا القاسم، أزل نفسك عن صحبة الناس واعزلها. وائت فرعة من فراع الجبل فانزلها. ولذّ ببعض الكهوف والغيران بعيداً من الرفقاء والجيران، حيث لا تعلق طرفك إلا بسوادك. ولا تجري مؤامرتك إلا مع فؤادك. ولا توصّل إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك. وإلا جوارك ومُناداتك. ولا تفتنّ لعب أحد سوى عيبك. ولا يهملك إلا دنس رذنيك وجيبك. قاتل الله بني هذه الأيام؛ فإنهم طلائع الشرور والآثام، لقاهم لقاءً وحوارهم غوار، ونقالهم نِقار، ووافقهم نفاق.

تسليق بالسنتهم الأعراض كما ترشق بسهامهم الأغراض، تجمع الندوة كبارهم، فلا يتواصون بالصبر، بل يتناصون على الصدر، ولا يتشاورون في حسم الفساد، كما يتساورون على قسم الوساد. إن أنسوك حمدت الوحشة، وإن جالسوك وددت الوحدة، بينا أنت في خلواتك وانفرادك مكباً على أحزابك وأورادك، مردداً فكرك كما يجب فيه ترديده، مجدداً ذكر الله الذي لا ينبغي إلا تجديده، مُشتغلاً بخويصة نفسك وما يعنيك، عاكفاً على ما يدعوك إلى الخير ويُدنيك، ويلفتك عن الشر ويشيك، إذ فوجئت بمُتافئة بعضهم من الذين أخذك الله بغيضهم، فضرب بينك وبين ما كنت فيه بأسداد، ورماك بأمور من تلك الأول بأضداد، وافتن في الأحاديث كحاطب الليل، واستن في

الأكاذيب كعائر الخيل، ملقياً أسباب الفتن بين يدي افتتانه، مخلفاً
للآداب والسنن وراء استتانه، لا يدفع في صدره من حياءٍ دافع، ولا
يزعه من دين حق وازع، ولا ينزعه من عرق صدق نازع، فإذا أنشأ يأكل
لحم أخيه بالنقيصة والتلب، ويلغ في دمه الحرام ولوغ الكلب، ويصوب
ويصعد في تمزيق فروته، ويقوم ويقعد في قرع مروته، ويخلط ذلك
باستهزاء متتابع، واستغراب متدافع، لم يملك حينئذ عنانه، ولم يُثبِّط
عن استهزائه جنانه. فإن لم تُقبل عليه بوجهك وصفك بالكبرياء، وإن
لم ترعه سمعك نسبك إلى الرياء، مسجلاً عليك بالشكاسة والكزازة،
وناهضاً عنك بملء الصدر من الحزازة، وإن أعطيته من نفسك ما
يريد فكلاكما والشيطان المريد، قد جرى أحكما في طلق الضلال
والثاني رسيه، واستوى الأول على صهوة الباطل والآخر زميله، بل
استبقتما إلى غاية الغواية مُعْتَقَيْن، وتردّيتما في هوة الردى معتقَيْن،
فيا لها محنة! ما أضرّها ويا لها فتنة وقى الله شرّها!

الإنسُ مشتقُّ من الأنسِ

والأنسُ أن تنأى عن الإنسِ

ثيابهم مُلْسٌ ولكنها

على ذئابٍ منهم طُلسِ

نفسك فاغنمها وشرِّد بها

عنهم وقل: أفلت يا نفسِ

إِنْ لَمْ تَشْرُدْهَا تَجِدْهَا لَقَى

لِلْفَرْسِ بَيْنَ الظَّفَرِ وَالضَّرْسِ

ومما جاء في مقامته النحوية: ومادّة الخير أن تؤثر العزلة، ولا
تبرّر عن الكين، وتُخفي شخصك إخفاء الضمير المستكن، فإنّ الخفاء
يجمعُ يدَيْكَ على النّجاة والاستعصام، كما استعصمت الواو من القلب
بالإدغام، ولا يكوننّ ضميرك عن الهمّ الدّينيّ سالياً، كما لا يكون أفعُل
من الضمير خالياً.

○ ○ ○

القرار الأخير

قلت في قصيدتي: القرار الأخير:

يَا أَرْضَ بِالْقَرْنِ مَا زِلْنَا مُحِبِّينَا
لَا الْبُعْدُ يُنْسِي وَلَا الْأَعْدَاؤُ تَثْنِينَا
فَسَأَلَنِي الْغَيْمَ كَمْ أَسْقَى مَعَاظِنَا
وَنَاشِدِي الْبَرْقَ كَمْ أَحْيَا مَغَانِينَا
لِي فِيكَ يَا دَوْحَةَ الْأَمْجَادِ مَلْحَمَةٌ
مَحْفُورَةٌ فِي كِتَابٍ مِنْ لِيَالِينَا
يَوْمَ الصَّبَا كَقَمِيصِ الْخَزِّ أَلْبِسُهُ
وَالرَّوْضُ أَخْضَرُ مَمْلُوءٌ رِيَاحِينَا
وَالرَّمْلُ لَوْحِي وَأَقْلَامِي غُصُونُ نَدَا
وَالرَّبْعُ يُمِطِّرُهُ الْقُمْرِي تَلَاحِينَا
يَا أَرْضَ بِالْقَرْنِ لَوْ فَتَشْتَ فِي خَلْدِي
وَجَدْتَ فِيهِ أَحَادِيدًا وَتَأْبِينَا
جُرْحٌ مِنَ الْحَبِّ يَا بِالْقَرْنِ مَا انْدَمَلَتْ
أَطْرَافُهُ بَاتَ يُقْصِينَا وَيُدْنِينَا
قَدْ زُرْتُ بَعْدَكَ يَا بِالْقَرْنِ كُلِّ حِمَى
وَطَرْتُ فِي الْجَوِّ حَتَّى جِئْتُ بَرْلِينَا

فَمَا رَضِيتُ سِوَاكُمْ فِي الْهَوَى بَدَلًا
لَأَتْنِي عَاشِقُ دُنْيَاكِ وَالِدَيْنَا
رَأَيْتُ بَارِيسَ فِي جِلْبَابِ رَاهِبَةٍ
شَمْطَاءَ قَدْ بَلَغَتْ فِي الْعُمُرِ سَبْعِينَ
وَأَنْتِ فِي رِيعَانِ الْعُمُرِ زَاهِيَةٌ
فِي مَيْعَةِ الْحُسْنِ إِشْرَاقًا وَتَكْوِينًا
أَتَيْتُ وَاشْنَطْنَا لَا طَابَ مَرْبِعُهَا
رَأَيْتُ سَاحَتَهَا فِي الضِّيقِ سَجِينًا
فَلَا نَسِيمَ كَأَرْضِي إِذْ يُصَبِّحُنَا
وَلَا نَدَى الطَّلِّ فِي الْوَادِي يُمَسِّنَا
أَرْضُ السَّنَابِلِ لَا أَرْضُ الْقَنَابِلِ يَا
سَحَرِ الْوُجُودِ وَيَا حِرْزَ الْمُحِبِّينَا
يَا رَوْضَةَ طَالَمَا هَزَّتْ مَعَاطِفَهَا
كَأَنَّهَا بِتَبَاشِيرِ تَحْيِينَا
وَرِيوَةٌ كَمْ دَرَجْنَا فِي مَلَاعِبِهَا
عَهْدُ الطُّفُولَةِ يَزْهُو مِنْ أَمَانِينَا
وَالْأَرْبَعُونَ عَلَى خَدِّي مُرَوَعَةٌ
يَا لَيْتَ أَنِّي أَهَادِي سَنَ عَشْرِينَا

والغبنُ يَكْتَبُ في أضلاعِنَا حُطْبًا
مُدْرَبُ القُلْفِ يُعْطِينَا تَمَارِينَا
يَقْتَاتُ مِنْ لَحْمِنَا غَضْبًا وَيَجْلِدُنَا
وَيَسْتَقِي دَمَنَا زُورًا وَيُظْمِنُنَا
وإنْ نَظْمُنَا بُيُوتَ الشَّعْرِ نَمْدَحُهُ
يَظَلُّ بِالشَّعْرِ الْمُفْتُولِ يَلْوِينَا
إذا اقْتَرَحْنَا عَلَى أَيَّامِنَا طَلْبًا
ذُقْنَا المَنَايَا الَّتِي تَطْوِي أَمَانِينَا
أِهْ عَلَى قَهْوَةِ سَمَرَاءَ نَشْرِبُهَا
فِي غُرْفَةٍ مِنْ ضَمِيمِ الطِّينِ تُؤْوِينَا
سَجَّادُهَا بِحَصِيرِ النَّخْلِ نَنْسُجُهُ
وَرِيْشُهَا بِنَقِيِّ الصَّوْفِ يُدْفِينَا
بِعْنَا الهُمُومَ بِدُنْيَانَا صَيَّارِفَهُ
لَسْنَا جُبَاةَ وَمَا كُنَّا مُرَابِّينَا
لَمْ نَدْخِرْ قُوَّتَنَا بُخْلًا لِيَوْمِ غَدٍ
لِكُلِّ يَوْمٍ طَعَامٌ سَوْفَ يَأْتِينَا
وَنَمْلَأُ الضَّيْفَ تَرْحَابًا لِنُنْسِيَهُ
مَا غَابَ مِنْ أَهْلِهِ عَنْهُ وَيُنْسِينَا

أَمَامَ غُرْفَتِنَا يَجْرِي الْغَدِيرُ عَلَى
صَوْتِ الْحَمَامِ بِأَبْيَاتٍ يُغْنِينَا
قُلُوبُ أَصْحَابِنَا طَهْرٌ وَسِيرَتُهُمْ
مِثْلُ الزُّلَالِ الَّذِي فِي الْقَيْظِ يَزْوِينَا
أَيَّامَ لَا كَدْلَكَ يَعْوِي بِحَارَتِنَا
وَلَا الْبَوَارِي تَدْوِي فِي نَوَادِينَا
وَالْيَوْمَ أَمْوَالُنَا بَاتَتْ تُورِقُنَا
هَمًّا وَأَوْلَادُنَا بِالْغَمِّ تُؤْذِينَا
إِذَا رَفَعْنَا بِآيَاتٍ عَقِيرَتِنَا
قَالُوا غُلُّوا هَذَا خَالَفَ الدِّينَا
وَإِنْ هَمَسْنَا بِحُبٍّ فِي مَجَالِسِنَا
قَالُوا: يُدَبِّرُ أَعْمَالًا لِتُرْدِينَا
وَإِنْ لَبَسْنَا بُشُوتًا عَرَضُوا سَفَهَا
بِأَنَّنَا نَزْدَهِي فِيهَا مُرَائِينَا
وَإِنْ تَقَشَّفَ مِنَّا صَادِقٌ وَرَعٌ
قَالُوا: يُخَادِعُنَا عَمْدًا وَيُغْوِينَا
إِذَا صَمَتْنَا أَقْضَى الصَّمْتُ مَضْجَعَهُمْ
وَإِنْ نَطَقْنَا شَرِينَا كَأَسْنَا طِينَا

إِذَا أَجَبْنَا عَلَى الْجَوَالِ أَمْطَرْنَا
 بِالسَّبِّ مَنْ كَانَ نُغْلِيهِ وَيُغْلِيْنَا
 وَإِنْ أَبَيْنَا أَتَتْنَا مِنْ رَسَائِلِهِ
 مِثْلُ السَّعِيرِ عَلَى الرَّمْضَاءِ تَشْوِينَا
 قَلْنَا لَهُمْ: هَذِهِ الْأَشْيَاءُ حَلَّلَهَا
 أَبُو حَنِيفَةَ بَلْ سُقْنَا الْبَرَاهِينَا
 قَالُوا: خَرَقْتَ لَنَا الْإِجْمَاعَ فِي شُبِّهِ
 مِنْ رَأْيِكَ الْفَجَّ بِالنُّكْرَاءِ تَأْتِينَا
 وَإِنْ ضَحِكْنَا أَضَافُونَا بِسُخْرِيَةٍ
 صَفْرَاءَ تَمْلُونَا غُبْنَا وَتُدْوِينَا
 وَإِنْ بَكَيْنَا لَظَلُّوا شَامِتِينَ بِنَا
 كَأَنَّهُمْ وَحَدَّهُمْ صَارُوا مَوَازِينَا
 تَفَرَّدُوا بِخَطَايَانَا وَأَشْغَلَهُمْ
 عَنْ ذِكْرِ سَوْئِهِمُ الْمُرْدِي مَسَاوِينَا
 وَيَفْرَحُونَ إِذَا زَلَّ الْحِذَاءُ بِنَا
 وَيَهْزُؤُونَ بِمَنْ يَرْوِي مَعَالِينَا
 وَلَا يَرُونَ سِوَى أَغْلَاطِنَا أَبَدًا
 فَنَقْدُهُمْ صَارَ فِي أَهْوَائِهِمْ دِينَا

وَشَتَّمَهُمْ هُوَ مَحْضُ النَّصْحِ عِنْدَهُمْ
وَرَدُّنَا هُوَ زُورٌ مِنْ مَغَاوِينَا
لِحُومِهِمْ عِنْدَنَا مَسْمُومَةٌ أَبَدًا
وَلَحْمُنَا صَارَ بِاسْمِ النَّقْدِ سَرْدِينَا
فَنَحْنُ عِنْدَ الْحَدَاثِيِّينَ قَافِلَةٌ
مِنْ الْخَوَارِجِ نَقْفُو النَّهْجَ تَالِينَا
أَمَّا الْغَلَاةُ فَإِنَّا عِنْدَ شَيْخِهِمْ
لَسْنَا ثِقَاتٍ وَمَا كُنَّا مَيَامِينَا
وَنَحْنُ فِي شَرْعِهِ خُنَا عَقِيدَتَنَا
مِنْ بَائِعِينَ مَبَادِينَا وَشَارِينَا
كَمْ مَوْلِعٍ بِخِلَافِي لَوْ أَقُولُ لَهُ:
هَذَا النَّهَارُ لَقَالَ: اللَّيْلُ يُضْوِينَا
إِذَا طَلَبْنَا جَلِيسًا لَا يُوَافِقُنَا
وَأَدِيهِ لَيْسَ عَلَى قُرْبِ بَوَادِينَا
فَتَاجِرٌ لَاهِتْ أَلَهْتُهُ ثَرَوْتُهُ
عَبْدُ الدَّرَاهِمِ قَدْ عَادَى الْمَسَاكِينَا
وَجَاهِلٌ كَافِرٌ بِالْحَرْفِ مَا بَصُرْتُ
عَيْنَاهُ سَفَرًا وَمَا أَمَّ الدَّوَاوِينَا

وَمُعْجَبٌ صَلَفٌ زَاهٍ بِمَنْصِبِهِ
تَوَاضَعُ مِنْهُ فَضْلاً أَنْ يُمَاشِينَا
فَالآنَ حَلٌّ لَنَا هَجْرُ الْجَمِيعِ وَفِي
لُزُومٍ مَنَزِلْنَا غُنْمٌ يُوَاسِينَا
نُصَاحِبُ الْكُتُبِ الصَّفْرَاءِ نَلْتَمُهَا
نَشْكُو لَهَا صَخَبَ الدُّنْيَا فَتُشْكِينَا
تَضْمَنَّا مِنْ لَهِيْبِ الْهَجْرِ تَمْطِرُنَا
بِالْحُبِّ تَضْحِكُنَا طَوْرًا وَتُبْكِينَا
(مَا فِي الْخِيَامِ أَخُو وَجَدٍ نَطَارِحُهُ
حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلٌّ يُصَافِينَا)
فَالزَّمْ قَدَيْتُكَ بَيْتًا أَنْتَ تَسْكُنُهُ
وَاصْمُتْ فَكُلُّ الْبَرَايَا أَصْبَحُوا عَيْنَا
شُكْرًا لَكُمْ أَيُّهَا الْأَعْدَاءُ، فَأَبْتَهِجُوا
صَارَتْ عَدَاوَتُكُمْ تَيْنًا وَزَيْتُونَا
عَلَّمْتُمُونَا طِلَابَ الْمَجْدِ فَاَنْطَلَقْتُ
بِنَا الْمَطَامِحَ تَهْدِينَا وَتُعْلِينَا
جَزَاكُمْ اللَّهُ خَيْرًا إِذْ بِكُمْ صَلَحَتْ
أَخْطَاؤُنَا وَاسْتَفَقْنَا مِنْ مَعَاصِينَا

دَلَلْتُمُونَا عَلَى زَلَاتِنَا كَرَمًا
وَعَيَّرُكُمْ بِسُكَارِ الْمَدْحِ يُعْمِينَا
فَسَامِحُونَا إِذَا سَأَلْتَ مَدَامِعُنَا
مَنْ لَدُنْكَ أَسْيَاطُكُمْ كُنْتُمْ مُصِيبِينَا
تَجَاوَزُوا عَنْ زَفِيرٍ مِنْ جَوَانِحِنَا
حِلْمًا عَلَى زَفَرَاتٍ فِي حَوَاشِينَا
ثَنَاءُ أَحِبَّائِنَا قَدْ عَاقَ هِمَّتَنَا
وَلَوْمْ حُسَّادِنَا أَذْكَى مَوَاضِينَا
مَاذَا لَقِينَا مِنَ الدُّنْيَا وَعِشْرَتِهَا
عُشَّاقُهَا نَحْنُ وَهِيَ الدَّهْرُ تَقْلِينَا
عَلَى مَصَائِبِهَا نَاحَتْ مَوَاجِعُنَا
وَمِنْ نَكَائِدِهَا ذَابَتْ مَا قِينَا
تَغْتَالِنَا بِدَوَاهِيهَا وَتَنْحَرُنَا
صَارَتْ مَخَالِبُهَا فِينَا سَكَامِينَا
وَالآنَ فِي الْبَيْتِ لَا خِلٌّ نُسْرِبُهُ
إِلَّا الْكِتَابُ يُنَاجِينَا وَيُشْجِينَا

● وقلت:

عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ لِلْأَحْرَارِ تَبْيَانُ
وَمَنْ تَجَارِبِ دَهْرِ شَأْنُهَا شَانُ
أَنْصَتُ لِمَوْعِظَةٍ لَوْ خَاطَبْتُ حَجْرًا
لَسَأَلَ مِنْهُ أَخَايِدٌ وَخِلْجَانُ
أَعْدَدُ لِمَوْقِفٍ عَرَضٍ سَوْفَ تَشْهَدُهُ
تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهِ الْمَشْهُودُ وَلِدَانُ
رَأْسُ الْمَعَالِي تَقْوَى اللَّهِ فَاعِنِ بِهَا
وَاحْتِطْ لِدِينِكَ إِذْ لِلسَّعْيِ مِيزَانُ
وَاصْرُمْ حِبَالَكَ مِنْ دُنْيَا مَنْغِصَةٍ
فِيهَا مِنَ الْهَمِّ أَشْكَالٌ وَأَلْوَانُ
يَكْفِيكَ مِمَّا تَرَى مَا قَدْ تَعِيشُ بِهِ
وَمَا سِوَاهُ فَأَشْغَالٌ وَأَحْزَانُ
إِنَّ الْقَنَاعَةَ كَنْزٌ لَا فَنَاءَ بِهِ
مَالٌ لِمَنْ فَاتَهُ دُرٌّ وَمُرْجَانُ
شَرْقٌ وَغَرْبٌ إِذَا سَامُوكَ مَنْقِصَةٌ
فَالذُّلُّ مَوْتُ وَأَرْضُ اللَّهِ أَوْطَانُ
الْصَّدَقُ أَجْمَلُ تَاجٍ أَنْتَ حَامِلُهُ
لَا تُعْجِبَنَّكَ غَيْرُ الصَّدَقِ تِيجَانُ

والزهدُ أغلى قميصِ زانٍ لابسَه
سِعراً وَلَوْ نُسِجَتْ بالدِرِّ قمصانُ
ما أبخلَ الناسَ حتى بالسَّلامِ فكُلْ
هُمُ من الجودِ مسلوبٌ وعريانُ
يقدِّسونَ أخا الدُّنيا فإنْ ذهبَتْ
تفرَّقوا وَلَوْ نُسِجَتْ بالدِرِّ قمصانُ
لو كنْتَ كالشمسِ أو كالبدْرِ لانتحلُّوا
عيباً وَلَوْ أَنَّ هذا العيبَ بهتانُ
سُبُّوا الذي أوجدَ الدنيا وأوجدَهم
تبارك الله ما في الحسنِ نقصانُ
لا تعجَبَنَّ بهم إنْ أقبلُوا فهُمُ
للغدرِ والخطبِ والأحداثِ أعوانُ
كُنْ حلسَ بيتِكَ إنَّ الناسَ قد مرَّجَتْ
عهودُهم إنَّ إلفَ البيتِ إيمانُ
ورثَلِ الآيِ لا تسأمُ تلاوتهُ
خيرُ القلوبِ فؤادُ فيه قرآنُ
والهَجْ بذكرِ عظيمِ الشَّانِ معَ نفسِ
فذكرُ ربِّ الورى رُوْحٌ وريحانُ

واغسلُ ثيابَ ذنوبِ طالما لبستُ
بدمعِ عينِكَ إِنَّ اللهَ رَحِمُنْ
لا تغترزُ ببني الدُّنيا وجمعهمُ
عند الشدائدِ لا يلقاكِ إنسانُ
عبيدُ منفعةٍ إن أقبلتُ كثُرُوا
وإن تولَّتُ فهمُ وهنٌ وخذلانُ
وإن تعسَّرَ أمرٌ فانتظرُ فرجاً
فكلُّ يومٍ له في خلقه شأنُ
وانظرُ إلى الفلكِ الدُّوارِ ما ثبتتُ
أبراجُه واعتبرُ فالدهرُ ألوانُ
أطفئُ وقودَ عداواتٍ قد اشتعلتُ
وهل يصحُّ فؤادٌ فيه نيرانُ
واحبسْ لسانَكَ لا يلدغُك منطقُه
فإنَّه ولو استمرتُ ثعبانُ
ما فاتَ ماتَ فلا تأسفْ عليه فلنْ
يعيدهُ لك تدبيرُ وإمعانُ
واتركْ لكلِّ غدٍّ همًّا فإنَّ غداً
غيبٌ سيكفيكُه باللفظِ ديانُ

ما العيشُ إلا لزومُ البيتِ في دعةٍ
البيتُ للمسلمِ المحفوظِ إيوانُ
دعِ المناصبَ للأوغادِ تطلبُها
فهِيَ الأذى والقذى يَهْواه جعلانُ
مللتُ كلَّ جليسٍ كنتُ آلفُهُ
إلا الكتابَ فلمْ يعدلْه إخوانُ
والعلمُ أشرفُ مطلوبٍ ظفرتَ به
فالعمرُ في غيره لهُوَ وخسرانُ
واحلُمُ فكلُّ ستلقى من إساءته
من خالطَ الناسَ أمسى وهو ندمانُ
تنبؤُ السيوفِ المواضي وهي مصلتهُ
وقد تدقُّ العوالي وهي طنطنانُ
أهلُ الحديثِ همُ أهلُ النبيِّ وهمُ
نجومُ ملتهِ إنَّ ضلَّ حيرانُ
فاعرفْ مكانتهمُ والزمْ صيانتهمُ
واحفظْ رسالتهمُ يحفظك ديانُ
أكرمُ بقاصرهمُ أنعمَ بواردهمُ
أتعسُ بحاسدهمُ تصلاه نيرانُ

وكن مع السلفِ الأطهارِ إنْ وردُوا
ماءَ المنايا فقلْ: صَبُّ وعطشانُ
(دَعُها سماويةٌ تجري على قدرِ)
ما مسَّها بالأذى إنسٌ ولا جانُ
مقصورةٌ في خيامِ الخلدِ لو نطقتُ
قالتُ: أنا الشمسُ فيها حارَ عَميانُ
قرنيَّةٌ وأويسُ الزهدِ والدها
الأزدُ زهرتُها والماءُ غَسَّانُ
منَ حسنِها يدَّعيها كلُّ ذي جدلٍ
زهيرُ يصغي وعمرانُ وحِطانُ
فما امرؤُ القيسِ والتضليلُ مذهبهُ
وما جريروما الأعشى وقبَّانُ

● وقلت في قصيدتي عز العزلة:

أنا في حديقةٍ منزلي متألِّقاً
كالشمسِ قد حُجبتَ عن العميانِ
صاحبتُ مكتبتني فلو أبصرتني
لحسبتُ أني صاحبُ الإيوانِ

طوراً أرتلُ مصحفاً آياته
نور الحياة وبهجة الإيمان
أو دارساً علم الحديث مع النبي
دمع المحبة دائم الهملان
وإذا نظرتَ الفقهَ أشرقَ خاطري
للشافعي ولأحمد الشيباني
وأغوصُ في الأدب الجميلِ مرناً
بقصائد الأعشى مع الذبياني
ولسيبويه معي لقاء خالد
أمّا البخاري فهو من خلاني
يوماً مع التفسير أحسو كأسه
صاحبتُ خير الناس والشوكاني
والله لو علم الأنام بحالنا
في راحة وقناعة وأمان
وتفقه وتفكر وتعبد
وتعلق بالعلم والإيمان
لدعوا عظيم الشأن حالاً مثلنا
ولطلقوا هذا الحطام الفاني

ولهانَ في أبصارهم ما شئدوا
مِنْ قلعةٍ فيها مِنْ الأفنانِ
واللهِ لو أبصرتنا في ليلةٍ
معمورةٍ الأرجاءِ بالقرآنِ
ورأيتنا نتلو حديثَ محمدٍ
في الترمذي ومعجمِ الطبراني
بعنا الكرى في سوقِ روادِ العلا
والنومُ فارقَ مريعِ الأجفانِ
ونخاطبُ الأمواتَ بعدَ رحيلهم
ونسافرُ الأجيالَ مِنْ أزمانِ
ونسائلُ التاريخَ في صفحاته
عمَّا رواه فلانٌ لابنِ فلانِ
ورأيتنا وثيابنا قد خضبتُ
بمدايننا مثلَ الشهيدِ القانِ
وصريفُ أقلامِ لنا قد أنهكتُ
مثلَ السيوفِ البيضِ في الإيمانِ
ونقلبُ الأوراقَ في غسقِ الدجى
تقليبَ ريحِ الصبحِ للأغصانِ

حيناً يظلُّ الدمعُ سحاً دافئاً
منْ عبْرَةٍ قد أثَّرتْ بجنانِ
أو هزَّنا عجبٌ لنقلِ غريبةِ
قد صاغها الحفاظُ أهلُ الشانِ
أو زارنا ضحكٌ لنكتةٍ مازحِ
أو حكمةٍ منْ شاعرٍ فيناني
لغبطتنا واللهِ غبطةٌ عاقلِ
عرفَ الحياةَ ولم يكنْ بالواني
أتبيتُ في نومٍ عميقٍ سادرِ
أو جلسةٍ في معشرِ العميانِ
وتهيمُ بالصوتِ الجميلِ صلاته
من مطربٍ يلهُو مع الشيطانِ
وتريدُ بعدَ تبلدٍ إدراكنا
كلاً فقد أخطأت في الحسابِ
دعني معَ كتبي وخذْ ما شئتَ منْ
ذهبٍ ومنْ كنزٍ ومنْ مرجانِ
فأنا بمكتبتِي أعزُّ مكانةً
من قيصر في القصر والنعمانِ
ما دامَ أنْ الموتَ غايةٌ سعيْنا
فزبرجدُ الساداتِ كالعيدانِ

● عشاق:

يَا رَمُوزَ الْمَطَالِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ
يَا لِيُوثًا عَلَى الْأَمَانِي الدُّنْيَا
اتْرَكُونِي وَوَحْدَتِي وَكِتَابِي
لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ قَضِيَّةٍ
سَامِحُونِي مِنَ الْلِقَاءِ فَإِنِّي
غَارِقٌ فِي مَعَارِفِ عُلُويَّةٍ
كُلُّ مَا تَبْصُرُونَ مِنْ بَهْجَةِ الدُّنْ
يَا خَدَاعُ وَكَذِبَةُ عِبْرِيَّةٍ

● وقلت بعدما عركتني الحياة، وصارعت الأحداث وجربت الناس،
وشرقت وغربت:

أَنَا قَدْ جِئْتُ لِلْحَيَاةِ أَبْيَا
ثَائِرُ الْقَلْبِ عَارِمُ الْأَشْوَاقِ
مَا مَعِيَ غَيْرُ دَفْتَرِي وَكِتَابِي
أَعْبُرُ الدَّهْرَ مَرْكَبِي أَوْرَاقِي
مَا جَمَعْتُ الْأَمْوَالَ أَخْدُمُهَا عَمْدُ
رِي وَمَا عَشْتُ عَيْشَةَ الْإِمْلَاقِ
دَرْهَمِي خَادِمِي وَصَاحِبِي الْحَزْ
فُ وَحَسْبِي عَنَايَةُ الْخَلَاقِ

ما عمرت القصور قصري سموي
في المعالي بهمة السباق
ورعاني أبي وأمي حبتني
بحنين من حبها الدفاق
كلما شاهدت عيوني جمالاً
دنيوياً ذكرت يوم التلاقي
فتهل الدموع فيضاً سخياً
من أفانين نبعها المهرق
يا كتابي أنت الوفي لقلبي
أنت خلّي هونت كل فراق
يا خليلي إذا جفاني الأخلا
ء عزيزي أنت خير الرفاق
يا نجّي إذا خلوت ببيتي
يا عزائي من كل أهل النفاق
يا سروري إذا حزنت وأنسي
أنت أغلى من صافنات عتاق
اقرأ (اقرأ) رسالة الله جاءت
للنبي الكريم في الآفاق
كلمة تأسر القلوب جلالاً
وهي سرّ الخلود والميثاق

لي أصحاب ثلاثة معي في السفر والحضر: كتابي، وأوراقي، وقلمي.
 فأنا صاحب قراءة وتأليف وتفكير، وهذا سرُّ سلوِّي عن الناس وانفرادي
 عن العالم؛ لأن معي العلماء والأدباء والحكماء والشعراء، فأنا أعيش أزماناً
 طويلة وأعاصر دولاً كثيرة، وأقابل ملوكاً وأجوداً وشجعاناً، فما أجمل الكتاب
 رفيق عمر، وصديق حياة، وصاحب وفاء، ومحدث أنس، ومفرج هم.
 • وقد قلت:

إذا تسلى هواهُ اللهو بالطرب
 وعاد أقزامُ أهل الزُّور باللعب
 فعزلتي عزتي والبيتُ جامعتي
 ومؤنسي عندما أخلو بها كتب
 لي خمسةٌ بعد ربِّي والنبى بها
 سعادتي عن جميع العجم والعرب
 كتابُ علمٍ وأوراقِي ولي قلمي
 وقرصُ خبزٍ مع ثوبٍ وذا أربي
 أنا عرفتُ الليالي مثل معرفتي
 بأهلها فدع الأوطان واغترب

ما في الخيام أخو ودٍ نطارحه
حديث حب ولا ذكر ولا عجب
سافرت من (سوريا) الشرق ممتطياً
ظهر السماء وكاد الجو يرقص بي
وسرت غرباً إلى (لوس انجلوس) فما
حصلت إلا على الإرهاق والتعب
جالست كل عظيم من معارفنا
من أهل ملك وعلم أو ذوي أدب
نعم سكنت قصور الأرض أحسبني
أكون أسعد خلق الله عن كتب
فعدت لا القلب أسجاء ولا بلد
ولا صديق ولا شيء من النشب
لزمْتُ غرفتي الغراء مكتفياً
بقوت يومي وهذا منتهى طلبي
فمصحفي سلوتي عن كل أمنية
ودفرتي عند رأسي مذهب النصب
غداً أموت كما مات الألى سبقوا
سل القبور ولا تسأل عن السبب

الخاتمة

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

اللهم، صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

